# محب التاريخ

الدكتور
مصطفى ابراهيم حسين

الدكتور
شكري فيصل

الطبعة الاولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصميم الغلاف : عباده الزهيرى
مطابع دار البلاد - جدة - ت : ٦٧٠٠٣٣٣

# تقـــديم

بقلم : إياد أمين مدني

من العسير دائماً أن يكتب الانسان عن قريب عزيز خاصة إن تعدت الصلة التي تجمعهما ، وشائج الدم إلى التأثر بالفكر والمنهج .

فالكاتب إنسان ، يتأثر حكمه ، وتتلون موضوعيته بطيوف الحب والقربى والاحترام . وحتى ولو حاول ، فإن القارىء سينظر دوماً إلى كتابات الابن عن أبيه على أنها من أنواع المديح والإطراء اللذين لا مفر منهما في مجتمع يعطي لمثل هذه العلاقة قدسية لا تمس .

ولن تكون هذه السطور استثناء . فالحب كان الصفة الأولى التي تجمع بين أمين مدني - واسمحوا لي أن أناديه باسمه مجردا - وأبنائه ؛ لكنه لم يكن حبا تتدفق فيه العاطفة هوجاء عمياء ، بل حب يغلب عليه الاحترام والثقة والمسئولية والمثل .

كان دائما يريد أن يعوض فينا الأب في حياته ، فهو وأخوه عبيد مدني نشآ يتيمين لأب أنجب كثيرين ، شاء الله دائما أن يأخذهم إلى جواره وهم صبية لم يقو عودهم بعد ، حتى رزقه الله بعبيد وأمين ، ليتركهما هو ويرحل إلى عالم الخلد والأول صبي في الخامسة والثاني رضيع عند مرضعة بدوية استقرت قبيلتها على مشارف المدينة المنورة .

وكانت الأم بمثابة الأب لهما في جَلَدها وقوة إرادتها وصواب نظرتها ، في مدينة خيمت عليها ظلال حرب عالمية ضروس .

ونجد لمحات من تلك الظروف الصعبة بين ثنايا مخطوطته التي تنتظر الطبع والتي أسماها ( المدينة ذكريات ستين عاما ) وترك مسوداته قبل أن يختاره الله إلى جواره حيث يقول :

« خلت محلات المدينة وميادينها وأسواقها وأزقتها وأحوشتها وكل دار من دورها من سكانها فتبدل الضجيج بصمت رهيب ، فكأن الدور وقد صف بعضها بجانب بعض ، كثبان الربع الخالي لا أنيس بها ولا سامر ، أو كأنها قمم جبل سلع ، وأمست في ليلها كأنها مدينة الأشباح التي تبدو في ظلال الليل كتلاً من الظلام على هيئة الجن والأبالسة ؛ التي تتحدث عنها قصص العجائز ، تقفز من سطح إلى سطح . . فيفزع إلى حضن أمه مرعوبا يسأل عن الأشباح وعن الصمت والظلام . . » .

ورغم قسوة الظروف، ومحدودية المكان ،نشأ أمين مدني ليجد نفسه وارثاً لأب واسع الصيت وأسرة كريمة المحتد ؛ فأبوه السيد عبدالله مدني كان من رجالات المدينة البارزين ، مدحه الشعراء ، ومنهم الشاعر المعروف العمري ، وحفل مجلسه برجالات العلم والسياسة ، وراسله أمراء العرب آنذاك من آل سعود وشريف مكة وآل الرشيد .

وأمه من آل البرزنجي الذين نبغ فيهم كثيرون ، منهم والدها السيد أحمد برزنجي مفتي الشافعية بالمدينة المنورة وعضوها في مجلس المبعوثان العثماني .

ولعل هذا ، وما استطاع أن يكونه لنفسه من حصيلة علمية بدأت في حلقات الدرس بالمسجد النبوي الشريف واستمرت بين مكتبات دمشق والقاهرة ـ هما سر ذلك الاعتداد بالنفس الذي حمله معه دائماً : بين أهله وأصحابه ، في جلساته ومناظراته ، وفي صلاته مع الجميع كبروا أم صغروا ـ ولعل في ذلك سببا من أسباب بقائه بعيدا عن بعض أضواء غمرت غيره . هذه الصفات الشخصية انعكست أيضا على فكره ، فالصلابة تجلت في أسلوب منهجي يميزه عن غيره من ذلك الرعيل الأول الذي أنار مشاعل الفكر في ارجاء هذه الجزيرة العربية قبل نحو نصف قرن من الزمان . تقرأ كتبه فتنقل لك سطورها منهجا علميا ملتزما يسعى دائما إلى الموضوعية ، وعــرض الحقائق والآراء ، وعقد المقارنات ، والعودة إلى أصل الافتراضات قبل أن يصل بك الى اجتهاد جديد . والاعتداد بالنفس انعكس في البحث المضني الذي كان يبذله قبل إبداء وجهة نظر أو الإدلاء بدلوه في أي نقاش . . وبعد ذلك يأتي الرأي قويا مؤيدا بالحجج والبراهين والمنطق والعقل .

وإن كانت هناك من علامات بارزة في الأعمال التي تركها أمين مدني فلعل أولها ذلك الإيمان العلمي بأسبقية الجزيرة العربية وأولوية ما خطته على صفحات التاريخ الإنساني ، وأن للعرب « في ماضيهم القديم شأناً أكبر بكثير مما كان للعرب في جاهلية ما قبل الإسلام ، وأن للجزيرة العربية فضلا في نشر العقائد ، واللغة والحضارة وتطوير فن الملاحة في البحر الأبيض المتوسط » ، والسبق « إلى حياة التمدن والاستقرار » .

وهو في هذا وكل أعماله الأخرى ، كتباً كانت أم مقالات ، ينطلق من أن للكاتب والباحث دوراً أساسياً ورائداً في حياة أمته ، لا كمطبل ، أو مزمر ، بل كباحث عن الحقيقة يضيء من خلال كشفه لها الطريق أمام مجتمعه وجيله والأجيال التي تليه . وفي فقرة من كتابه « الاستثمار المصرفي وشركات المساهمة في التشريع الإسلامي » ، يلخص هذه النظرة حيث يقول :

« ولا أظن أحداً يجهل أن الخوف من تحريم ما حلله الله يجب أن لا يقل من الخوف من تحليل ما حرم الله . فالخوف من الوقوع في تحليل ما حرم الله وتحريم ما حلله لم يمنع الرعيل الأول من رجالات الفقه والفكر عن الاجتهاد في تنظيم تشريع قويم استوعب كل ما جد على العالم الإسلامي بعد عهد الراشدين . فالقدامى لم يكونوا أقل خوفا من المعاصرين ولكنه واجب المعرفة وضريبة العلم . . فالواجب يحتم اليوم على أئمتنا أن يخافوا من السكوت أكثر مما يخافون من الكلام ، فالعالم إذا أفصح بأمانة العالم النزيه عما يعلم أو عما وصل إليه اجتهاده ـ يؤجر سواء أخطأ أو أصاب فإن له في الحالتين أجر أداء الأمانة ومتاعب الاجتهاد ، لكنه إذا سكت عما يعلم أو أراح نفسه من الاجتهاد تسبب في ضياع المجتمع . . فإذا كان نصف العلم قول لا أدري فبلبلة الجماهير تدفع المسئولين عن التشريع لأداء حق النصف الآخر . . وهو قول : أدري . . » .

كما تجده يقول في كتابه « الثقافة الإسلامية وحواضرها » : « حقا إن مواجهة كل جديد بسلبية جافة جامدة لا يسد الطريق في وجه الجديد ، بل هو على العكس يتيح له الانتشار ؛ لأن الرغبة في التطور تملأ النفوس . فإذا لم يدرس الجديد بكثير من الواقعية ويهذب بكثير من الحكمة ، ويطبع بكثير من المرونة ، فإن الجماهير سوف تدير ظهرها للسلبية لتستقبل الجديد بغثه وسمينه على أساس أنه من ضروريات التطور ، فما أحوج ثقافتنا لرعاية رواد معتدلين ، في قدرتهم تصفية ما يحمله طوفان الحاضر ، والأخذ بكل ما هو مفيد وصالح لحياتنا في حاضرها ومستقبلها ، وما أحوج الفكر الإسلامي إلى توعية المدارك ، تطبيعها وإعدادها لتحمل مسؤوليات تختلف أزمانها وأبعادها وألوانها عن الماضي وأبعاده وألوانه . فإذا لم يكن هناك وعي يقود الجديد لمنافعه ويدخله في نطاقه ، فإن الجديد سوف يخرجه عن عقائده وتقاليده وثقافته . . » .

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب :

« فمسؤولية الرواد اليوم ، القضاء على المتناقضات بالحرص على تقديم ثقافة إسلامية أصيلة مبرأة من الجمود والتطرف يقتنع بها القراء والمستمعون والمشاهدون الذين ضاقوا ذرعاً بالجمود كما ضاقوا ذرعاً بالتطرف . فإذا لم يتدارك الرواد الذين ألقت الدول والمجتمعات على عاتقهم عبء التوجيه الفكري فإن النتيجة التي لا مفر منها سوف تكون انصراف الجماهير عن الثقافة الاسلامية واعتبارها متناقضات لا أول لها ولا آخر . . » .

وبعد فهذه ليست سطورا يستعرض فيها ابن أعمال أبيه ، فلدارس التاريخ الحكم على أعماله التي تركها في مجلدات تاريخية أربعة ، قال عنها المؤرخ المصري حبيب جاماتي في مقدمة الجزء الأول من سلسلة « العرب في أحقاب التاريخ » : « التاريخ العربي وبدايته » والذي صدرت طبعته الأولى قبل أكثر من ثلاثين عاما : « فمن الناحية التاريخية وفق أمين مدني إلى إزالة الغموض عن طائفة من الحوادث والآراء والمعتقدات والأقوال المتناقلة بالنسبة إلى تلك الحقبة الأولى من كيان العروبة . وموازنات بين ما قيل وما كتب ، وما نقل عن العرب منذ أن طاف ذكرهم على الألسنة . . . » ، والتى يقول هو عن الدوافع التى حفزته على خوض غمار البحث والتنقيب التاريخي المضنى ، ماجاء فى نفس المقدمة :

« إن لكل عمل - مهما كان بسيطا أو خطيرا - دوافع وأسبابا . والدوافع لمناقشة هذه الموضوعات وتقديمها مصنفة في هذه الأجزاء : كثيرة . فلقد كان في رحلاتي إلى بعض الأقطار التي تعتز بتاريخها في داخل المملكة السعودية وفي خارجها من البلاد العربية ، وإلى الهند خارج البلاد العربية - ما جعلني أهتم بكل ما يقال عن ماضي الجزيرة العربية القديمة في البحوث التاريخية . واهتمامي بما يقال عن الجزيرة جعلني ألاحظ على المؤلفات الاسلامية ، عندما تتكلم عن الجاهلية والجاهليين : اتجاه أكثرها إلى ناحية واحدة مما جاء في القرآن الكريم - ألا وهي ضلال قوم عاد وثمود والعذاب الذي حل بهم - واقتناع أكثرهم بما جاء في الأسفار عن العماليق جبابرة الشام - فلقد شط بعضهم في حكمه على تلك الشعوب ، وفي

فهمه تفسير ما جاء في القرآن ـ فظن : أن الله لم يبق من عاد وثمود باقية ـ وشط آخرون في وصفهم الحياة العربية من فجرها إلى ظهور الإسلام ـ فتخيل العرب في تاريخهم الطويل ، وحوشا مشردة في فيافي الجزيرة العربية .

ولقد لاحظت على المؤلفات العربية المتأخرة تعلقها بآراء المستشرقين فيما يخص التاريخ العربي القديم ومصادره التي ورثناها من بحاث كرسوا حياتهم في جمع الروايات وتسجيلها . فمن الباحثين المتأخرين من أخطأ في حكمه على أصدق المصادر العربية : القرآن الكريم ـ فقال عن القصص القرآني ، كما قال المستشرقون : انه قصص « بلغ من الأدب الرفيع مرتبة المعجزة ـ وهو ككل قصص لا يمكن أن يتضمن حقيقة تاريخية » ـ وما يقوله المستشرقون اليوم قاله بالأمس المكذبون من قريش : « إن هو إلا أساطير الأولين » وذلك ما نراه مفصلا في الجزء الثاني : « مصادر التاريخ العربي» .

والغريب في الأمر : أنك تجد الذين أعجبوا بالمنطق المستشرقي ، يعنون بشكوك المستشرقين أكثر مما يعنون برجوعهم إلى بعض الحقائق ، فقليل أولئك الذين اهتموا بما قاله « غوستاف ليبون » في كلامه عن حضارة العرب ، و « ديتلف نيلسين » في كتاب التاريخ العربي القديم وغيرهما : عن المصادر العربية التي أظهرت صدق الكثير من أبنائها عن الجنوب العربي ـ البحوث الأثرية .

فعلى هذا النحو أهمل تاريخ قلب الجزيرة العربية في البحوث التي تعرضت للتاريخ العربي القديم ـ فلم يعر الباحثون ما جاء في مصادرنا عن الماضي العربي كبير اهتمامهم ـ فضاعت بذلك حلقة هامة من حلقات التاريخ العربي القديم . وضياع هذه الحلقة الهامة سبب عدم ترابط تاريخ الجزيرة وتسلسل الأحداث العربية .

وعلى هذا أصبح جمع الأخبار المتناثرة في بطون المؤلفات ومقابلة الخبر القديم بالتحقيق الحديث ، والرواية العربية بالبحث المستشرقي ، والخروج بعد ذلك بنتائج تنير ، ولو بعض الشيء ، جوانب الماضي القديم ـ مهمة صعبة لا يغرى على تحملها الكسب المادي ـ وإنما الذي يشجع عليها الواجب . واجب الذين ينتمون لهذه الجزيرة ، ويفخرون بمنعتها ، ويعتزون بماضيها ، ويعملون لمستقبلها ، واجب أولئك الذين رضوا بها وهي جرداء بلقع ، يعوي في صحاريها الذئب ، وتصفر في أوديتها الريح ـ حتى فجر العلم من أعماقها ينابيع البترول ، وأخذت الأبحاث الجيولوجية تكتشف كنوزها المعدنية ، فأشرقت شمس يوم جديد في حياة الجزيرة الخالدة ـ الجزيرة التي أنجبت محمداً « صلى الله عليه وسلم » وكفى به فخراً ، وعزة ومجداً .

انه الواجب وحده هو الذي يشجع على تحمل هذا العبء الثقيل في صبح هذا اليوم المشرق . فحري بنا أن نعرف ماضينا لنقوم حاضرنا ونبني مستقبلنا ـ وحري بتاريخنا ألا يكون قيد نظريات المستشرقين وظنونهم ـ نأخذه عنهم قضايا مسلماً بها دون الرجوع إلى تراثنا

ـ وحري بتراثنا أن يحقق وينقي من الخيال الذي علق به ـ ومن مبالغات القدامى التي لا يقرها المنطق ـ فمن ذا الذي يصدق : أن الحميريين كانوا يعيشون مئات السنين ؟ ومن ذا الذي يصدق أن لقوم عاد أجساماً كالتي صورتها بعض الروايات العربية المتأثرة بالقصص الاسرائيلية والفارسية .

إن أحداث الجزيرة العربية لها شأنها الكبير في تاريخ هذا الشرق وأممه من فجر الحياة ـ فلقد تحملت الجزيرة جزءاً كبيراً من مسئولية التاريخ العربي منذ أذن ابراهيم بالحج بجانب البيت العتيق ، ولقد تحمل أبناء الجزيرة العبء جميعه ، منذ نزل القرآن بلسان عربي مبين ـ ( ولقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا . أمراً بيناً : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن : أن كل مسلم أخ للمسلم وان المسلمين أخوة فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ـ اللهم هل بلغت ؟ ) .

أجل ـ لقد بلغ محمد « صلى الله عليه وسلم » الرسالة وحمَّل المسلمين واجبها ، فلا وثنية في ربوع الجزيرة ، ولا صد عن البيت الحرام ، ولا طغيان ، ولا فساد ، ولا فرق بين عربي وأعجمي ، ولا فضل لهذا على ذاك إلا بإيمانه ، وتقواه وأدائه واجبه ـ وما أكبر واجب المسلمين نحو دينهم ونحو مجتمعهم ونحو تاريخهم .

وما أكبر ما قام به السلف الصالح من أبناء الجزيرة الذين حملوا الشعلة ، ودافعوا عنها ، ورفعوا راية العدالة ، والحق ، والأخوة ، خفاقة عالية .

فما هذا المؤلَّف إلا دعوة عملية إلى معرفة تاريخنا الكبير وكفاحنا الطويل الذي شهده كل جزء من أجزاء عالمنا العربي الفخور بماضيه الجدير بما ينتظره في مستقبله بفضل إيمان شعوبه وترابط دوله ، وخيرات بلاده .

وما هذا المؤلَّف على ما بذلت فيه من جهد ، غير دراسة أولية تنتظر من يوسع نطاقها ويُجدُّ في تحقيقاتها ـ ولعل الله يبعث همم المسؤولين عن تاريخنا فتتجه للبحث الأثري في أرجاء الحجاز ونجد ، مثلما اتجهت همم المسؤولين في العراق ، وفي مصر ، وفي سورية للبحث الأثري ، فكانت تلك النتائج الضخمة التي زادت المعارف بين المسؤولين وبين هذا الواجب العظيم ـ فإن وضعنا اليوم أفضل من الأمس بكثير ، فلدينا من الإمكانات ما يزيح العقبات عن طريق البحث والتنقيب » .

وللمشرعين النظر فيما طرحه من أسئلة في أطروحته عن « الاستثمار المصرفي وشركات المساهمة في التشريع الإسلامي » . . وللمحللين الاجتماعيين تقويم لمحاته الاجتماعية في تاريخه الاجتماعي عن المدينة وفي بحوثه ومقالاته التي نشرها على مدى خمسين عاما من حياة غاصة بالبحث والقراءة والسفر والتنقيب والعمل الجاد الدؤوب .

. . بقي فقط أن يعطيه الناس حقه ، ولعل المسئولية تبدأ بجامعتنا وأساتذتها ، وإن كان

بعض من خطوا للأدب خطوطه الأولى بدأوا في أخذ حقهم من العناية والاهتمام ، فإن للمؤرخين والمحققين واللغويين حقا ينتظر الأداء في كل محفل يعلو على أرض هذه الجزيرة ، وإن كان الأديب هو ذلك الذي يبلور ضمير الأمة ووجدانها ، فإن المؤرخ والمحقق هو الذي يوصل تاريخها ويؤكد جذورها .

**إياد أمين مدني**

# المحتوى

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

# الباب الأول

## محب التاريخ والمؤرخ

بقلم : الدكتور شكرى فيصل

# الفصل الأول

## المؤرخ

ما أحسست أن كاتبا من الكتاب السعوديين في هذه العقود الأخيرة انعقد ما بينه وبين التاريخ على نحو ماانعقد مابين أمين مدني وبين التاريخ من صلات . . حتى ليكاد يكون ظلاً للتاريخ ونجما لامعاً يدور في فلكه حيث دار .

ولكن أمين مدني لم يكن في ذلك تابعاً من التوابع ـ على حد تعبير الفلكيين ـ ولكنه كان مواكبا ، كان يلازم التاريخ ولكنه لم يكن يتابعه ، كان يستمد منه ، وكان يمده ، كان يهتدى به ، وكان ـ إذا صح التعبير ـ يأخذ بيد التاريخ ليضعه في مواضعه التي يضيء بها الأحداث ويغير طريقها ، أو يشيع في جنباتها الضوء أو البريق .

وقد تمثلت هذه الصلة بالتاريخ في مجموعة كبيرة من المؤلفات ، ارتدت بالتاريخ العربي إلى فجره الأول ، وحاولت أن تلازم خطاه مبينةً عنه موضحةً له . . ومن منا لا يذكر هنا مؤلفاته القيمة التي أرادها ـ رحمه الله ـ موسوعة للتاريخ العربي ، ولكنه لم يكمل منها إلا هذه الأجزاء الثلاثة[1] ، وكأنه أحس البعد الزمني بينه وبين الهدف الذي رسمه لنفسه ، وكأنه ـ على قوة الإرادة وشدة الحزم ـ استشعر الضعف الجسدي الذي كان يحسه . . ولذلك بادر إلى تأليف كتابه الرشيق الأخير بعنوان كبير ، كِبرَ طموحه ، هو ( حواضر العالم الإسلامي ) . . اختصر فيه حقباً أخرى من التاريخ كانت تلوب في ذهنه ، وطواه على معالم ونقاط كان ينوي أن يجعل منها مادة بعض الأقسام الأخرى من الموسوعة التي انتواها[2] .

ولقد أثارت مؤلفاته هذه موجة من الحركة الفكرية ، إذ عرض لها بعض الباحثين بالنقد ، وعرض لهم هو بالرد ، وأجزل الثناء عليها والإشادة بها أكثر الذين وقفوا عليها .

وكشفت هذه المؤلفات عن عمق البحث التاريخي عند أمين مدني ، كما كشفت عن أن هذا البعد التاريخي يؤلف محوراً رئيساً من المحاور التي دارت عليها حياته العلمية ، وصلاته الفكرية ، وتحقيقاته النقدية .

والحق أنه لا تجد التاريخ في تراث أمين مدني في هذه المؤلفات التي أشرنا إليها ، والتي تولى الحديث عنها باحث زميل كريم هو الأستاذ الدكتور مصطفى ابراهيم حسين ، وإنما تجد التاريخ يطالعك كذلك في مقالاته الأسبوعية مشرقاً باعثاً على التفاؤل مرة ، وعابساً متجهماً

---

(١) الجزء الأول : التاريخ العربي وبداياته ، والثاني : التاريخ العربي ومصادره ، والثالث : التاريخ العربي وجغرافيته .
(٢) هما القسمان اللذان يسميهما : التاريخ العربي وشعوبه ، والتاريخ العربي ودوله .

أقرب إلى التشاؤم مرة . . ولكنك تجده بأحداثه ووقائعه في كل مرة يعرض فيها المدني لقضية من قضايا العرب أو قضايا المسلمين .

والتجاوب النفسي العميق بين أمين مدني وبين التاريخ يترك ظله كذلك على أسلوبه ، فأنت واجد لهذا الأسلوب نكهة خاصة حين يجول في ثنايا التاريخ ، تشم منها رائحة الزمن وتعاقب الدهور ، وتتلامح من خلالها خيالات للشخصيات الكبيرة التي صنعت هذا التاريخ . . ونستشف منها صور الأحداث والوقائع وصور أصحاب هـذه الأحداث والوقائع .

وإذا كان من الصعب أحياناً أن نجد المحور الفكري الأساسي الذي يدور حوله كاتب من الكتاب يمارس الكتابة اليومية والاسبوعية والشهرية ، ويدلي برأيه وملاحظاته وانطباعاته عن الأحداث القائمة والأحداث الماضية ، ويتـوزع نشاطـه بين مـاهو محـلي وعربي وإسلامي ، إذا كان ذلك صعبا على الاكتشاف عند الكتاب الآخرين . . فإنه ليس كذلك عند أمين مدني ، لأن العمل الجزئي الذي كان يقدمه في الصحافة لم يكن عملاً يومياً تُطْوَى الصحيفة فينطوي ، ولكنه كان عملاً فكرياً . . اختار أسلوب الكتاب المؤلَّف في فكرته الكلية ، ومنهجه العلمي ، ومادته المحددة حين استطاع أن يطبع الكتاب أو يظهره ، واختار أسلوب المقال ـ في إثارته وتوثبه ـ في الجزئية التي يعالجها حين كان لا يجد إلا المجلة أو الصحيفة ، أو حين كانت تلح عليه المجلة أو الصحيفة تستكتبه وتستعين به .

ويحسن هنا أن نلاحظ الجو العام الذي كان يحيط بالكتاب السعوديين ورجال الفكر والثقافة في المملكة . . فلم يكن يسيراً أن يجد المثقف طريقاً ممهداً إلى الكتاب يضعه ويؤلفه ويطبعه ، ولذلك كان يلجأ إلى طريق أقرب تناولاً وأيسر سلوكاً ، هو طريق المجلة أو الصحيفة . . ولعل هذا كان وراء تردد أمين مدني الى مصر في كل فرصة ، وعلاقاته التي أقامها بين عديد من الكتاب والشعراء وذوي الرأي هناك ، والندوة ( ندوة الأصفياء ) التي كان يقيمها في بيته في مصر الجديدة . . فقد كانت هذه كلها وسائل اصطنعها للتغلب على ظروف النشر والطباعة التي كانت غالبة آنذاك في السعودية .

ومن هنا فإن المتتبع للعطاء الفكري السعودي لا يمكن أن يجتزىء بالمطبوعة والكتاب في تمثل هذا العطاء وتتبع نموه ، ودراسة تطوره ، لأن الكتاب كان عملاً عسيراً في تأمين طباعته وتوزيعه ، وضمان رواجه ، وإنما هو مضطر أن يسلك سبيل الخبر اليومي أو الأسبوعي في الجريدة أو المجلة .

ولهذا ، أتمنى أن يكون في مقدمة ما يفعله دارسو النهضة السعودية أن يجمعوا هذه المتفرقات المتناثرة هنا وهناك ، لهذا الكاتب أو ذاك ، في مجموعات مقرونة إلى تواريخها ، دون مناقشة أولية لقيمتها ، إن ذلك هو الطريق الأمينة لدراسة تحرك الفكر السعودي ،

وهو البداية الطبيعية لتقييمه ، ثم لإدراك تطوره . . ورب مقال في جريدة يومية يكشف عن اتجاه ، ويدل على تحرك .

ومثل ذلك يقال ـ وقد قلته خلال وقفاتي عند بعض الدواوين السعودية ـ في دراسة الحركة الشعرية ، ومثله أو قريب منه يقال في دراسة حركة التعليم ورصد رجالاتها وتطوراتها .

إن هذا المنهج ـ على ما يصادف فيه الباحث من مشقة ـ هو المنهج الأمثل ، إذا أردنا أن نكون حقاً أوفياء لمفكرينا وأوفياء لسلفنا ، وإذا كنا حراصاً على اكتشاف مفاصل الحركة الفكرية والأدبية في هذا الجزء من الوطن الإسلامي العربي .

ومن المؤكد أن طريقة التناول في تراث أمين مدني تختلف بين أن يكون ما يكتبه فصلاً من كتاب له جذوره بما قبله وله تفرعاته ونتائجه فيما بعده . . . وبين أن تكون فكرة عارضة في جريدة يومية أو مجلة أسبوعية .

ولكن المحور الفكري الذي كان يوحد آثاره التي خلفها في التاريخ ، سواء كانت مقالات أو كتباً ، إنما هو الاعتداد القوي ، ولِمَ لا أقول إنه كذلك الاعتداد العنيد بدور الجزيرة العربية في القيادة ، الدور الذي كان لها من قبل والدور الذي يكون عليها اليوم .

وفي حدود ما قرأت ، ما أعرف أن هناك كاتباً سعودياً أصر على ذلك وألح عليه واتخذه مادة دعوته ومركز نشاطه ، ينطلق منه ويعاود الخوض فيه كما فعل أمين مدني ، كان لا يغادر مناسبة من المناسبات دون أن يفيد منها لتأصيل مهمات الجزيرة العربية في الحركات المعاصرة . . . أياً كان مداها . . . عربياً كان ، أو إسلامياً ، ولِمَ لا أقول : أو دولياً كذلك . .

إن الجزيرة عنده مهد التاريخ ، وأحداث التاريخ كلها تبتدىء منها أو تتأثر بها . . . فإذا أراد أن يضغط فكرته وأن يخصصها ، بعد تعميم ، نَوْع تخصص ، أو أن يحددها بحدود ما بعد الإسلام عرّج على المدينة المنورة ، فبوأها مركز الزعامة في ذلك ، وألبسها ثوب الريادة ، والرائد لا يكذب أهله ، وخلع عليها جملة من النعوت والأسماء ، فسماها أم العواصم ، وعاصمة الإسلام الأولى ووصفها بأنها دار البناء والانطلاق ، ومدينة أول مجتمع إسلامي[1] ، ومدرسة الإسلام الأولى ، ورأى فيها بداية النهضة ومصدر الحركة العلمية والحضارية وأشاد بذلك ، وأمده من نحوه ، و ( مدنيته ) الأصيلة الراسخة ، وذاكرته التاريخية بكل ما يساعده على أن يُغْذي القارىء بآرائه هو وتصوراته .

وقد يتحدث المتحدثون ذات حين عن اللبنات الفكرية الأولى التي أصَّلت الوجود السعودي من بعد أن استنبته تزاوج ما بين حركة الإمام محمد بن سعود والإمام محمد بن عبدالوهاب ، فإنهم سيفسحون ، لا شك ، لكتابات أمين مدني ، في ذلك مكاناً بارزاً ،

(١) انظر الهامش التالي .

ويحلونها محلاً متميزاً ، في إيضاح القيم والأصول التي يقوم عليها أو يجب أن يقوم عليها الكيان العربي السعودي . . . بل وستتولّى هذه الكتابات ، هي نفسها ، شق الطريق لتأخذ مكانها في تحذير الفكر السعودي وتوجيهه نحو اعتداده بذاته وقيمه ومسؤوليته الضخمة نحو هذه الجذور والقيم والمبادىء .

وقد لا يتسع المجال هنا أمام الباحث ليعرض ذلك من خلال بعض المقالات ولذلك فهو مضطر أن يجتزىء بذكر العناوين التي يصادفها وهو يطوّف بتراث هذا الباحث .

وأبرز هذه المقالات في هذا المجال الذي أتحدث عنه مقال بعنوان ( مدينة أول مجتمع إسلامي ودار البناء والانطلاق )[١]، وقف فيه عند ملامح من الحضارة الإسلامية كانت المدينة مهداً لها ، ومعالم من التاريخ الإسلامي الثقافي ، كانت المدينة مقراً لها ، وسلوكاً رفيعاً من السلوك الأخلاقي الإسلامي كان المدنيون أصحابه وحملته .

ومقال آخر بعنوان : ( من أمين مدني إلى رئيس التحرير )[٢] وفيه يقول :

( إن أبناء الجزيرة العربية هم الذين تحملوا مسؤولية القيادة السياسية والثقافية في القرن الأول من الهجرة ، وأن على قادة الجزيرة العربية حمل مسؤولية السياسة الإسلامية العربية وأن على أعلامها أخذ مكانهم في مسيرة الثقافة الإسلامية ) .

ومقال ثالث بعنوان : ( الجزيرة العربية أقدم بلد عرفه الله ، والحج من أقدم العبادات التي عرفها الناس )[٣] .

هذا إلى مقالات أخرى عن بعض رجالات الإسلام مثل مقالة عن زياد بن أبيه[٤]، وما كان من تأليفه في مثالب العرب ، وعن بعض الظواهر التي طفت على سطح الحياة الإسلامية مثل السحر وتاريخه[٥]، وتحقيقات عن بعض البقاع الإسلامية ، مثل مقال ( فَيْد قرية إسلامية )[٦] ، ومثل مقال ( أول اسم أطلق على الحرم الحرام )[٧].

وإصرار الكاتب على مكانة الجزيرة العربية ومدنها في الحضارة الإسلامية لم يحبسه في نطاق التاريخ القديم ، وإنما تناولت مقالاته التاريخية كذلك قضايا معاصرة مثل قضية

---

(١) الرياض الأسبوعي ، العدد ٥٣٤٠ تاريخ الجمعة ١٤ ربيع الآخر = ٢٨/١/١٩٧٣م .

(٢) المدينة المنورة ، العدد ٥٤٧٣ تاريخ السبت ١٨ جمادى الأولى ١٤٠٢هـ وجاء فيه كذلك ( ان العرب هم الذين تحملوا مسؤولية الثقافة الإسلامية في مئة السنة الأولى من التاريخ الهجري ) .

وقد تركنا تبيان شواهد هذا الاتجاه في كتب أمين مدني للفصل الذي يستعرض تلك الكتب .

(٣) المدينة المنورة ص ٤ العدد ٣٠ ، تاريخ ٥/١٢/١٣٨٣هـ .

(٤) المنهل ج ٢ السنة ٣٦ المجلد ٣١ تاريخ صفر الخير ١٣٩٠ - ابريل ( نيسان ) ١٩٧٠ .

(٥) المنهل ج ٧ السنة ٣٧ المجلد ٣٢ تاريخ رجب الفرد ١٣٩١ - سبتمبر ( أيلول ) ١٩٧١ .

(٦) جريدة عكاظ ص ١١ العدد ٦٠٣١ تاريخ السبت ١٩ صفر الخير ١٤٠٣=٤ ديسمبر ( كانون الأول ) ١٩٨٢ ، وانظر رد الاستاذ حمد الجاسر على صديقه أمين مدني في جريدة الجزيرة العدد ٣٧٣٣ تاريخ : الخميس ٢٤ صفر الخير ١٤٠٣ - ٩ ديسمبر ( كانون الأول ) ١٩٨١ ، ثم انظر رد الأستاذ أمين مدني على ذلك في جريدة عكاظ ، العدد ٦٠٤٦ ، تاريخ الأحد ٤ ربيع الأول ١٤٠٣ .

(٧) قافلة الزيت ، العدد الأول من المجلد الثاني والعشرين ، المحرم ١٣٩٤ .

فلسطين ومزاعم اسرائيل[١]، وقضايا أخرى من قضايا العالم العربية مثل قضية الخليج[٢].

ففي أحاديثه عن فلسطين كان أكثر اهتمامه في الرد على ما يدعيه الاسرائيليون وقد وضح فيه الحقائق التالية :

١ ـ اليهودية لم تكن في يوم من الأيام جنساً لأنها عقيدة .

٢ ـ جرأة اليهود على تزوير الحقائق ليست جديدة .

٣ ـ اليهود المعاصرون ليسوا من أنسال بني اسرائيل .

٤ ـ فلسطين بلد الكنعانيين والعماليق قبل أن يظهر اسرائيل .

٥ ـ العرب سجلوا السطر الأول في تاريخ سورية وفلسطين .

٦ ـ اليهود خارج الأرض المغتصبة ليسوا أقل حقداً وعداء للعرب .

وجملة هذه المقالات في النطاق التاريخي تكشف عن شيئين :

ـ عن الجانب الفكري والقيمي في المادة التي يعرضها .

ـ عن سلامة منهج المعالجة الذي يصطنعه .

أما الجانب الفكري فتتبدى قيمه من خلال الانتماءات الثلاثة التي تشد الكاتب :

ـ الانتماء العربي بمعناه الضيق الاقليمي ، وبمعناه الواسع الوحدوي .

ـ الانتماء الإسلامي .

ـ الانتماء الانساني .

فالانتماء العربي بحدوده الضيقة يوضحه ما رأينا من اعتداده بالجزيرة ، والمهمة التي نهضت بها في الماضي ، والتي يجب أن تنهض بها في الحاضر والمستقبل .

والانتماء العربي بحدوده الواسعة يوضحه إيمانه بالثقافة العربية والحركة العربية والموجات الحضارية التي خلفتها من أقدم العصور .

والانتماء الإسلامي يوضحه التصاقه بالتراث الإسلامي وقضايا الإسلام ، وصدوره دائماً عنه ، وفهمه الخاص له أحياناً ، ويفسره اقتراحه الذي كان يعتز به حين دعا الى تسمية الخليج العربي بالخليج الإسلامي ، وذلك قبل أن يُشَوَّه الإسلامُ على أحد جانبي هذا الخليج هذا التشويه الشنيع الذي أثارته روح الحقد والانتقام ، وعُقد الشعوبية المتوارثة ، وحب الخروج على الجماعة . يقول في هذا المقال[٣]:

---

(١) المدينة المنورة ، الاثنين ١٣٨٥/٢/٨ ، وانظر مقالاً طيباً كتبه عن إسرائيل ونشره في مجلة كلمة الحق ، العدد الأول ، محرم ١٣٨٧ ، ابريل ١٩٦٧ وهي المجلة التي أصدرها الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار ، وكلمة الحق من المجلات المنقطعة، على حد تعبير المؤرخين الذين يصفون بعض الدول بهذا الوصف : الدول المنقطعة .

وهذا دون أن ننسى الفصل الذي كتبه في كتابه العرب في أحقاب التاريخ ، خاصاً بدولة بني إسرائيل وسياستها .

(٢) عكاظ ١٣٩٧/١/٢٣ .

(٣) عكاظ ١٣٩٧/١/٢٣ ، وفي مقدمة المقال يقول : اقترحت أن يسمى الخليج الإسلامي في إحدى المحاضرات التي ألقيتها في قاعة محاضرات الرابطة الإسلامية بمكة المكرمة ، بناء على أن الشواطىء التي تحيط بهذا الخليج جميعها إسلامية ، ولقد نشرت المحاضرة في المجلد الثاني ص ٩٠ من محاضرات الرابطة الإسلامية .

( وكل باحث يتناول الخليج الإسلامي : جغرافيته أو تاريخه أو مجتمعاته لابد وأن تبدو له الشعوبية والشعوبيون ، فالشعوبية صاحبت التاريخ العربي في الخليج الإسلامي قديمه وحديثه ) .

ثم مضى يعرض صفحات هذه الشعوبية من غلس التاريخ . . إلى العصور الحديثة : ( ولم يكن خطر الشعوبية على العرب وغير العرب في الشرق الأدنى بعد الإسلام بأقل من خطرها قبل الإسلام ، ولم تكن نتائجها بالنسبة للمتحمسين لها أفضل من النتائج التي واجهها أسلافهم في عصور ما قبل الميلاد وما بعده ، فلقد مهدت الحروب التي شنتها فارس على جزر البحرين والحروب التي شنتها على عمان الطريق لمطامع البرتغاليين في الخليج الإسلامي ، ففي سنة ٦٦٤هـ هاجم الفرس عمان ، ومن سنة ٦٦٤هـ أخذ الشعوبيون يجعلون فارس الإسلامية خصما لعرب الخليج المسلمين ، خصماً يمزق الوحدة الإسلامية ، ويمزع الجوار في وحل الشعوبية . . . فالشعوبية هي الثغرة في الصف الإسلامي التي قفز منها الاستعمار الانجليزي في شرق البلاد العربية هنا في الخليج ، وهنا في شواطىء البحر الأبيض ، وفي كل أرض إسلامية ) .

أما الانتماء الانساني فيتبدى في بعض المقالات السياسية التي كانت تفرض عليه الأحداث أو التأملات معالجتها .

وتبرز النزعة الانسانية موزعة في ثنايا كثير من مقالاته . . وخاصة حين يؤكد على هذه الأمور الأربعة التالية :

أ) إعمال العقل : وذلك في مثل محاضرة له كتبها في صدر شبابه بعنوان ( الإنسان والحياة ) ، وألقاها في نادي جماعة المحاضرات ، فهي تدل دلالة واضحة على إيمانه بالعقل الإنساني واستخدامه أساساً للتقدم والنهوض .

ب) قيمة الحضارات الإنسانية : فقد تحدث في صدر مقال له بعنوان : « المدينة الحديثة ، ومصيرها الفناء والانزواء » ، عن المدى الذي حققته الحضارات القديمة في بعض الميادين ، حتى لقد تجاوزت شأو الحضارات الحديثة أحياناً في الكيمياء والبناء

ج) ضرورة التفاعل مع الحضارات الحديثة في بيئاتنا العربية : ظهر ذلك واضحاً في مقال له بعنوان : « ما نريده من قافلة الزيت » جاء في صدره : ( فإذا كان بعث تراثنا العلمي مهما في تصحيح التاريخ الحضاري ، فإن تقابل الآراء فيما جدَّ من معارف يحقق تطوراً ثقافياً برز الاهتمام به ممثلا في المؤتمرات الثقافية ) .

وجاء من خلاله : ( فمن المحال أن تقف أمة من الأمم فلا تسير مع عجلة الزمن ، فكل حضارة مهما تقدم عهدها هي حضارة متطورة ، فالإنسان منذ خرج من الغاب مازال يحدث ويخترع ) .

وتابع يقول : ( التطور الحضاري جعل من غير الممكن لأية أمة من الأمم أن تكتفي

بذاتيتها فتعيش في عزلة عن غيرها ، فهناك مصالح مشتركة تفرض الاختلاط والتعارف والتآزر ) .

ثم مضى يتحدث عن علاقات ما بين الشعوب من وجهة نظر إنسانية ، وخاصة بين العرب والأميريكيين .

د) النعي على العصبيات : ويظهر ذلك واضحاً في مقالات متسلسلة عن العصبية في الهند ، وعن آثارها السيئة على المجتمع الهندي ، والمسألة الهندية . . وقد دفعه سياق المقال إلى التوقف عند نظرة الإسلام للعصبيات ، فهو يبرأ من كل ما يدعو إلى الفرقة والاختلاف .

ولعل أكثر حديثه عن هذا الثالوث الشيوعية والصهيونية والاستعمار ، وتنديده به إنما كان يصدر فيه من منطلق إنساني ، إذ كان يهوله ما يفعله الاستعمار الشيوعي من إشعال نار الثورات والتسلط على العقائد وتفرقة المجتمع الواحد بعوامل طبقية ، كما كان يهوله ما فعله الجشع الصهيوني وما أرّثه من أحقاد منذ ظهرت الصهيونية على المسرح الدولي بمخططها الذي يقوم على الاعتقاد بأن الشعب اليهودي هو الشعب المختار ، وأن من حقه أن يسيطر على العالم ويسود شعوب الأرض[1] .

ويحسن بالقارىء الذي يريد أن يدرك النزعة الإنسانية عند أمين مدني أن يقرأ جملة من المقالات بعنوان قومية الإسلام[2]، تبادل فيها الرأي والنقاش مع الأستاذ عبدالغفور عطار ، وهي مقالات توضح فهمه للإسلام وتدل على مدى اتساع نظرة الإسلام ، حين يُخْرِج القومية من معناها الضيق إلى معناها الإنسانى الرحب ، وتحاول أن تستخدم هذا المصطلح الجديد : « قومية الإسلام » ، استعمالا جديدا قائما على إهدار الفوارق بين الناس ، وإقامة المساواة والعدالة بينهم ، وهو استعمال لا يعني بحال ( أن الإسلام عنصر أو قوم أو قبيلة . . . ولكنه جملة من المبادىء والقيم الإنسانية الشاملة ) .

وبعد ، فإن وفاء أمين مدني لهذه الانتماءات العربية والإسلامية والإنسانية وتشابك جذوره معها ، وتأثيرها فيما يأخذ أو يدع ، وما يكتب أو يناقش ، أو وجدت عنده منهجاً خاصاً في المعالجة ، نستطيع أن نتبينه في النقاط التالية :

(١) الاعتداد الشخصي بالزاوية الخاصة التي كان ينظر منها . . . وإذا كان الذين عرفوه في حياته عرفوا منه الإنسان النحيل ، وإذا كانت الصور التي نشرت له تدل على إنسان دقيق

---

(١) من مقال له بعنوان : رأي من مهبط الوحي في الشيوعية والصهيونية والاستعمار ، جريدة المدينة المنورة بعنوان كبير هو : يوميات المدينة ، العدد ٦٢١ تاريخ ١٦/١٢/١٣٨٥هـ .

(٢) بدأها الأستاذ أمين مدني بعنوان : المصطلحات السياسية في التاريخ ، ونشرها في جريدة البلاد ، العدد ٣٦٧٥ وتاريخ ٢٧/١/١٣٩١هـ . ثم كانت الثانية بعنوان : قومية الإسلام ، كتبها الأستاذ عبدالغفور عطار ونشرها في البلاد العدد ٣٦٩٣ وتاريخ ١٨/٢/١٣٩١هـ = ١٤/٤/١٩٧١م . والثالثة كانت كذلك بالعنوان نفسه ، كتبها الاستاذ أمين مدني ، نشرها في البلاد ، السنة ١٢ ، العدد ٣٧٠٤ وتاريخ ٢/٣/١٣٩١هـ ، أما الرابعة فكانت بالعنوان ذاته ، كتبها الأستاذ العطار ، ونشرها في البلاد السنة ١٢ العدد ٣٧٢٧ وتاريخ ٢٩/٣/١٩٣١هـ = ٢٤/٥/١٩٧١م .

البنية ، نحيف ضامر ، معتدل الطول ، فإن قراءة المقالات التي أدار فيها النقاش مع مخالفيه في الرأي ، تدل على إنسان واثق بنفسه ، شديد الثقة إلى حدّ الاعتداد . . ينازل فلا يداخله وهن أو ضعف ، ويظل يجتلب الحجج والآراء والنصوص التي تشهد لما يذهب إليه . . . وقد يدع محاوره حيناً ولكنه لا يلبث أن يعود إليه حيناً آخر . . في مجلة أخرى . . فالنقاش بينه وبين الأستاذ العلامة حمد الجاسر نشر في مجلة العرب ، وفي مجلة قافلة الزيت ، وفي جريدة المدينة .

وكذلك النقاشات التي دارت بينهما حول فَيْد وحول الحرّات ، والمناقشات التي دارت بينه وبين الأستاذ علي العمير . . . هذه كلها من خير ما يعبر عن هذه الخصيصة في منهجه .

(٢) قدرته على إدارة النقاش ، ودقته فيه ، وحرصه على وضوح المصطلحات ، والانطلاق من الواقع ، فهو لا يحلق فوق الموضوع ، ولا ينظر إليه من عل ، وإنما يطوف بك في رحابه ، يقودك إلى ثناياه ، ويتوقف عند هذه الثنايا والشعاب فيزعزع يقينك أولا ، ثم يغزوه باليقين النقيض أو بالشك النقيض .

وحين يجمع الباحث بين القدرة والدقة والاعتداد ، فإنه لابد مُنْتَهٍ إلى اجتذابك إليه وحملك على متابعتك له .

وفي كل ما قرأت له في ذلك أو سمعت منه في بعض مجالسه التي كان يعقدها في المدينة المنورة في بيته ، كان حس الغلبة عنده واضحاً ، وكانت شدة المراس خصيصة بارزة .

(٣) الترفع عن الجوانب الشخصية والمداراة الاجتماعية ، والتماس العذر لنفسه وللآخرين .

وقد كان طبيعياً عند أمين مدني ـ بعد الذي أشرت إليه في الاعتداد بالرأي وشدة المراس والقدرة على النقاش ـ أن تأتي أعماله مترفعة عن الجوانب الشخصية بعيدة عن التأثر بالعلاقات أو بالقرابات ، فلم تمنعه صداقته مع الأستاذ علي الحافظ الذي كان رئيساً للبلدية من مناقشته ، ولا أقول مؤاخذته ، ولم يمنعه احترامه للأستاذ حمد الجاسر أن يبادله الرأي ، وأن يرد عليه الشاهد ، وأن يأخذ منه ويعطي في سلسلة المقالات التي دارت بينهما ، حول تحديد هذه أو تلك من المواقع الجغرافية الإسلامية ( فيد ، شوران ، حرّات المدينة ) .

وقد لخص أمين مدني أسلوبه النظري في ذلك ، بهذه العبارات التي يلتمس فيها العذر لنفسه وأخوانه فقال في إحدى مقالاته :

( إن الكاتب والمحاضر والمؤلف قد يسبقهم القلم واللسان ، وقد تبعد عنهم بعض المراجع ، فيتخطّون الحقيقة ، فإذا فاتت الحقيقة واحداً منهم فإن فواتها لا ينتقص من مكانته الأدبية أو العلمية أو التاريخية . . وإنما الذين ينتقدون هم الملومون ) .

وبهذا نستطيع أن نفسر كيف لا يخلو مقال عنده يدور حول نقاش أو حوار ، من امتداح صاحبه الذي يحاوره والثناء عليه ، أو مقابلة ثنائه بأفضل منه ، بل إن كثيراً ما يفتتح نقده أو

ردوده بمثل هذا الثناء ، لا يجعل منه الطريق إلى النقد دمِثاً سهلاً . . وإنما يصدر ذلك عنه استجابة لما فطر عليه من كرم الخلق وحلاوة اللسان .

فإذا هو لم يفتتح الحديث بالكلمة الطيبة فإنه لا ينسى أن يختمه بها ، فقد ختم مناقشاته للأستاذ أحمد عبدالغفور عطار حول قومية الإسلام بالجملة التالية :

( وأخيراً ، أرى حقاً عليّ إعلان تقديري للأستاذ البحاثة على حسن ظنه بي واكباري حماسه للإسلام ودفاعه عنه بروح مخلصٍ ، وبحوث متعمقٍ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ) .

(٤) التباعد عن مجاملة المسؤولين :

عرض أمين مدني في فئات المقالات والبحوث التي كتبها إلى كثير جداً من الأمور السياسية والإدارية والعلمية . . وكان يواجه في ذلك سلطات وحكومات وذوي مناصب وأصحاب سلطة . . وكان يقتضيه الحال في ذلك ألواناً من المجاملة وقد يصطنعها ، ولكن في ترفع لا يخالطه تبذل ، وفي سمو لا يمازجه استرخاء أو ضعف .

وعلى أنه كان يحسن طريقه إلى النقد ، وعلى أن هذا النقد كان يكون أحياناً لاذعاً كما كان يجرؤ على عرض الرأي ولو كان الرأي مخالفاً . . . على هذا فإنه كان يلجأ أحياناً إلى الصراحة الصريحة . . . وقد رسم منهجه في ذلك في مقال بعنوان : الرأي الهادف لا يجامل المسؤولين[1] ، تحدث في بدايته عن أن واجب الصحافة : تفنيد الغث من السمين ، ووضع النقاط على الحروف ، على أن يكون التفنيد مجرداً من كل غرض ومحاباة .

ولأن المقال كان في زاوية خواطر وذكريات صحفية ، فقد عرض الكاتب لبعض مواقفه التي نقد فيها المسؤولين ، وحدّد الصحف التي نشر فيها هذا النقد ، وسمى الذين خالفهم ، والذين حالفهم ، وانتهى إلى تقرير الفكرة التالية :

( من المؤكد أن المواجهة بالخطأ وأسبابه تساعد المسؤولين على الوصول إلى حلول قد تغيب عن البعض . . . فالنقد النزيه الواضح هو الإيجابي البناء ، أما الذي يداهن فذلك السلبي الهدام . . . وصديقك هو الذي يصدقك النصح ، لا الذي يصدقك مجاملة وتقربا ) .

(٥) القدرة على مرحلتي البحث : جمع النصوص وترتيبها ، وحسن استنطاقها والاستشهاد بها . . . والوصول من ذلك إلى الموقف الذي يقفه في القضية التي يعالجها .

إن تجميع المادة وتوثيقها للاستشهاد بها هو الخطوة الأولى في المنهج السليم . . وإذا تمكن الكاتب من ذلك وأضاف إليه القدرة على استثمار هذه المادة وتقليبها ، فإن ذلك يكفل له أن يحقق ـ وربما بأسلوب تلقائي ـ موقفه الخاص الذي لا يأتي تفريعاً لآراء الآخرين ، ولا تشقيقاً . . . وإنما يأتي مستقلا عنها متمتعاً بذاتية خاصة .

---

(١) المدينة المنورة ـ العدد ٥١٣٧ ـ ١١/٤/١٤٠١هـ .

وعمله في مؤلفاته يعبر عن هذا الاتجاه . . . فقد كانت النصوص التي يجمعها هي طريقه إلى الحقائق التي وقع عليها ، وإلى الآراء التي انتهى إليها .

وكذلك كان سبيله في كثير من مقالاته . . وفي واحدة من المقالات التي أشرت إليها في فقرة سابقة ، وكانت عن قومية الإسلام[1] كتب الأستاذ عبدالغفور العطار يدفع استعمال هذا التعبير ، ويرى فيه تناقضا بين طرفيه : ( والقومية منسوبة إلى القوم ، وما ورد في القرآن من لفظ القوم ، إنما ورد في مقام النقمة والسخط والتنديد ) .

فلما جاء الأستاذ أمين مدني يرد عليه عمد إلى استشارة النصوص القرآنية ، ودلته هذه النصوص على ( أن لفظ القوم في القرآن الكريم ورد متلوا بالذين يؤمنون ، والذين يوقنون ، والذين يعلمون ، والذين يفقهون ، والذين يذكرون ، والذين يشكرون ، والذين يعدلون ، والذين يتقون ، والذين يتفكرون ، والذين يسمعون ، والذين يعقلون ، وقال تعالى على لسان الذين آمنوا به ﴿ ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك أجر المحسنين ﴾ ، وقال ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ ، وقال تعالى ﴿ وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ ، وقال ﴿ فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . . ﴾ ، واستشهادات أخرى كانت كافية لتدفع رأي الأستاذ العطار وتفسح المجال لاستخدام مصطلح القومية الإسلامية .

ولم يكتف الأستاذ أمين مدني بما في القرآن الكريم ، ولكنه مضى يستشير كذلك معاجم اللغة ، فأورد نصوصاً منها تذهب إلى تأييد ما يراه .

وتمكيناً لما يريد فقد مضى خطوة أخرى ينظر في الموسوعات الحديثة والمعاجم السياسية من مثل ( الموسوعة الميسرة والقاموس السياسي ) لينتهي إلى أن هذه المصادر كلها تضع الأمة في مقام القوم ، والقوم في مكان الأمة ، وتطلق الأمة على كل جيل وجنس حيّ .

بعد هذا التجميع للمادة وبعد تقليبها ، وبعد النتائج التي انتهى إليها في هذه النقاط الجزئية بدأ عملية تركيب النتيجة الكبرى مستنداً إلى تجميع هذه الجزئيات فقال :

( فمادامت لكلمة الأمة معان لا تجعلها وقفاً على المسلمين الذين يشدّ بعضهم بعضا ، كما توضح ذلك النصوص التي تقدمت ، وكما جاء في تعليق الأستاذ العطار . . . ومادامت كلمة الأمة تفسر بالقوم إذا ما أريد منها المعنى الذي يدور حوله الموضوع . . ومادام . . ومادامت . . فلا جناح على البحث إن نوّه بالقومية الإسلامية ، فالقومية الإسلامية قامت على العقيدة ، والقومية الإسلامية التي قامت على العقيدة لا يسعها نطاق القبيلة ولا إطار العنصرية . . . والقومية الإسلامية هي بمعنى الأمة الإسلامية . . . فالذين يقولون القومية الإسلامية لا يقصدون أن الإسلام عنصر أو قوم أو قبيلة ) .

ثم تأتي خاتمة المقال موصولة بموقف الأستاذ العطار وكأنها يد سمحة تمتد إلى يد سمحة ( فعلى هذا أنا لا أختلف مع الأستاذ الكبير أحمد عبدالغفور العطار ، ولا هو يختلف معي ، فهو يكره القومية التي تحتجزها القبلية ، وتتحجر فيها العنصرية ، وأنا أقصد القومية الإسلامية التي تخطت القبلية وانصهرت فيها العنصرية ) .

(٦) حرصه على التفرد في الزاوية التي ينظر منها :

من الواضح لمن يتأمل كتاب أمين مدني أنه كان يحرص حين يخوض فيما يخوض فيه زملاؤه من ألوان الكتابات الأدبية ـ على أن يتفرد في الزاوية التي ينظر منها مثل حرصه ـ الذي عاناه ـ على أن يتفرد باللون الأدبي الذي يستخدمه[١] .

فمن ذلك أنه حين عرض لكتاب الأستاذ أحمد عبدالغفور العطار عن الإمام محمد بن عبدالوهاب[٢] لم يشأ أن يتوقف عند فصوله وأبوابه وموضوعاته كما يفعل أمثاله في العادة . . . وإنما نظر إلى الكتاب من أفق آخر ، هو أسلوب التأليف ، فتساءل في البداية هل يحسن أن يكون التأليف إنشائي الأسلوب ، أم يجب أن يكون أسلوباً علمياً . . ثم قاده السؤال إلى تساؤل آخر ، عن الفرق بين أسلوب مقال في صحيفة وأسلوب بحث في كتاب ، وصاغ السؤال على النحو التالي : ( هل من الضروري أن يكون أسلوب البحث الذي ينشر في كتاب غير أسلوب المقال الذي ينشر في الصحف والمجلات ؟ ، وهل لا يستوي البحث في مقال مع البحث في مؤلف ؟ ) .

وكان من رأيه أنه لا يحسن أن يكون هناك فرق بينهما ، لأننا في المقال والكتاب كليهما نحتاج إلى وضوح الفكرة وسلامة البيان ، مما يغري القارىء بالمتابعة ، كما نحتاج فيهما معاً إلى البعد عن التأنق في اللفظ والزخرفة في المظهر ( فالبحث سواء أكان مؤلفاً أم مقالاً لا ينال رضا القراء وتقديرهم وإقبالهم على قراءته مالم يكن أسلوبه سهلاً ليس فيه تعقيد ولا تقعر . . ) .

وساقه ذلك إلى الدعوة لتجديد البحوث التاريخية ( بأسلوب يستسيغه منطق حاضرنا المتطور ، فالجيل الراهن لا يقرأ بنظارات العصور الماضية ، ولا يزن ما يقرؤه بموازين ما قبل القرن الرابع عشر للهجرة ، فقراء سيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير هم قلة نادرة من كثرة يزيد من كثرتها الاهتمام بتعليم العلوم وتوسيع مجالاته ، فلكل جيل منطقه ومنهجه في معالجة القضايا التي يكتب عنها ، وأسلوبه في عرض فكرته واستنتاجاته ) .

ويؤيد رأيه بمؤيدات أخرى هي هذا التشارك الذي نشهده في عصرنا بين الكتاب والصحيفة ( فاشتراك الصحيفة مع الكتاب في البحوث العلمية ألغى ضرورة وجود فواصل بين أسلوب المقال وأسلوب الكتاب ) .

---

(١) انظر ما تقدم : من المقال التقليدي إلى أنواع أدبية جديدة .

(٢) في مقاله : أسلوب التأليف وإعداد الدعوة المنشور في جريدة المدينة المنورة بتاريخ الثلاثاء ٢٩ شوال ١٣٩٢ .

ومضى ينظر في كتاب العطار في ضوء هذه الفكرة التي طرحها عن تجديد أسلوب البحوث التاريخية ، وأخذ يجمع شواهده التي تدعم رأيه من كتابات المتقدمين كابن خلدون ، أو المعاصرين من أمثال هيكل والعقاد في عبقرياته ، وأحمد أمين في فجره وظهره ، وجاد المولى في السيرة ، وكرد علي في تاريخ الحضارة ، أو في كتاب خطط الشام .

وبعد ، فهذه جملة من معالم منهجه في معالجة أبحاثه التي يكتبها ، وأفكاره التي يطرحها ، مستخرجة من مجموع مقالاته . . . لا أقول إنها تستوفي وصف هذا المنهج ولكنها تؤلف عموده وتحيط بأبرز صفاته . . . وقد تكون هناك معالم أخرى لكنها تأتي فروعاً لهذه الأصول والتي منها :

## من قضايا التاريخ الماضي إلى قضايا الواقع الماثل «القيادة السعودية» :

قلت في فقرات سابقة : إن النزعة التاريخية عند أمين مدني لم تحبسه في إطار التاريخ ، ولم تقصر جهده عليه . . وإنما تناول كذلك قضايا من قضايا العصر مثل قضية فلسطين ، وقضايا دول الخليج . . . وتلك ناحية جديرة بعرض أوفى .

والحق أن عناية أمين مدني بالتاريخ وتوقفه عنده واستمداده منه واستشهاده به ، واتكاءه عليه في اثبات بعض الحقائق أو تأييد بعض الآراء ، لم يحل بينه وبين أن يتحدث عن الواقع ، وأن يجهد لإنصافه ، وأن تستوقفه بعض قضاياه ، فيقف عندها كما فعل في كثير من المقالات عن القيادة السعودية ، إشادة بها وتوضيحاً لمواقفها ، وإنصافاً لها في سماتها التي أخذتها على عاتقها .

فهل هنالك تناقض بين اهتمامه بالتاريخ وتعريجه بين الحين والحين على الواقع ؟؟؟

إن جملة من مقالاته تصادفنا ـ ونحن نعرض آثاره ـ يتحدث فيها عن القيادة السعودية ممثلة بمجموعة الملوك الذين تعاقبوا على رياسة البيت السعودي ، والإمساك بزمام القيـادة السعودية ، ولكنه حتى هنا وهو في صميم الحاضر لا يخرج عن نزعته التاريخية ، ذلك لأنه لا يكتب ما يكتب في اتجاه الإعلام بالمعنى الشائع للإعلام . . وإنما يكتب ما يكتبه في اتجاه التاريخ . . ومقالاته ليست للإرضاء ، ولكنها للتنبيه والإقناع ، وهو فيها لا يلبس ثوب الصحفي ـ على عراقته في ميدان الصحافة ـ قدر ما يلبس ثوب المؤرخ .

وفي مقال له في مجلة المنهل[1] تحدث عن البيت السعودي من زاوية معينة هي تضحياته في سبيل الإسلام .

والمقال مثل طيب للباحث لا للداعية ، وللمنصف لا للمرائي ، وأنه مقال يعبق بروح الإخلاص والتقدير الموزون لهذه التضحيات . . . يعدد طائفة منها ، وقد بدأها منذ بدأ محمد بن سعود حركته في الدرعية دفاعاً عن الإسلام ودعوته ، ووصف ما كان عليه الحال في

(١) المنهل ، بعنوان : البيت السعودي والتضحية في سبيل الإسلام ، السنة ٣٨ العدد ١٢ ، المجلد ٣٣ تاريخ ذي الحجة ١٣٩٢ ـ ديسمبر ( كانون الأول ) ١٩٧٣ ، ويناير ١٩٧٤ .

الداخل من جهل مطبق ، وفقر مدقع ، ثم ما لقيت في الخارج من مطامع الاستعمار ، ووقف وقفات قصيرة ـ بحكم الحيز الضيق للمقال ـ عند عبدالعزيز ، ثم عند فيصل ، مشيراً إلى رحلاته في سبيل الإسلام ، ثم إلى ما حققه في نطاق مؤتمر القمة الإسلامي ، ثم إلى ما عمله في نطاق اتحاد دول الخليج .

وقد جاءت بعض مقالاته عن البيت السعودي في معرض الرثاء(١) ، ولكنه لم يجعلها خالصة للرثاء . . قد يكون انطلق منه ، ولكنه ركز على الحقائق التاريخية الثابتة لا على الجوانب العاطفية التي لابد لها من أن تخمد لتستحيل نوعاً من التقدير والاحترام ، ولابد لها أن تتخلى عن دورها العاطفي لمصلحة تلك الحقائق .

وقد يستفيد من هذه المناسبات لتأكيد بعض الحقائق الاجتماعية في سياسة الناس ، ففي مقال له عن جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وتقصي حقائق شعبه(٢) ورأى فيه ( أن تقصي الحقائق غاية تعب الكثيرون في سبيل الوصول إليها ، مثل عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبدالعزيز ، وأن من المحال أن يسلم مسؤول من الخطأ وأن من الأخطاء البيضاء والسوداء ، وأن من المسؤولين في الدولة من يقصد إلى إخفاء الحقائق ، ومنهم من يخدم رؤساءه ، وأن التحقيق المباشر الذي يساوي بين الفرد وبين المسؤول ، كبيراً كان أم صغيراً ، أفضل من الاجراء الروتيني وأنه ليس من الحزم الأخذ بقول المسؤول الذي يلقي تبعة المشاكل على الجمهور ، وليس من الانصاف الاعتقاد بأن المراجعين من أرباب المصالح هم الذين يبعثون المشاكل ) .

## الرحلات :

ويتصل بالتاريخ نوع اتصال الرحلات ، وفي الذي خلفه أمين مدني من تراث يستوقف القارىء حديثه أحياناً عن بعض رحلاته ، ولكن الحديث عن الرحلات لا يتخذ طابع الإمتاع والتسلية ، ولا يمضي ليُعنىٰ بالتعبير الأدبي ، وإنما كانت المجتمعات والمقارنات والمفارقات هي التي تستوقفه وتستأثر باهتمامه وكثيراً ما سخّر ما كان يختزن من صور في ذاكرته أو ما كان اطلع عليه في رحلاته لكي ينفذ منها إلى مناقشة الحاضر من حوله ومعالجته والإشارة إلى المسؤولين عنه .

فقد أقضّه ذات حين أن بعضاً من الذين لم يراعوا الثقة التي وضعتها الدولة فيهم أخذوا يهدمون ما تبنيه القيادات العليا .

---

(١) انظر مثلاً مقاله بعنوان : الخسارة في الفيصل لا تعوض إلا بمثل الفيصل ، فقد كان المقال في الرثاء ، ولكنه أحاله إلى بعض الأفكار السياسية في القيادة وتعاون الأطراف المختلفة عليها ، لأن القيادة لا يمكن أن تنحصر في فرد ، وكذلك مقاله بعنوان : العبء الذي انتقل من فيصل إلى خالد ، في المنهل العدد الثاني والثالث ، السنة ٤١ ، تاريخ صفر ـ ربيع الأول ١٣٩٥ ، فبراير ( شباط ) وآذار ( مارس ) ١٩٧٥ ، فقد أشار فيه إلى بعض محاور سياسته في قيادة مسيرة السعودية .

(٢) نشر في زاوية خواطر وذكريات صحفية ، في جريدة المدينة المنورة ، العدد ٥١٨٥ تاريخ ٨ جمادى الآخرة ١٤٠١ .

ولم يشأ أن ينال منهم على نحو مباشر ، ولا أن يسميهم ، ولا أن يشير إلى مناصبهم ، ولا أن يذكر أعمالهم أو يصفها ، وإنما لجأ إلى ماكانت وعته ذاكرته في رحلاته من مشاهد وقصص ، فاستعار هذه المشاهد وألقى بها على الواقع الذي أراد أن يعرض له ، أو أن يعرّض به .

كان صادف في الهند في حيدر آباد الدكن منطقة فيها مجموعة من الدارات والعمائر ، فحدثوه عنها أنها كانت تحتوي على جحور قطّاع الطرق ، فقامت الدولة بتجريد حملات طهرت المكان من هؤلاء المجرمين ، ونشرت الأمان واستحالت المنطقة إلى دور أنيقة وقصور فخمة .

ولكن أمين التنظيم العام لهذه المنطقة استغل ثقة الملك فأخذ يبتز أرباب المصالح ، ويضرب اتاوة يساوم عليها سماسرته ، فكأنه حلّ محلّ قُطّاع الطرق قطّاعُ المعاملات .

والاستاذ أمين مدني رأى في ذلك نوعاً من الفتنة ، ولذلك استشهد هنا بالآية الكريمة ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ ، وختم مقاله بهذه الخاتمة :

( فلقد شملت فتنة الهدامين للإصلاح الذي عني به ملك حيدر آباد رحمه الله ، شملت فتنتهم الدولة والشعب جميعا . . حقاً انها عبرة وعظة لا تقل عمّا أصاب بعض الأقطار الإسلامية التي تُتاخم شبه جزيرتي الهند والعرب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ) .

* * *

# الفصل الثاني

## الآديب

جانب من شخصية أمين مدني يتمثل في ممارساته الأدبية ، وهي ممارسات بعضها يتصل بالإبداع الأدبي ، أو الأدب الإنشائي ، وبعضها يتصل بتاريخ الأدب ، وبعض ثالث يتصل بقول الشعر .

وقد لا تتسع هذه الدراسة لتناول شعر الأستاذ أمين مدني[1] ، ولكن يكاد يكون في حكم القاعدة العامة أن الكثيرين من أدبائنا ومفكرينا ، أو الذين آلوْا أن يكونوا من مفكرينا ، كانت محاولاتهم الأولى في الأدب الإنشائي ، أو في الشعر ، أو فيهما معاً .

ثم لا نلبث أن نلاحظ بعد ذلك في مرحلة تالية أن هؤلاء الذين بدأوا هذه البداية قد تحولوا عن الأدب البحت أوالصافي إلى أحد اتجاهين : إما إلى الدراسات الأدبية أو إلى الممارسات الفكرية . . ويقع ذلك خاصة حين لا يحققون في مجال الأدب البحت أو في مجال الشعر الخالص خطوة متقدمة أو رائدة أو مبدعة تدفع بهم في ذات الاتجاه وتشجعهم على متابعته .

وقصة التحول من الشعر تتبدى في المراحل المتوسطة من العمر الفني في أعقاب بعض التجارب الفنية ، ولكنها قد تتأخر حتى بعد ثبوت التفوق الشعري ذلك أن طبيعة الحياة التي يحياها هذا الشاعر الذي تحقق له الإبداع قد تصرفه عن هذا الاتجاه إلى اتجاه آخر . . الأمر الذي حدث للكثيرين من الأكاديميين أو للكثيرين ممن استبدت بهم مناصب الدبلوماسية أو مناصب الادارة والاقتصاد .

وشيء من هذا كان مما واجه الأستاذ أمين مدني ، فكتاباته تكاد تكون كلها من هذا الأدب الإنشائي في مثل الموضوعات التقليدية ، الإقدام ، الموت ، الخيال ، الحقيقة ، الانتقام ، الأمل .

إن هذه المقالات التي نشرت في جريدة المدينة المنورة[2] تحدد بداياته الأولى ، وتشير إلى أوليات ظهور نزعات التأمل ، وبروز النزعة الفكرية عنده ، فهو لا يخوض فيما يخوض فيه الشباب من موضوعات رومانتيكية ، تتصل بالحب موسوماً بالإخفاق ، أو بالطبيعة متسمة

---

(١) ليس بين يدي شعره إلا أبيات قالها في رثاء أخيه ، فجَّرَتْها في نفسه قوة الفاجعة ، وقد نشرت في جريدة المدينة المنورة ، العدد ٣٨٤١ ، بتاريخ الأحد ١٣٩٦/١٢/٧ .

(٢) نشرت بالأرقام والتواريخ التالية منسوقة في مثل توالي عناوينها ، الأول فما بعده ، العدد ٦٦ ـ شعبان ١٣٥٧ ، العدد ٧٠ ـ ١٥ رمضان ١٣٥٧ ، العدد ١١٤ ـ ٢٥ شعبان ١٣٥٨ ، العدد ١١٧ ـ ١٧ رمضان ١٣٥٨ .
أما الأمل فقد أشير إلى أنها محاضرة ألقيت في الحفل الأدبي دون تحديد للزمان والمكان وتوضيح لطبيعة الحفل .

بالحزن ، وإنما يباشر موضوعات من نوع آخر هي في حاجة إلى أقدار من التأمل والمقارنة والتعمق .

وبذلك يأخذ أمين مدني يحدّد خطوطه التي ستستأثر به من بعد ، أو يبشر بها ، كما تبشر الثمرة المبكرة في الشجرة الفتية بما تعد به ، وهي خطوط تتغلب عليها صناعة التفكير بأكثر مما تغلب عليها صناعة البيان ، وسيكون ذلك من إبراز المعالم التي توضح شخصية المدني وتطبعها .

ومن يدري ، فقد تكون هذه الوقفات الأولى عند قضايا الإنسان والإنسانية هي التي دفعت بالأستاذ أمين مدني نحو دراسة التاريخ ، مؤملاً أن يجد عند الغابرين وسيرتهم مالم يستطع أن يجده في تنظيراته الأولى ، أو نظراته الأولى :

أكان إذن قد بدأ بالإنسان . . ثم تحول إلى الناس ؟؟

أكانت تحركاته الأولى نحو الفرد ، ثم آلت أن تكون نحو الجماعة ؟؟

وواضح للذي يقرأ هذه الآثار الأولى أن الأسلوب فيها لا يتسم بكثير من المرونة ، إنه أسلوب جعد وليس هذا الأسلوب المنبسط ، يلجأ فيه الكاتب إلى الجملة القصيرة حتى لا تفسد عليه الجملة الطويلة صورة عمله ، وإلى تكرار بعض الجمل في رأس كل مقطع ، وإلى الاستشهاد ببعض أبيات الشعر الذائعة ، وإلى الجمل التقديرية التي يغلب عليها طابع الحكمة . إن القَدْر من الممارسة التي تلين القلم وتبسط اليد ، وتعرك الأصابع لم يكن قد توفر له بعد .

وفي المقالات التي تتصف بالطابع الأدبي يبدو عند أمين مدني نزوع واضح إلى القصة ، ولعله كان يتطلع إلى الرواية كما يقول هو ، إذا افترضنا أنه كان يملك - في تلك الفترة المبكرة - تمييزاً واضحاً بين القصة والرواية ، ومقاله ( يقظة الشاطىء )[1] يومىء إلى محاولات تحقيق هذا النزوع ، فهو يقول في مقدمة هذه المقالة ( ملخصة من رواية لم تنشر بعد ) .

ويظهر أن أسلوبه هنا ، بدفْعٍ من طبيعة هذا النوع الأدبي ، وبدفْعٍ من تقدم الزمن وتعميق الممارسة صار أقرب إلى السلاسة ، وكأن قلمه أضحى أقرب إلى مطاوعته منه إلى التأبّي عليه .

ونجد في مجموعة المقالات التي تدخل في باب الأدب ، أشياء تتصل ببعض الأنواع الأدبية مثل مقاله عن الغناء وأناشيد الحرب في الجاهلية والإسلام[2] أو تتصل بشخصية من شخصيات الأدب العربي مثل مقاله عن أبي فراس الحمداني[3] أو بمرحلة من مراحل تاريخ

(١) المقال منشور في مجلة المنهل ، العدد ٧ ، السنة ١٥ ، رجب ، شعبان ١٣٧٤ ( مارس ، ابريل ١٩٥٥ ) .

(٢) المقال منشور في مجلة المنهل ، العدد ١ السنة ٤٠ ، المجلد ٣٥ ، المحرم من ١٣٩٤ - فبراير ١٩٧٤ ، بالتصدير التالي للمرحوم عبدالقدوس الأنصاري صاحب المجلة ( بحث أدبي طريف ممتع ) .

(٣) المقال منشور في جريدة المدينة المنورة ، في الخامس من ذي القعدة ١٣٥٧ .

الأدب ، مثل مقالة له بعنوان ( شيء عن الحياة الأدبية ونشأتها )[١].

وإذا كانت المعلومات وحدها هنا لا تستوقفنا عندها ولا تشدنا إليها ، لأن المؤلف قد لا يكون قصد إلى ذلك ، فإن من المؤكد أن هنالك أشياء أخرى قيمة وغالبية تستوقفنا مثل إشاراته المركزة إلى مراحل تطور الأدب العربي ، وأغلى من ذلك في ميزان القيم الإنسانية للأدب ، وميدان العلاقة بين الأدب والحياة ـ دعوته الحارة إلى أن يسهم الأديب العربي في بناء المجتمع ، وأن يخوض معركة التطور . كما أنه توقف عند طبيعة الأدب ، إذ كان يرى أنه موهبة ( فالشعر الحكيم والبيان الساحر موهبة ليس في قدرة أساتذة الجامعات ومعلمي المعاهد منحها لطلبة الجامعات وتلامذة المعاهد ، فكم من أديب جامعي هو دون الأديب الموهوب ، وإن لنا في الأدب الجاهلي وما فيه من حكم وأمثال مثلاً حياً يؤكد لنا أن الحكمة وأصالة التفكير مواهب يمنحها الله لمن يشاء من عباده )[٢].

ومع أننا الآن صرنا لا نتحدث في مثل هذه القضايا عن بعد واحد ، ولأننا انتهينا إلى أن المسألة ليست محض موهبة ولا محض دراسة ، إلا أن الأستاذ أمين مدني يعاود هذا الموضوع في حوار له مع الدكتور السوافيري[٣].

وقد كان من الطبيعي في هذا الحديث الذي عرضه الأستاذ أمين مدني في مقاله عن الحياة الأدبية أن يكون للمدينة المنورة نصيب منه ، ولذلك جعل صفحاته الأخيرة من تاريخ الأدب المدني أو تاريخ الأدب في المدينة ، وعن بعض بُناته ، فيقص طرفاً من اهتماماتهم اللغوية والتعليمية ، ويتوقف بخاصة عند اهتماماتهم السياسية فيستشهد برسالة طبعت على هيئة كتاب بعنوان : النصيحة العامة لملوك الإسلام والعامة ، كتبها أحمد البرزنجي وقال فيها :

( فياأيها الأمراء والحكام . . انتبهوا من هذه الغفلة المطبقة ، وأغلقوا أبواب الشقاق المفتوحة بينكم ، وافتحوا أبواب الاتفاق المغلقة ، ولتكن أيديكم يدا واحدة ، وقلوبكم قلب رجل واحد ، ولا شك أننا معشر المسلمين مأمورون جميعاً من قبل ربنا تعالى بأخذ حذرنا من عدونا ، وأخذ الحذر يتوقف على الاتفاق ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب ) .

---

(١) المقال في مجلة المنهل ( عدد خاص عن أدباء المملكة العربية السعودية المعاصرين ) العدد ٧ ، المجلد ٢٧ ، رجب ١٣٨٦ ـ نوفمبر ١٩٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٧١ .

(٣) نشر الحوار في جريدة الشرق الأوسط ٥/١١/١٩٨١ بعنوان : شكر للصديق السوافيري وحوار معه ، وكان السوافيري عرض لكتاب أمين مدني ( الثقافة الإسلامية وحواضرها ) الذي قال فيه : إن الشعر شعور ، وإن هذا الشعور لا تحجزه مدرسة ولا يحده إطار ، فمدرسة الشاعر الحياة جميعها ، فاستوقف ذلك الأستاذ السوافيري ليقول : ليس الشعر موهبة ولا دراسة ، ولكنه موهبة ودراسة ، فكان لابد لأمين مدني من أن يتوقف من جديد عند هذه النقطة في حواره مع السوافيري .

كما يستشهد بالشاعر المدني الشيخ العمري الذي لم يحجم عن إبداء رأيه في الثورة العربية ، إذ لم يكن يرى الثورة على الأتراك وهم في حربهم بجانب الألمان ضد الدول التي أنشبت مخالبها في شرقنا العربي .

أما عن أثر هؤلاء الأدباء في النهضة الصحفية ، فقد كان من رأيه أن ( الأديب المدني كان مع الطليعة التي فكرت في إنشاء صحف عربية إسلامية في مهبط الوحي ومبعث الانطلاقة العربية . فصدرت في المدينة إبان العهد العثماني صحيفة ( المدينة ) ، وصحيفة ( الحجاز ) ثم فتحت الصحافة والإذاعة أبوابها في العهد السعودي ليؤدي الأديب واجبه نحو الوطن )[1] .

ولا يتوقف أمين مدني عند أدباء الرعيل الأول فحسب ، ولكنها يستوقفه في آخر المقال أدباء الرعيل الثاني فيصفه بأنه ( الذي تحمّل وحمّل الأدب معه مسؤولية التطوير إذ ترك التغني بليلاه وتغنى بوطنه وتفرغ لمعالجة المشاكل وإظهار مواطن النقص في مجتمعه ، وهؤلاء الأدباء هم الذين أظهروا للصحافة وأظهرتهم الصحافة )[2] .

إن إثارة كل هذه الإشارات وطرحها على الفكر السعودي كان علامة بارزة من علامات النهضة الأدبية التي كان لأمين مدني فيها مثل هذا الإسهام .

وأظن أن أيّاً من الباحثين يريد أن يكتب عن الأدب في المدينة بخاصة لا يستطيع أن يغفل شيئاً من هذه الآراء والملاحظات ، ولابد له أن يقتبس منها وأن يتوقف عندها مستفيداً مما جاء فيها .

وبعض التراث الأدبي للأستاذ أمين مدني كان يدور حول عرض بعض الكتب التي تصدر في المملكة أو حول بعض الذكريات عن زملائه الذين شاركوا في حركة النهضة ، وبخاصة ما يتصل بجريدة المدينة ، فهذه الجريدة التي رأس تحريرها في مهدها الأول ظلت دائماً موطن اهتمامه ومحور ذكرياته ، وكثيراً ما أشار إليها في ثنايا بعض المقالات أو توقف عندها في مقالات أخرى ، من ذلك مقال كتبه بعنوان ( جريدة المدينة المنورة في سنيها الأولى صورة من ماضي صحافتنا ) ومقال آخر متأخر زمنياً عنوانه ( مرحباً بالقفزة التي وصلت بها « المدينة » للمكانة التي نراها فيها الآن ) .

ويبدو أن أمين مدني كان يدرك مكانة السلطة والحكام في تشجيع الحياة الأدبية وأثرهم في ازدهارها ، ولكنه كان في ذات الوقت يعبر عن حرصه على أن يكون هذا التشجيع بعيداً عن

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٧٣ .

(٢) من ذلك مقاله عن كتاب أصدره الأستاذ أحمد عبدالغفور عطا عنوانه : محمد بن عبدالوهاب ، والمقال منشور في جريدة المدينة المنورة بعنوان : أسلوب التأليف وأعداء الدعوة ، العدد ٢٦٣٥ تاريخ الثلاثاء ٢٩ شوال ١٣٩٢ .

رسميات الإعلام ، خوفاً من أن يقود ذلك إلى احتواء الأديب واحتواء إنتاجه ، وقد جمع في مقال له بعنوان ( مجالس الملوك والأمراء الأدبية )(١) بين هذين القطبين .

ويقودنا الحديث عن الأدب إلى الحديث عن اللغة العربية ، فقد كان أمين مدني شديد اللهج بها وبعلومها ، كثير الإشادة بقدراتها ، شديد التنبيه إلى ضرورة حمايتها ، وهو يربط ذلك بالقرآن العظيم ، كتاب العربية الأولى ، قد جاء مقاله ( اللغة العربية بين الاهتمام والاهمال ) تعبيراً عن كل هذه الاهتمامات ، مدعوماً بالشواهد التي توضح الموقف وتنير الفكرة (٢)، وفي نطاق الاهتمام اللغوي كان له تساؤله في إحدى مقالاته عن فكرة المجمع اللغوي وهل ذهبت مع الريح (٣).

وبعد ، فيحسن أن نلاحظ أن هذه الاتجاهات الأدبية قد مكّن لها في حياة أمين مدني وساعد عليها أمور ، منها : ممارسة الصحافة ، لأن طبيعة العملِ الصحفي اليومي يفرض على الكاتب أسلوباً مُيسّراً لا زخرف فيه ، وقد كان هذا ملمحاً من ملامح أسلوب أمين مدني .

ومنها : الصِلات بالقاهرة والتردد عليها ، ولا شك أن الندوة ( ندوة الأصفياء ) التي كانت تنعقد في داره يوم الأحد خلال إقامته في القاهرة ، والتي كان يشارك فيها ثلة من كرام الشعراء والأدباء والمفكرين كان لها كذلك تأثيرها في الإثارة والمعالجة ، ولا أدري إذا كان يباح للمرء أن يقول : إن التراث الذي حمله أمين مدني عن أسرته ـ وهي أسرة علم وفضل ـ في حياته ، والذي تقاسمه مع أخيه الأستاذ عُبَيْد ـ عليهما رحمة الله ـ كان واحداً من الدوافع الكبيرة نحو تأصيل هذه الاتجاهات في تراثه ، وخاصة حين نلاحظ أن عبيداً اتجه إلى الشعر وحلق في سمائه على حين اتجه أمين إلى النثر وإلى قضايا الفكر التي لا يستخدم فيها غير النثر ، فكأنهما تعاورا هذين الميدانين وتقاسماه ، وكلٌّ في نطاق ما يُسِّر له ومضى فيه .

## من المقال التقليدي إلى أنواع أدبية جديدة :

كنت قدمت الإشارة في أوائلِ الحديث عن مقالات الأستاذ أمين مدني التي تتسم بالأدب الإنشائي إلى أن فى بعضها نزوعاً إلى القصة والرواية ، دون تمرس شديد بهما وإدراك عميق لطبيعتهما وأصولهما الفنية .

ولكن الرغبة في التجديد ومعانقة الحياة المعاصرة والانجذاب إلى الأنواع الأدبية الجديدة التي أخذ يطّلع عليها حين أخذت طريقها إلى حياة الناس وطرائقهم في الإبداع الفني ، لم

---

(١) نشر المقال في جريدة المدينة العدد ٥١٢٥ بتاريخ ١٤٠١/٣/١٦ .
(٢) نشر المقال في جريدة المدينة في العدد ٥١٤٩ بتاريخ ١٤٠١/٤/٢٥ .
(٣) المدينة المنورة بتاريخ ١٣٨٥/١/١١ .

تقف عند القصة والرواية ومحاولة الاستفادة منها في تشكيل المقال الأدبي ، وإنما إنضاف إلى ذلك أن السينما أخذت كذلك تسارقه اللحظ وتستأذنه في مداخلة إنتاجه نَوْعَ مداخلة .

فقد نشر مقالاً بعنوان : فصل من سينماء السياسة ـ مجلس خطير هل يُمَثّل مرة أخرى[1]ـ والمقال حوارية شعرية بين عدد من أقطاب السياسة العالمية : تشجرلن ـ هاليفكس ـ ريصمان ، يشير إلى مشكلة السوريت قبل الحرب العالمية الثانية . . وهو لا شك متأثر بما كان ذاع من مسرحيات شوقي . . غير أن شوقياً كان ينوع بين القوافي تبعاً لما يقتضيه الحوار ، أما الأستاذ أمين مدني فقد بنى ذلك كله على قافية واحدة .

وليس يهمنا هنا الموضوع بقدر ما تهمنا محاولة التفلّت من أشكال الأداء السائدة إلى أشكال جديدة ، وكيف أخذ يداخل هذه الأشكال أشياء من الفنون المستحدثة كالسينما مهما يكن قدر هذه المداخلة وسذاجتها .

وليس يهمنا كذلك نصيب هذه المحاولات من التوفيق ، لأننا لا يمكن أن ننسى ـ ونحن في معرض رصد الظواهر ـ الفارق الزمني والفارق البيئي حين ننظر في هذه المستجدات وفي نصيب الرواد منها .

ولم يقف الأمر بأمين مدني في هذه المحاولات عند هذا التأثر بما كان من شوقي أو ممن تابعوه في الحوار الشعري ، ففي بعض ما كتب كان هناك نزوع إلى المسرحية وهي أكثر فنون الأدب تعقيداً وأشدها حاجة إلى المران الشاق الطويل .

وهو لم يسم عمله باسم هذا النوع الأدبي ( المسرحية ) ، وإنما جمع عليه تسميته بالقصة مضيفاً إليها تقسيمات المسرحية ، فجعل العنوان على النحو التالي :

( حقائق في ثياب قصة ، وقصة في نطاق فصلين ) ، ونشر الفصل الأول في عدد ، والفصل الثاني في عدد تال ، والفصلان حديث مع الزمن ، قال فيه بعد مدخل قصير حدد فيه بواعث الموضوع في بعض الإشكالات التاريخية ، وفي تناقض بعض رواياتها وفي حيرة المؤرخ المحدث فيها ( . . . وأخيراً تخيَّلتْ لي صورة تمثل الزمن عملاقاً قوياً يدفع أمامه عجلة كأنها قاطرة ، وقد تكدست عليها أحمال ضخمة . . فأدهشتني صورة الزمن التي ظهرت على غير ما يصوره الخيال شيخاً فانياً يتوكأ على عصاه ، ووجدتني أسأل العملاق :

ـ كيف لم تضعفك ملايين السنين التي مرت بك ؟ ، فسمع صوتاً من بعيد يحمل جواب الزمن :

ـ ليست هذه السنوات التي تتحدث عنها إلا توقيتاً وضعتموه يا أبناء آدم لحياتكم القصيرة ، فما دنياكم مع مجموعتها الفلكية إلا عالم صغير من عوالم رب الوجود الكبير . . . أتحسب ملك الخالق مقتصراً على دنياكم التي ستفنى كما فنيت دنى كثيرة ، منها ما هو أكبر من

(١) العدد ٩٥ تاريخ الاثنين ١٠ ربيع الثاني ١٣٥٨ .

أرضكم هذه ، ومنها ما هو أصغر . . . وانتهت عوالمها إلى مصائرها كما ستنتهون يا أبناء آدم إلى مصيركم ، ويبقى ملك الله العظيم وأبقى معه رمزاً سرمدياً . . . ) .

وحين سأله أمين مدني : ما هذه الأحمال الضخمة التي تسير بها ، أجاب : إنها أسراري . ومن هنا انطلق يتحدث معه عن هذه الأسرار من خلال لقائه مع بعض المؤرخين . . . مثل البلاذري الناقم ، ثم اليعقوبي المؤرخ الجغرافي ، ثم الطبري . . . يتحدث عن خصائصهم ويسأل كلا منهم عن قضية من القضايا التي أغفل التاريخ إيضاحها أو اختلف فيها المؤرخون .

وكانت وقفته الطريفة في الفصل الثاني مع ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، وغضبه من الذين اختصروا كتابه ، وهي فكرة رائعة لأن اختصار الكتاب لا يبقي الكتاب على أصله ، ومختصر ابن منظور لتاريخ ابن عساكر ليس تاريخ ابن عساكر ، ولكنه تاريخ ابن منظور .

ولابد للباحث من أن يشيد كذلك بوقفته مع ابن خلدون والكشف ـ من خلال هذه الوقفة والحوار فيها ـ عن خصائصه الفكرية وخصائص تاريخه .

الرواية ، المسرحية ، القصة ، السينما ، التمثيلية ، الحوارية الشعرية ، أشياء جديدة على أدبنا العربي ، كانت مما حمله إلينا الاتصال الذي حققته حركة الترجمة في العصر الحديث . . . وقد أخذت تداخل الحياة العربية بمقادير تختلف بين قطر وآخر . . . وأخذ التأثر بها يطال الكتاب والأدباء على هذا النحو أو ذاك كلٌّ بمقدار ما يُسِّر له من ذلك . . . وكان لابد للأستاذ أمين مدني ـ وعيناه كانتا تدوران في حدة وسرعة وذكاء بين القديم والحديث ـ من أن يلتقط أشياء من هذا الجديد في دنيا العمل الأدبي ، قبل أن تستقر به اهتماماته ، وقبل أن يستقر بها أسلوبه .

وبعد . . . فإن الذي لا شك فيه أن مثل هذه المقالات في مجافاتها للأسلوب التقليدي تمثل تطلعاً ذاتياً ، واندفاعاً نحو الخروج بالمقال عن طريقه المألوف ، ومحاولة لتجديده على هذا النحو الذي حاوله أو ذاك .

إن القضية هنا ليست محاكمة للكاتب ، ولا نقصد إلى تقييم دقيق لمدى ما كان من توفيقه في اصطناع هذا البدع الجديد . . . بقدر ما هي استشفاف لروحه المتطلعة وضميره المتفتح ، وعالمه الداخلي الذي كان يمور بالكثير من الرغبات الصادقة والطموحات الرفيعة لتحقيق الجدة في أدبنا العربي .

## الاهتمامات الفنية المبكرة :

وتكشف مقالات أمين مدني عن نزعة فنية تخالط أعماقه الداخلية ، وهي نزعة تلامس الجو الفني في ذراه ، ولا تهبط به إلى مجالات التبذل والاستهتار .

وتتسم هذه الاهتمامات الفنية عنده بالتزام التوازن بين النشاط الجسدي والنشاط النفسي ( فإذا كانت الألعاب الرياضية تنشط الأجسام وتقويها ، فإن من الموسيقى ما ينعش النفوس ويروح عنها ) .

ومن هذا المنطلق كانت دعوته إلى العناية بالتراث الموسيقي في خطراته التي كان يكتبها بعنوان أفكار اليوم[1] .

ولكي يتجنب الجدل الذي لا يثمر حول هذا الموضوع طرق باب التاريخ ، واستنطق طبيعة الإنسان العربي ، وجال في المأثور عن أهل المدينة فقال :

( ولقد عرف العربي بأنه طروب خفيف الظل ، نبيل الخلق ، غير متزمت ولا متجرد من العاطفة والحس الرقيق ، ولقد عبر المدنيون عن فرحتهم بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأغنية التي استُقْبِل بها : طلع البدر علينا .

ثم يحتج ببعض الأصوات المئة المختارة التي اختارها الموصلي للخليفة هارون الرشيد والتي بنى عليها أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني ، ومن هذه الأصوات ما كان يتوقف عند معالم المدينة إشادة بها أو حنيناً إليها .

| | |
|---|---|
| القصر فالنخل فالجماء بينهما | أشهى إلى القلب من أبواب جيرون |
| إلى البلاط فما حازت قرائنه | دور نزهن عن الفحشاء والهون |
| قد يكتم الناس أسراراً فأعلمها | ولا ينالون حتى الموت مكنوني |

* * *

(١) المدينة المنورة ، تاريخ ١٦/٢/١٣٨٥ .

# الفصل الثالث

## عاشق المدينة

ولقد كانت المدينة المنورة تاريخاً وآثاراً ، وعمراناً وتنظيماً ، هاجساً من هواجسه ، كما كانت مكانتها وقيادتها وريادتها في الدين والعلم والثقافة هَمّاً من همومه ، يريد دائماً أن يجلو هذه الريادة ويحقق لها هذه القيادة ، ويدعوها إلى استئناف المهمات الثقال التي نهضت بها في المراحل الأولى من قيام الحضارة الإسلامية ، وكان أهلوها وزوارها والمترددون عليها ، كما كانت إداراتها وتنظيماتها الشاغل الأول له ، يلح عليه في أكثر الذي كتب تحت عناوين مختلفة : أفكار المدينة ، ذكريات وخواطر . . .

إن المدينة المنورة في ماضيها كما كانت في حاضرها ومستقبلها ، خبزة الفكري اليومي ، منها ينطلق وإليها يعود ، وعلى ضفاف عقيقها يسمر ، وفي شوارعها يجول ، وهو حيث هو من مكانه في بيته ومكتبه . . . كان نجماً مضيئاً يدور دائماً في فلكها ، يستمد منها ويضيء بعض دروب الحياة فيها . . . وإذا كانت ذات الإنسان تستقطبه في تصرفاته وأحكامه ، وفيما يدع ويأخذ ، فإن المدينة المنورة كانت محور الذات عند أمين مدني ، ولعل إنساناً معاصراً لم يشغل بكل ما يتصل بمدينته على نحوٍ ما شُغل السيد أمين ، ولم يؤخذ أحدُ ببيئته الصغرى - دون أن يغفل عن بيئته الكبرى - كما أخذ السيد أمين . . .

وقد بادلته المدينة هذا الحب ، فتحت له صدرها ، وأوَتْهُ من قلوب أبنائها في الشغاف ، وأسلسلت له من تاريخها وماضيها ، ورفقت له من رؤى مستقبلها وطموحات هذا المستقبل مالم تسلسل لغيره . . . فإذا حراتها ووديانها وأبوابها وأسواقها ، وإذا حَرَمُها الشريف قبل كل شيء في خاطره حين يكتب ، وفي تفكيره حين يفكر ، وفي تحقيقاته حين يحقق ، وفي ذكرياته حين يتحدث عن ذكرياته وإذا هي مقياس صداقاته ومركز اهتماماته .

وإنك لتشعر وأنت تعرض تراثه أن المدينة المنورة كانت بكل ما يتصلٍ بها موضوع تفكيره الدائب ، يفكر فيها إذا أمسى ويفكر فيها إذا أصبح ، ويفكر فيها إذا جَنه الليل ، شوارعها لم يضيق عنها قلبه بل اتسع لها ، مسجدها كان في حبة فؤاده . . . محلاتها وميادينها في عقله إذا تحدث عنها من الزاوية التاريخية ، وفي مركز الثقل من اهتماماته إذا تحدث عنها من الناحية العمرانية . . . وآثارها شاخصة بين عينيه ، تنطبع على صدره ، ويلهج بها لسانه ، وينثال معها قلمه ، إنها مدينة الرسول ومهد حضارة الإسلام ، وصورة التاريخ ، وأمل المستقبل .

ولم يكن ما كتبه عن ذلك بدافع من هوى ، إلا هوى المدينة ومصلحة زوارها

والمستضعفين من أهلها ، ولذلك لم يترك فرصة تتيح له الحديث عن ذلك والخوض فيه إلا اغتنمها ، ولا مناسبة إلا انتهزها .

وقد أفاد في ذلك من تجربته التي اكتسبها خلال رئاسته للبلدية ، وخلال ممارسته رئاسة تحرير جريدة المدينة في عهودها الأولى ، وخلال تغذيته لها في مقالاته وأسبوعياته . . . لذلك نحس أنه يكتب عن معاناة نفسية تتمثل في حبه للمدينة ، وعن تجربة ذاتية تمثلها رئاسته للبلدية ، وعن معرفة تاريخية يعبر عنها بدراسته لتطور المدينة واهتمامها بآثارها .

في أوائل سنة ١٣٨٨ في الشهر الأول والثاني يطالع القارىء سلسلة من المقالات كتبها أمين مدني بعنوان كبير هو قصة التنظيم ، وأهداها إلى المسؤولين عن التنظيم ، وكانت قَدِمت إلى المدينة هيئة لدراسة مشاريعها ورسم مخطط تنظيمي شامل لها ، يُتّخَذ أساساً لمشاريع الحاضر والمستقبل .

وقد غادرت الهيئة المدينة في اليوم التالي لوصولها ، بعد أن اجتمعت بالمجالس ذات العلاقة بالتنظيم ، لتقدم نتائج مهمتها للمراجع العليا .

عمل هذه اللجنة استثار عاشق المدينة فكتب في ذلك ستاً من المقالات المتابعة ، وتعبر هذه المقالات رغم طابعها الداخلي الخاص والضيق عن روحه العاشقة وعن معالجته المنطقية ، وعن نزعة تغليب التفكير والنظم ، وعن أخلاقية البعد عن المجاملات والقرابات والصداقات ، حين يكون الأمر متصلاً بالمدينة التي يحب ويحب الناس جميعاً ، كما تعبر عن أسلوبه المتأني ، وعن منهجه الفكري ، وعن بعض ملامح الأداء الأدبي عنده .

وقد سلك بها سبيل الحوار . . . وتمثل شخصاً يقبل عليه ويتحدث إليه ويحثه على معالجة الموضوع ( ألست أنت الذي كتبت عن المشاريع وتخطيطها محبذاً وناقداً ، ولم يصدك عن نقدها صداقتك لرئيس البلدية السابق ، ودار بينكما نقاش طويل . . . ألست أنت الذي كتبت عن الجامعة الإسلامية فتقبل المربي الكبير الشيخ عبدالعزيز بن باز ما كتبته بكل ما يستحق النقد الهادف والمخلص ) .

وانتقل أمين مدني بعد هذا من أسلوب الحوار الذي استدعى التشويق والإثارة إلى أسلوب التقرير ، فأخذ يتحدث عن بعض ما يراه في ذلك .

وكان لابد له وهو يعرض لقضايا كبيرة في تطوير المدينة أن يمهد لذلك في قلوب المسؤولين أولاً ، فإذا هو يذكر بالثناء والخير أمير المدينة وإذا هو ـ وحق له ذلك ـ يذكر بالإشادة والتقدير وزير الداخلية آنذاك سمو الأمير فهد بن عبدالعزيز ، مشيراً إلى اتزانه وبعد نظره وحرصه على كل ما يفيد الصالح العام .

ثم بدأ يوجه ويناقش وينقد . . .

كان أول ما نقده السرعة التي اتسمت بها دراسة الهيئة . . . ( فهي قدمت المدينة ثم

غادرتها في اليوم الثاني بعد أن اجتمعت بالمجالس ذات العلاقة بالتنظيم ، لتقدم نتيجة مهمتها إلى المراجع العليا ) .

ورَسْمُ ( المخطط التنظيمي الشامل الذي يراد له أن يتخذ أساساً لمشاريع التنظيم ) يحتاج في أول ما يحتاج إليه إلى أقدار كبيرة من الأناة ، لأن شمولية هذه المشاريع تجعلها لا تقتصر على الحاضر ، وإنما تتعدى هذا الحاضر إلى المستقبل وإلى المستقبل البعيد .

وقلم أمين مدني - يرحمه الله - يمتاز بالعفة والإخلاص . . . ولذلك حين أخذ يعجب لهذه السرعة لم يزد على أن قال ، وكأنه يصف ولا ينقد ، أو كأنه ينقد من خلال الوصف : ( وهل سمعت أنه في تلك الجلسة نظم مخطط لشوارع المستقبل وميادينه ، إلى غير ذلك مما سوف يكون قاعدة يسير عليها التنظيم في المدينة ) .

وحين يعد ما يتناقله الناس من أخبار عن هذا المخطط وعن تفاصيله يشعرك بادىء ذي بدء بغرابته ، وبالحاجة إلى مناقشته وبترحيب الجهات المسؤولة بهذه المناقشة ( فالتنظيم من حق الجميع البحث فيه ، وهذه الجهات المسؤولة في جدة وفي مكة وفي الرياض ترحب بما يكتب عن التنظيم وتتجاوب مع الرأي الواقعي ) .

وعن طريق هذا الحوار الذي يصطنعه مع صاحبه ، وصاحبه يلح عليه في أن يكتب مبدياً آراءه ، يؤكد الكاتب ضرورة الأناة والدراسة المتعمقة ( فإذا كانت المهمة التي جاءت لأجلها الهيئة هي وضع مخطط يسري اعتماده عشرات السنين ، فإن هذه المهمة تحتاج إلى وقت أطول من هذه الزيارة الخاطفة ، فمخطط طويلُ المدى تسير عليه شوارع المدينة لسنين تزيد على الخمسين يستدعي دراسة واسعة وافية يراعى فيها وضع المدينة ومآثرها ، ومستلزمات المستقبل المتطور . . . فما أخبرتني عنه - يقول لصاحبه - هو كما يبدو بداية الدراسة لا نهايتها ) .

ويمضي في هذا المقال الذي جعله مقدمة لسلسلة من المقالات تناولت بالتفصيل كل نقطة من هذا المشروع ، يثبت في الذهن ما يَرِيد أن يتلافى من أخطاء تأتي نتيجة التسرع ، مستشهداً بما تم في بعض مدن المملكة الأخرى فيقول :

( ولقد علمتنا التجارب أن التخطيط المتعجل نشأ عنه التفكير في إعادة النظر في تنظيم بعض المدن . . وعلمتنا التجارب أن الدراسات المتأنية لها نتائجها المفيدة . . . فما أكثر المباني التي هدمت وكان في وسع التنظيم أن يتفاداها ، وما أكثر ما انتقل التنظيم من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، قبل أن يصل هنا وهناك إلى الغرض الذي من أجله صرفت ملايين الريالات ، والشواهد الملموسة على ذلك كثيرة ) .

ولا ينهي أمين مدني مقاله نهاية جامدة قاسية . . . ولكنه يدلك على ما سوف يتناول في المقالات التالية ، في شيء من الطرافة الأدبية المحببة ، ( ولسوف نبحث معاً في . . . أما الآن فدعنا نشرب قهوتنا ) .

وفي المقالات التي جاءت بعد شرب القهوة تحدث أمين مدني عن جوانب من هذا التنظيم : عن توسعة المسجد النبوي في عدد ثان ، وما يجب أن تكون عليه ، ثم عن شارع سويقة البلاط وتاريخه وما يلزمنا من الإبقاء على معالمه في عدد ثالث ، ثم عن مدّ شارع الساحة الجديد إلى الحرّة الغربية ، فذلك أفضل من فتح شارع من زقاق الطيار إلى الحرة الغربية في عدد رابع .

ثم يعالج مشكلة زحف العمران على الأرض الزراعية في عدد خامس .

أما في العدد السادس فيسوق حديثه عن المسؤولية في هذا التنظيم بعنوان : علينا أن نجعل التنظيم في مستوى المسؤولية ، ويرى فيه أن مهمة تنفيذ المخططات وحمايتها لا تقل مسؤوليتها عن التخطيط ، وإنه مادامت الشوارع والأزقة فريسة للتعدى بمختلف أشكاله فلابد من جهاز متفرغ ذي طاقة وكفاءة يحمي هذا التنظيم .

إن عاشق المدينة يبدو ، في كل هذا الذي كتبه ، حريصاً على ماضيها ، حريصاً على حاضرها ، حريصاً كذلك على مستقبلها ، ولذلك أوْلَى الجانب الماضوي الآثاري من المدينة عنايته في هذه المقالات . . . كما أوْلى جانب الحاضر مثل هذه العناية حين أشار إلى ( العدد الكثير من الدكاكين والدور التي سوف يضطر سكانها لإخلائها عندما يُزال شارع سويقة . . ) ، وكذلك أوْلى الجانب المستقبلي أهمية في مدينة يؤمها مئات الآلاف من مشارق الأرض ومغاربها كل عام .

وعاشق المدينة لم يكن ضيق النظرة لا يفكر إلا في المدينة وحدها ، ولو فعل لما كان جانَبَ الصواب وطبيعة الأشياء ، ولكنه كان من خلال المدينة يفكر كذلك في المدن الأخرى . . . وقد قاده هذا الاهتمام الشمولي إلى أن يقترح في وقت مبكر جداً ، قبل ما يزيد على خمسة عشر عاماً قيام وزارة البلديات بجانب وزارة العمل ، ووزارة الأوقاف في مقال نشره في جريدة المدينة في ٢٣/٤/١٣٨٣ بعنوان : «البلديات في سباق ، فأزيحوا العقبات من طريقها . . . » وهو يعني بالعقبات الإنشاءات الفردية والتجاوزات التي تشوه من المخطط العام وتتخطى المصلحة العامة .

وعناية أمين مدني بالمدينة المنورة والمدن الأخرى لا تأتي من نظرة جمالية فحسب ، ولكنها تأتي كذلك من نظرة جماهيرية ، تريد أن تراعي مصالح الناس ، يقول في آخر مقاله المتقدم « البلديات في سباق » : ( ولكن كل يوم يمر على المتسابقين يرهق وجودهم ، ويرهق موازناتهم ، ويرهق الجمهور الذي أقضه الهدم والبناء ، ولو كان التعويض سخياً ) .

وكذلك أحب عاشق المدينة المدينة كما أحب ناسها ، كبراءهم وصغارهم الأغنياء والفقراء ، الباعة وأصحاب الدكاكين ، وخشي عليهم مرة قصة الهدم والبناء كما خشي عليهم في مرة أخرى قضية الغلاء ، فراح يتحدث عنه ويحاول معرفة أسبابه ثم وضع القضية أمانة في أعناق الكتاب والأدباء ( وياحبذا لو انصرفت الأقلام للمشاكل التي تصادف

الناس ، فالأديب الجاهلي كان يعالج مشاكل الحي والمرعى والمياه ، وطرق العيش ، ويصور ما يلاقيه الإنسان الجاهلي من مجاعة الجدب وقسوة الغزاة ، وجشع البخلاء . . . كذلك الأمر بعد ظهور الإسلام ، فقد أخذ الأدباء يصورون المجتمعات الإسلامية . . فأين نحن من ذلك )[1] .

وكما حرص فقيدنا على جمهور أهل المدينة حرص كذلك على الجانب الآثاري من المدينة ، ويتمثل ذلك في مقالات أخرى كتبها عن المناخ الشامي[2] ، فقد أزعجه أن يشغل النقل الجماعي جزءاً من هذه المنطقة من المدينة المنورة ، وهي منطقة تعبق بالتاريخ والذكريات ، لأنها كانت أول الطريق إلى الشام ، ومناخ أبله ورواحه ، كما أزعجه أن تشغل المطافيء جزءاً آخر من هذه المنطقة .

وساقه ذلك إلى بحث تاريخي دقيق عن أرض المناخ الشامي ، وكيف كانت أرض المصلى وأرض السوق النبوي ، وحدد أرض المصلى من جنوب المسجد المعروف بمسجد الغمامة إلى السوق النبوي شمالاً ، ودفعه ذلك إلى تحديدات دقيقة أخرى ، للنقا ، وجرار سعد ، وبستان الداودية ، وتمنى لو صُيِّرت ( أرض هذا البستان حديقة عامة تجعل متنفساً لعامة الشعب ومتنزهات للطلبة الذين يزدحمون بجانب أشجار مستشفى الملك الشرقية يستذكرون دروسهم على ضوء مصابيح الشارع في ليالي الصيف ) ، ثم يعقب على ذلك ( ولكن أماني الشعب ومطالبه تدفن في تصريحات تغطي الواقع على المراجع العليا ) .

ويختم المقال بهذه الجمل التي تعبر عن تجاوبه مع رغائب أهل المدينة وحرصه على تحقيقها ( إن أرض بستان الداودية البيضاء تقع في قلب المدينة المزدحم بالسكان ، وبين شوارع رئيسية مزدحمة بالسيارات التي يملأ الجو غازها والمحلات المكتظة بالسكان ، والشوارع التي تعج بالسيارات هي التي تحتاج أكثر من غيرها للحدائق العامة ، فالحدائق العامة رئة للمدن ومتنفس للسكان ، الذين هم أمانة في عنق المسؤولين عن راحتهم ورفاهيتهم ) .

ولعله من أجل هذا الحب للمدينة المنورة وعشقها كان آخر المؤلفات التي عمل أمين مدني بها وحرص على إنجازها قبل وفاته كتاب يضم صوراً نادرة عن المدينة ومعالمها في القرن الماضي ، أراد من ورائه تثبيت معالمها الأولى وإبرازها وتسجيلها قبل أن تأتي عليها حركات التنظيم المتجددة ، فهل ينظر المهتمون بتراث أمين مدني إلى هذا المؤلف بما يساعد على إخراجه ؟ .

(١) عكاظ ، العدد الأسبوعي ص ٣ السبت ٤ ربيع الثاني ١٣٩٦ .
(٢) المدينة المنورة ، العدد ٥١٩١ ، تاريخ ١٥ جمادى الآخرة ١٤٠١ .

# الباب الثاني

## أمين مدني
## مؤرخ العرب في احقاب التاريخ
## قراءة في تراثه التاريخي

بقلم : الدكتور / مصطفى ابراهيم حسين

أستاذ الدراسات الأدبية المشارك

بكلية الآداب - جامعة الملك سعود

# مقدمة البحث

كان هذا البحث المطوَّل مجرد مقال قصير نشرتُه في مجلة القافلة ، ضمن سلسلة من المقالات بعنوان : ( أدباء من المملكة العربية السعودية ) ـ وفوجئت بعد نشر المقال بالأخ الكريم الأستاذ إياد مدني ، نجل الراحل الكريم ، يتصل بي هاتفياً ، يعرض عليَّ ـ بعد حديث طيب ـ كتابة بحث مطوّل ، يكون أكثر شمولاً وعمقاً عن أعمال والده الراحل ، تغمده الله بواسع رحمته والغفران . وأخبرني بأنه بصدد إصدار كتاب عن والده ، يضم بحثاً يتناول الجانب الأدبي ، وآخر يتناول الجانب التاريخي ، وأنه تحت يده البحث الخاص بالجانب الأدبي ، أنجزه الاستاذ الأديب والعالم المحقق الدكتور شكري فيصل ، أحد أدباء سورية الشقيقة ، وكان ـ رحمه الله ـ قد عمل أستاذاً بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، واتصلت أسباب المودة بينه والأستاذ أمين مدني ـ رحمه الله .

وقد استغرق إعداد بحثي : ( أمين مدني : مؤرخ العرب في أحقاب التاريخ ) قرابة العامين ، لما تطلبه من قراءة متأنية في موسوعة ( العرب في أحقاب التاريخ ) ، وهي في ثلاثة مجلدات ، تقع في أكثر من ألف وستمائة صفحة عدا كتاب ( الثقافة الإسلامية وحواضرها ) ، كما تطلب الأمر مراجعات في مصادر تاريخية وأدبية وإسلامية رجع المؤلف ـ رحمه الله ـ إلى كثير منها . كما أن أعباء العمل الجامعي ، وما يتطلبه من الالتزام ، كان يصرفني لفترات ليست بالقصيرة عن الاستمرار في البحث ، حتى إذا عاودتُ الرجوع إلى قراءاتي ، وجدتني بحاجة إلى بذل الجهد مضاعفاً ، لوصل ما انقطع ، واستعادة ما كلّت الذاكرة عن استيعابه .

والحق ، أنني أتعبتُ الأستاذ إياد مدني كثيراً ، فالرجل برغم طول الأمد ، لم ينصرف عن قصده ، ولم ييأس عن إنجازي ما طلب ، فظل على فترات متباعدة يتصل ، ويسأل في رفق وأدب ، ويدعو لنا بالخير . وقد أعان الله ـ بعد مماطلة مني ومصابرة من الأخ إياد ـ على إنجاز ما وعدت ، وتحقيق ما طلب .

والذي يلفت قارىء المؤرخ الراحل ـ رحمه الله ـ أنه ـ بحق ـ يمثل مدرسة متميزة في البحث التاريخي المعاصر ، فهو نمط آخر لا نكاد نعثر على نظير له بين مؤرخينا المعاصرين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي ، أو ما تصرّ جامعاتنا في العالم العربي على تسميته ( عصور وسطى إسلامية ) ، مع أن المصطلح على هذا النحو يلقي ظلالاً قاتمة كثيفة من التخلف والكساد الفكري والحضاري ، وذلك ما يصدق على أوروبا ، التي كانت الشمس غاربة عن أفقها ، ساطعة على الأفق الإسلامي الرحيب .

وأبرز خصائص البحث التاريخي لدى أمين مدني ، أن الرجل قد دخل حقل التاريخ من باب ولائه وانتمائه لأمته العربية المسلمة ، وغيرته على تراثها ، وحرصه البالغ على أن تستعيد هذه الأمة المستهدفة خطاها نحو المجد ، وما تزال عباراته تطالعك بهذه المعاني الجليلة في مقدماته وثنايا كتبه وخواتيمها .

ويترتب على هذه الخاصة ، أن أمين مدني قد استطاع أن يستنقذ فكره ووجدانه وقلمه من التأثير الاستشراقي ، بما يحمله من تصورات مسيحية ، أو مشاعر عدائية . فأنت لا تجد أمين مدني إلا مدافعاً عن أمته ، مفنِّداً بالدليل والحجة آراء خصومها الطاعنين ، فإذا بك أمام تاريخ الإسلام بل وتاريخ العرب قبل الإسلام في أجلى الصفحات وأنصعها ، في الوقت الذي سادت الساحة فيه بحوث في تاريخنا واقعة ـ عن حسن نية وجهالة ـ تحت تأثير الرؤية الغربية .

ومع هذا فأمين مدني قد سلك أبحاث المستشرقين في مصادره ، بل سلك معها أبحاث الآثاريين والجيولوجيين ، بل والأسفار اليهودية والمسيحية ، وما اقترن بها من إسرائيليات . لقد رجع إلى كل هذه المصادر ، وحَكَمُه النقد العلمي المنهجي البناء ، والعقيدة الإسلامية ، والغيرة على تراثٍ مجيدٍ ، دون امتهانٍ للحقيقة والحق .

إنه يأخذ من المستشرقين ما يوافق معاييره العلمية والدينية في غير ما تحرُّج ولا جمود ، ويرفض منها ما ينأى عن منهجه ، فضلا عن مقصده ، دون تشنج ولا إساءة لأحد .

هذا إلى غزارة المادة التاريخية على نحو يثير احترام الباحث الجادّ ، الذي يتسلح بغير قليل من الصبر والأناة والبعد النافذ قبل أن يلِّج عالم أمين مدني في جدّيته واحتشاده ، فضلا عن مصادره التى لا تتميز فقط بالكثرة ، بل تتميز أيضا بالتنوع في الموضوع وفي المنهج والمنحى .

وقد حاول هذا البحث المتواضع أن يبرز أمين مدني واضح الشيات والسمات : مقصداً ومادة ومنهجاً ونتائج ، وأن يضعه أمام قارئه دون إقحام لتحليلات وأبحاث تمسّ الصورة في وضوحها ، فإذا بالقارىء وقد عرف الطريق إلى عالم هذا المؤرخ ، وإذا بالقارىء شغوف كل الشغف بارتياد هذا العالم الذي عرفه وأحبه ، وإذا به يرتاده في غير ما تخوّف ولا ضياع لخطاه .

إن هذا البحث ـ في أوجز عبارة ـ « قراءة موضوعية متأنية في تراث أمين مدني التاريخي » ، بعيدة عن فرض القارىء ذاته وفكره ، اللهم إلا من تفسير هادىء ، أو تحليل مقتصد ، أو ملاحظة متروية متأنية(١) .

ولا يفوتني أن أتوجه بالشكر والتقدير ـ في المقام الأول ـ إلى أمانة جائزة الدولة التقديرية بالمملكة ، ممثلة في كافة العاملين بها ، وأخص منهم الاستاذ عبدالرحمن العليق ، الأمين

---

(١) لم يفرد بحثنا دراسة لكتاب ( المصارف والشركات المساهمة ) ، بل اقتصر على المؤلفات التاريخية .

العام ، والأستاذ فاروق عبدالعزيز . إذ كان لفترة عملي بها ، متعاوناً بالانتداب من جامعة الملك سعود الدور الكبير في إطلاعي على الأدب والثقافة بالمملكة ، والتعرف على الرواد الكبار من خلال مؤلفاتهم ، وملفات المعلومات عنهم ، حيث كنت مكلفاً بإعداد بحوث عن الفائزين بالجائزة .

كما أتوجه بالشكر إلى الأخ الأستاذ عبدالله حسين الغامدي رئيس تحرير مجلة (القافلة) الذي دعاني إلى الكتابة عن أدباء المملكة على مدى زاد على العامين ، كتبت خلالها عن ثمانية وعشرين أديباً من بينهم المؤرخ الأستاذ أمين مدني . وقد لقيت صفحات ( أدباء من المملكة العربية السعودية ) اهتماماً وحفاوة بالغين من الأخ الأستاذ عبدالله خلال فترة تحريره ( القافلة ) ، كما بذل قصارى جهده لكي تظهر مقالاتي في ( القافلة ) في أدق صورة ممكنة . فجزاه الله عنا وعن الثقافة والفكر خير ما يجزي المخلصين .

وشكراً ـ بدءاً وختاماً ـ للأخ الكريم الأستاذ إياد مدني لقاء حسن ثقته ومتابعته الدائمة الدائبة ، وبالله التوفيق .

مصطفى إبراهيم حسين

الرياض في ٢٥ من شعبان ١٤١٠هـ
٢٢ من مارس ١٩٩٠م

# الفصل الأول

## حول الدوافع والمؤلفات

كان أمين مدني مؤرخاً .

لكنه لم يكن مؤرخ الأحداث في مضيّها وتعاقبها على نحو ما سجّلتها مصادر التاريخ . بل كان ـ رحمه الله ـ مؤرخ الحضارة ، حضارة العرب في ظواهرها وملامحها وقضاياها .

أجل ! . كانت ( الظاهرة الحضارية العريقة ) ، والتي صنعها الإنسان العربي ، هي هدف ذلك المؤرخ ، ومدار اهتمامه بالتاريخ العربي ، يستشف دلالاتها ، ويجمع خطوطها وخيوطها ، وهو يكتب عن ( العرب في أحقاب التاريخ ) ، فإذا بتلك الخطوط والخيوط ـ في خاتمة تطوافه عبر أزمان سحيقة ـ تستقيم أمام الرائي ، وكأنها تشخيص حي نابض لهذه الحضارة ، التي كابد الإنسان العربي ، مع سواه من بني البشر ، في صنعها وتشكيل ملامحها .

ولم تكن الكتابة التاريخية ـ لدى أمين مدني ـ هدفاً مقصوداً لذاته ، دفعه إليه مجرد حب التاريخ والشغف بعالمه القديم المثير ، أو شغف الإنسان باستدعاء ماضيه ، واستعراض ذكرياته المتألقة .

ولم يكتب أمين مدني تاريخ العرب ، لمجرد أن يدلي بدلوه مع سائر أصحاب الدِّلاء من المؤرخين ، ولكي يرى نفسه مؤرخاً في زمرة المؤرخين ، يشار إليه بالتقدير .

كلا . . لم يكن مجرد حب التاريخ .

بل . . لم يكن حب الشهرة والمحمدة ، هو ما يبحث عنه مؤرخ ( العرب في أحقاب التاريخ ) .

بل كان وراء نشاطه التاريخي هدف أبعد من ذلك كله ، هو أن يرسم الصفحة المضيئة من تاريخ أمة العرب ، بعد إذ عدت على هذا التاريخ ـ في عصرنا ـ عوادي الشعوبية والاستعمار والاستشراق . . . ينشرها نقية وضيئة مضيئة ، في وقت تحالفت كل هذه القوى ـ مجتمعة ـ للكيد للأمة العربية ، وإفقادها الثقة في ماضيها ومقدراتها .

يقول ـ رحمه الله ـ في خاتمة ( التاريخ العربي وجغرافيته ) : « . . فأنا لم أؤلف هذا الكتاب ، وأتحمل مشاق البحث ومشكلاته وتكاليف الطبع والنشر ، إلا رغبة في إزالة الغبار الذي مازال عالقاً بتاريخنا القديم ، والشكوك التي نشرتها بحوث تعمّد أصحابها بعث الشكوك في تاريخنا ، وتورطت فيها بحوث لا يضمر أصحابها شراً لتاريخنا ، فوفّق جهدهم في بعض المسائل ، وأخطأه التوفيق في غيرها »[1] .

---

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٨٣ .

ذلك هو الهدف : الهدف من كتابة تاريخ العرب ، كما أوضحه أمين مدني ، فهو ـ إذن ـ لم يكتب التاريخ العربي لذات التاريخ ، وإنما كتبه دفاعاً عن أمته ، وتجلية للصورة التي مازال الخصوم يصبون التراب عليها . . كتب أمين مدني تاريخ أمته تعبيراً عن ولاء راسخ ، استحال مع الخطو ضرباً من ضروب العشق الآسر .

ويؤكد المؤرخ العاشق لماضي أمته هذا المعنى في موضع آخر من كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، ليقول : « ولم يسلم التاريخ العربي من الدعاوى المغرضة ، فكانت الشعوبية في العصر الاسلامي أكثر دساً وتشويهاً لحقيقة التاريخ الجاهلي ، فقد كان بين الشعوبيين علماء نابغون وشعراء مجيدون ، اندسوا في صفوف العرب ، ودسوا في تاريخهم الشيء الكثير . . ولم تكن خصومة المسيحيين الذين أعلنوا الحرب الصليبية على العرب والاسلام بأقل خطراً من الشعوبية ، فما فتئت كتابات المستشرقين عن الاسلام والتاريخ العربي ، تسير وراء الدعاية التي شنتها القسطنطينية لإثارة الحماس الصليبي ضد العرب والمسلمين . وأخيراً الاستعمار الحديث . والاستعمار الحديث قام على حطام الحقائق ، فلم يدّخر جهداً في تبرير الاستعمار والوصاية والانتداب . هذه الأقنعة التي تقنعت بها مطامع الغرب في الشرق ، فبرز وجه الاستعمار ، بعد أن انجلى غبار الحرب ، التي شهدتها سورية والعراق ومصر والجزائر ، ومراكش ، وكل بلد عربي غُلب على أمره ، ولم ينفعه وقوفه بجانب الحلفاء يبذل النفس والنفيس »[١] .

●●●

والذي يلفت انتباه قارىء ( العرب في أحقاب التاريخ )[٢]، أن حرص المؤلف على إبراز هدفه من ( التأريخ ) جعله يلح على هذا الهدف ، ويكرره في غير موضع من كتبه الثلاثة . كما أن حديثه عن خصوم العرب ـ الذين أخذ على عاتقه رد مزاعمهم ، لم ينصرف الى الخصوم في العصر الحديث وحده ، بل شمل القدامى والمحدثين ، فهو ـ كما نلاحظ في النص المتقدم ـ يجمع في قَرَنٍ واحدٍ الشعوبية والصليبية قديماً ، والاستشراق والاستعمار في العصر الحديث .

وإنه مما يستلفت القارىء في مؤلفات أمين مدني التاريخية ، ذلك الارتباط الوجداني الوثيق بالأمة العربية ، وتطلعه الدائم الدائب إلى تحررها ونهضتها ، وهو لا يفتأ في كتابته تاريخها القديم أن يعبر عن تلك المشاعر المتوهجة ، ممزوجة بالطموح والأحزان والآمال ، وكثيراً ما تستدرجه تلك المشاعر إلى شيء من الاستطراد بين الحين والحين . ففي موضع حديثه عن ميناء « عدن » مثلاً يقول :

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ص ٣٠-٣١ .

(٢) وهي : التاريخ العربي وبدايته ـ التاريخ العربي ومصادره ـ التاريخ العربي وجغرافيته .

« ولقد مرّت بعدن فترة ركود بعد أن اكتُشف « رأس الرجاء الصالح » ، وقبل أن تفتح « قناة السويس » ، مثل فترة الركود التي تعانيها عدن بعد أن أُغلقت قناة السويس ، وعندما كنتُ أحرر هذا البحث تمنيت ألا يتم طبع هذا الجزء من الكتاب إلا بعد أن تعود قناة السويس إلى ما كانت عليه قبل الاحتلال الصهيوني ، فتحققت الأمنية ـ والحمد لله ـ فاستعاد العرب الضفة الشرقية من اليهود بقوة السلاح ، وعادت الملاحة إلى القناة قبل أن أعود إلى هذا الجزء وأنقحه وأقدمه للطبع . ولقد مررت بعدن في عهد الاحتلال الانجليزي في عودتي من رحلتي إلى الهند وبورما وأفغانستان سنة ١٣٥٧هـ الموافق سنة ١٩٣٧م ، وعهد الاحتلال الانجليزي بدأ في سنة ١٢٥٣هـ الموافق سنة ١٨٣٩م حيث احتلها الانجليز وعقدوا معاهدة مع سلطانها ـ سلطان لحج ـ وبهذه المعاهدة قيد الانجليز عدن بنفوذهم وبعد هذه المعاهدة ألحقها الانجليز بحكومة بمباي . . . »[١] ثم يظل الرجل يصف لنا مشاهداته في عدن ، في نغمة آسية حزينة[٢] .

هكذا يستطرد أمين مدني من الماضي البعيد ، إلى الحاضر الماثل ، ومع أن هذا الاستطراد خروج واضح على المنهج العلمي في البحث ، وهو المنهج الذي حرص عليه أمين مدني بشكل دقيق ، كما أسلفنا ، نقول : بالرغم من ذلك ، فإن الاستطراد على نحو ما مضى لا يخفي دلالة هامة ، تكمن وراءها دوافع أمين مدني إلى كتابة تاريخ أمته العربية ، وهو هيامه بأمته ماضياً وحاضراً ، وحمله لكل أعباء همومها ، كاتباً للتاريخ ورحالة عبر بلدانها وبقاعها . من هنا يظل خيط الحب يربط بين كل مراحل الرؤية والرصد والمشاهدة ، ويصبح الزمان من خلال الرؤى العاشقة المهمومة ، بُعداً واحداً ، يتجاوز كل الفروق بين الماضي والحاضر والمستقبل . كما يتحول « التاريخ » إلى سفر كبير ، تحتشد وراء تحريره غايات وأهداف ، وليس مجرد لافتة للإعلان عن الذات .

●●●

أما دفاع أمين مدني عن أمته العربية ، فلم يتوقف عند عتبات العصر الإسلامي ، بل ضربَ بعيداً في أعماق الزمن السحيق ، حيث التاريخ العربي قبل الإسلام ، فراح يجلي صفحات هذا التاريخ : يثبت عراقته ، ويدلّل بكل دليل علمي أتيح له ، على أن العرب ـ ومنذ أبعد عصور التاريخ ـ كانوا صنّاع الحضارة ، بل يذهب الى ما هو أبعد من مجرد صنع الحضارة إلى ( السبق والريادة ) ، بل وإلى ( الابتكار والتفرد ) . وقد تبنى أمين مدني هذه الأفكار وجلّاها في كتابه : ( التاريخ العربي وبدايته ) ، حين راح يعقد فصولاً كاملة عن :

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٣١٨-٣١٩ .
(٢) نفسه ص ٣١٩ .

( قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته ) ، أثبت فيها أن قلب البلاد العربية وجنوبيَّها : « كانا أسبق إلى الحضارة من العراق ومصر »[1]، وأن العرب قد زرعوا الحبوب ، واستخدموا الحيوانات المستأنسة[2]، وهاتان تمثلان الخطوة الأولى فى طريق الحضارة .

هذا إلى أن السّومريين كانوا يستخدمون النُّحاس والأخشاب ويستوردونهما من بلاد العرب[3]، منذ أقدم عصور التاريخ ، وهاتان المادتان تشكلان عنصرين أساسيين في بناء الحضارات المادية .

كذلك ينقل المؤرخ عن المؤرخين العرب القدماء ما ذكروه عن طبيعة أرض قلب الجزيرة العربية قديماً ، حيث انسابت فيها الأنهار ، وعن خصوبة أرض الحجاز ، التي قال المؤرخون عنها : إنها كانت أكثر بلاد الله أشجاراً وماءً[4].

وإذا كان الجفاف اليوم قد أصاب أرض الحجاز ، الذي كان من أشجر بلاد الله وأخصبها ، فلقد أجمع الجيولوجيون على أن الجفاف حدث طبيعي أصاب الحجاز مثلما نراه اليوم ، يصيب بعض المناطق في إفريقيا ، ويصيبها بالقحط ، وينذرها بمستقبل مجدب[5].

ويمضي أمين مدني بهذه الفكرة ، فيلتمس لصحتها أقوال المؤرخين ونظريات الجيولوجيين في وجود المعادن المتنوعة ، وكثرة المياه الجوفية ، وما بقي - حتى الآن - من خصب مناطق السَّراة ذات الأمطار شبه الموسمية[6].

كما يؤكد أن الحجاز قد عرف التجارة من عهوده القديمة ، كما عرفت جبال « الحجاز - السراة » التعدين منذ أقدم العصور ، وينقل عن جواد علي في كتابه ( العرب قبل الإسلام ) الكثير من النصوص الدالة على ذلك ، كما ينقل مثل ذلك عن ( معجم ما استعجم ) للبكري[7].

●●●

وإذا كان أمين مدني قد تبنّى في كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) فكرة ( ريادة العرب وعراقة حضارتهم ) ، فإنه في كتابه : ( التاريخ العربي وجغرافيته ) ما يزال يتبنّى هذه الفكرة ، ويستقصي حضارة العرب في أماكن شتى من الجزيرة العربية ، حتى لتكاد فكرة ( عراقة الحضارة العربية ) بكل محاورها ، والتي صاحبته في كتابه ( التاريخ العربي

---

(١) التاريخ العربي وبدايته : ص ٥٥ .
(٢) وانظر المرجع السابق .
(٣) نفسه .
(٤) التاريخ العربي وبدايته ص ٥٦ .
(٥) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٦٨ .
(٦) نفسه .
(٧) نفسه ص ١٧٢ .

وبدايته ) ، نقول : تكاد هذه الفكرة أن تصاحبه بكل رسومها ومحاورها في كتابه ( التاريخ العربي وجغرافيته ) .

وإذا كان ثمة فارق بين الكتابين : فإن الكتاب الأول يجعل الظاهرة الحضارية أساس الدراسة والبحث ، فيستقصي دلائلها وجوانبها عبر التاريخ في بقاع متباينة من جزيرة العرب ، بينما نجده في الكتاب الثاني ، يجعل الأماكن والبلدان في الجزيرة هي الأساس في بحث ظاهرة ( الحضارة العربية وعراقتها ) ، فهو يرسم الحدود الجغرافية لكل صقع من أصقاع الجزيرة في القديم . منبِّهاً قراءه إلى الفروق بين التحديد الجغرافي قديماً ، والحدود السياسية في العصر الحديث ، ثم يُتْبِعُ ذلك بكشف مستفيض لحضارة العرب في أبعادها وشياتها ، مستدلاً بالحقائق ، مسترشداً بالمصادر ، وما أكثرها كماً وتنوّعاً في أبحاث أمين مدني ، كما أسلفنا الحديث .

ولنحاول ـ بعد هذا التقديم ـ أن نمثّل لتلك الحقيقة :

في موضع دراسته الجغرافيا التاريخية لليمن ـ مثلاً ـ يقول : « ونشاط اليمن الحميري السياسي كان على مستوى دولي عالمي بالنسبة لنفوذ التبابعة ، الذي تحدّث عنه المؤرخون المتقدمون أحاديث اعتبرتْ الكثرةُ من المحققين في الوقت الحاضر بعضها أو أكثرها ضرباً من المبالغة . ونشاط على مثل ذلك المستوى لابدّ له من اقتصاد يسنده . واقتصاد اليمن ـ في تاريخه القديم ـ كان مدعّماً بما في بطن الأرض من معادن ، وبما على ظهرها من حقول ، وبما في فيافيها من طرق تجارية ، وبما في سواحلها من موانىء عالمية . فهذه الثروة الطبيعية التي أحسن اليمنيون القدامى استغلالها هي التي كفلت لهم نفقات جيوش كتبت عنها الأساطير ، وهي التي شيدت قصوراً اعتُبِرت رمزاً للحضارة مثل قصر غمدان ، وقصر سلحين ، وصرواح في مأرب »(١) .

وفي بحث آخر عن ( الحجاز ـ السّراة ) يسطّر لنا دراسة حضارية طريفة حقاً في ( مواسم العرب وأسواقها العامة ) ، فيستعرض لنا أسواق : عكاظ ، وذو المجاز ، ومجنّة ، ثم يتوقف طويلاً عند ( سوق عكاظ ) ، فيخصّها بحديث مطول ، يحاول به أن يحدّدها جغرافياً وتاريخياً .

أما بحثه بعنوان « مصر العمليقية العربية ـ القسم السابع من أجزاء الجزيرة العربية » ، فإنه وقد حشد الأدلة لإثبات عروبة مصر ، وإلحاق جزءٍ كبير منها بالجزيرة العربية ، قد حاول أيضاً حشد الأدلة على أن حضارة مصر القديمة ، أو مصر العمليقية كما سمّاها ، قد تشكلت من تأثيرات ساميَّة قادمةٍ من داخل جزيرة العرب . ومن هنا كان سكانُ الدلتا ـ في

---

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٣٣٣ .

مصر - أسبق إلى الحضارة من سكان الجنوب ، وأن الصحراء العربية في مصر قد عمرّها العرب منذ أقدم العصور[1] .

الظاهرة الحضارية - إذن - هي شغل أمين مدني الشاغل ، أو لنقل - على نحو أدق - إن ( ريادة العرب الحضارية ) كانت أهم ما يشغله ، حتى ينفي عن أمة العرب دعاوى اتهامها بالبداوةالتي أقصتها بعيداً عن ركب التاريخ الانساني الحضاري في أحقابه المتتابعة .

وإذا كان من فارقٍ بين كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) وكتاب ( التاريخ العربي وجغرافيته ) ، فهو - كما أسلفنا - الفارق في تناول ريادة العرب الحضارية : فهو في الكتاب الأول يستقصي هذه الريادة عبر الحقب والعصور ، بينما في الثاني يعالجها عبر البقاعِ والأصقاع . ولكنه في الحالين يكرّس جهده للتدليل على عمق الحضارة العربية وجودا وتأثيراً .

* * *

(١) انظر : التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٥٣ .

# الفصـل الثانـي

## دفاعه عن الثقافة العربية

الثقافة التي نعنيها ـ في حدود أبحاث أمين مدني ـ هي ذلك المزيج المنوع من اللغة والأدب وعلوم الدين والتاريخ والجغرافيا والفنون المختلفة ، ومنها فن الموسيقى والغناء .

وقد أرّخ ـ رحمه الله ـ للثقافة العربية في عصر ما قبل الإسلام ، وفي عصور الإسلام المتعاقبة . ففي العصر الجاهلي أرّخ للغة العربية والشعر العربي .

وفي العصور الإسلامية أرّخ للعلوم العربية والإسلامية ، كما أرّخ لحواضر الثقافة الإسلامية . وقد عالج في كتاب ( التاريخ العربي ومصادره ) العديد من موضوعات الثقافة العربية الإسلامية ، مثل :

التدوين ـ والمدونات في صدر الإسلام ـ المؤرخون العرب ورواياتهم ـ مسالك رواد التاريخ ومناهجهم ـ جغرافيو العرب ورحّالتهم ـ التفسير والمغازي والأنساب ـ نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب .

وكان شغله الشاغل في هذا الكتاب ـ وهو التاريخ العربي ومصادره ـ هو إبراز عناية العرب بالثقافة التاريخية وعنايتهم بتوثيق المادة التاريخية ، ونقد المصادر .

أما كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، فقد عالج قضية الثقافة العربية ، منذ أبعد العصور الجاهلية : وفي مقدمة الظواهر الثقافية التي عني بها قضية اللغة العربية ، وما يتصل بقضية اللغة من أدب وتدوين وخط ، كما عالج موضوع الأديان والعقائد في الجزيرة العربية منذ أقدم عصور التاريخ .

وهنا نشير الى حقيقة هامة ، تتصل بالبحث الحضاري عن أمين مدني ، فهو يعدّ الدين أساس الثقافة ونواتها ، إذ يقرر صراحة أن ( الأديان هي نواة الثقافة ، وأن[2] « الأديان هي البداية للنضج العقلي ، فالإيمان بالله نتيجة الاعتراف بقدرته ، والاعتراف بقدرة الله لا يتبلور إلا بعد فهم وإدراك »[3] .

إن المنظور الديني ـ إذن ـ هو أساس حركة التاريخ ـ عند أمين مدني ـ وهو ـ أيضاً ـ أساس البحث التاريخي لديه . وقد دار هذا الأساس دوراناً كاملاً في أبحاثه التاريخية ، حتى وهو يؤرخ للثقافة العربية والحضارة العربية قبل الإسلام ، ومن هنا كنا نعد ( المنظور الديني ) أحد المرتكزات الفكرية في منهج البحث التاريخي عند أمين مدني ، ولسوف نعود إلى هذا المرتكز بدراسة مستقلةٍ مفصّلة .

---

(١) انظر التاريخ العربي ومصادره ص ١١٩ ، ٢٦٧ ، ٢٨٩ ، ٣٣٩ ، ٤٨٣ .

(٢) الثقافة الإسلامية وحواضرها ، ص ١٦ .

(٣) نفسه .

أما الجوانب الثقافية التي عالجها أمين مدني ، فمن أهمها ما يلي :

أ ـ قضية تدوين العرب لثقافتهم .

ب ـ قضية عراقة اللغة العربية .

ج ـ قضية عراقة الشعر العربي .

ونحاول ـ فيما يلي ـ أن نتناول كل قضية منها ببحث مستقل .

●●●

## أ ـ قضية تدوين العرب لثقافتهم :

وقد اقتضاه البحث أن يتتبع التدوين في جذوره الأساسية ، وهي ( الخطوط ) ، إذ يتناول تاريخ الخطوط التي دُوِّنت بها اللغة العربية وأبجديتها ، ويستعرض كافة الآراء التي أبداها باحثون متخصصون ، ثم ينتهي الى نتيجة مؤداها : « أن الأبجدية الأم هي أبجدية مهد الساميين ـ الجزيرة العربية ـ الأبجدية التي تنتمي اليها أبجدية الكنعانيين التي عاصرت الأبجديتين الصوريتين ؛ السّومرية والفرعونية ، والتي صانها الكنعانيون عما أصاب أبجدية البابليين في العراق »[1] .

وبدهي أن ( أبجدية الساميين ) ، التي عدّها أمين مدني أساس سائر الأبجديات ، هي الأبجدية العربية ، وقد تفرعت عنها أبجديات السومريين والفراعنة والكنعانيين والبابليين ، حسب رأيه .

وقد تناول أمين مدني ـ بالبحث المستقصي ـ الخط البابلي الآشوري[2]، والكنعاني الفينيقي[3]، وخط المسند وأبجديته[4]، والخط الإرمي[5]، والخطوط اللحيانية والثمورية والصفوية[6]، ثم العبرية والجعزيّة وخطها[7]، ثم الخطوط : التدمري والنبطي والسرياني ، وأخيراً : الخط القرشي ، أي الخط العربي المعروف لدينا الآن .

وخلاصة ما انتهى إليه أمين مدني من نتائج نجمله فيما يلي :

١ ـ شهدت جزيرة العرب منذ أقدم عصورها العديد من الخطوط التي تصارعت في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية ، وقد دلت الكشوف الأثرية والنقوش على تلك الحقيقة .

---

(١) التاريخ العربي وبدايته

(٢) نفسه.

(٣) نفسه

(٤) نفسه

(٥) نفسه

(٦) نفسه

(٧) نفسه

٢ ـ انتهى هذا الصراع بظهور ما سُميّ بالخط الحيري « فيه الكثير الغالب من قواعد الخط النبطي »[١] وغيره .

٣ ـ شهد الحجاز ـ مثل سائر مناطق الجزيرة ـ صراعاً بين الخطوط انتهى إلى ظهور ما عُرف بالخط القرشي . وقد أثبتت تحقيقات المتأخرين ـ مستشرقين وأثريين ومؤرخين ـ « أن السِّمة الإرْمية النَّبطية طغت على شكله وتغلّبت خصائصها على غيرها ، مما جعل الأغلبية من الباحثين ينسبون الخط القرشي إلى الخط النبطي »[٢]، فليس الخط القرشي ـ أي العربي المتداول بيننا ـ إلا تشكيلاً من خطوط عديدة ، لكن أكثرها تأثيراً هو الخط النبطي .

٤ ـ كانت ( الحيرة ) مجالاً واسعاً للخطوط . وأرجح الآراء أنها هي التي احتضنت اللغة العربية وخطوطها وآدابها[٣]، وأن بعضاً من قريش كانوا يبعثون أبناءهم لتعلم الكتابة في الحيرة[٤]، وعلى هذا فالراجح أنها مصدر الخط القرشي .

٥ ـ على أن ذلك كله لا يعني ـ قط ـ جهل أهل مكة والطائف من قريش وثقيف بالقراءة والكتابة ، فقد أثبتت الأبحاث أن « المنطقة التي تمتد من شمال الحجاز ونجد جنوباً إلى سواد العراق شرقاً وإلى فلسطين وأرض مدين غرباً ـ كانت ملتقى ثقافات عربية تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب » ، بل يذهب الباحث إلى أن الحجاز وهضاب نجد كانت أصلح موطن لصون الأصل لكل الخطوط القديمة .

٦ ـ أن تعدُّد الخطوط في الحجاز ، واختلاط أكثرها بما هو غير عربي ، هو الذي دفع القرشيين ـ آخر الأمر ـ إلى أن يفكروا في توحيد الخطوط بعد أن تعددت . على أن الروايات العربية المختلفة في أصل هذا الخط القرشي ، وكيف نشأ تدلنا على مبلغ اهتمام العرب بموضوع الخطوط وتوحيدها .

●●●

أما فكرة التدوين ـ وقد ناقشها أمين مدني في كتابٍ آخر هو : «التاريخ العربي ومصادره» ، فإنه قد اقتصر منها على ( صدر الإسلام ) ، دون ما قبل الإسلام ، وقد دحض المزاعم التي استبعدت تدوين المسلمين ثقافتهم في صدر الإسلام بعامة ، وفي عصر النبوة بخاصة ، ووَفَّق ـ دون تكلف أو تعسف ـ بين النصوص المتعارضة الظاهر ، بين تأييد لفكرة التدوين وإبطالٍ لها ، وبخاصة ( تدوين الحديث النبوي ) ، وأثبت أن الأمر لا يعدو نوعاً من الرقابة على المدونات ، خشية أن تعم الفوضى ، وتثور الشبهات .

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٢١٨ .

(٢) نفسه ص ٢١٩ .

(٣) نفسه ص ٢٢٠ .

(٤) نفسه ص ٢٢١

كما أثبت ـ رحمه الله ـ أن المسلمين منذ الصدر الأول قد دوَّنوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دوّنوا السِّير والمغازي والشعر العربي ، حيث أمر كبار الصحابة بتدوينه ، ومن ذلك مقولة عمر بن الخطاب : « عليكم بديوانكم لا تضلّوا . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية » .

●●●

ولنا ـ بعدُ ـ جملة من الملاحظات : منها أن أمين مدني قد تناول موضوع ( الخطوط في الجزيرة العربية ) ومواطنها وخصائصها وتطورها ، وحركة الصراع فيما بينها ، حتى انتهى الأمر إلى ما أطلق عليه ( الخط القرشي ) ، وبحثه في هذا الجانب بحث مستوفٍ سواء من حيث المادة والمصادر ، أم من حيث المناقشة المتروّية . ومع أن الخطوط والكتابة ، قيمة ثقافية وحضارية ، ومع أن أمين مدني قد أثبت عراقة الخطوط والكتابة عند العرب ، إلا أنه أغفل تماماً ربط هذه الظاهرة الثقافية الهامة بحركة تدوين الأدب ـ قبل الإسلام ـ وبخاصة ( الشعر العربي ) ، مع أنه أفرد فصلاً تاماً عن عراقة الشعر العربي ، لم يتعرض فيه ـ قط ـ لفكرة تدوين الشعر .

وأما المبحث الخاص بالتدوين في صدر الإسلام ، فقد ظل مقصوراً على هذه الحقيقة . ومع الإقرار بأهمية مبحث التدوين فيها فقد كان من الواجب تناوله في عصر ما قبل الإسلام ، وهو لا يقل أهمية عن صدر الإسلام ، وبخاصة في الشعر العربي ، الذي اعتبر أساساً مُهماً للعلوم المختلفة التي نشأت فيما بعد لخدمة القرآن والسنة .

## ب ـ قضية عراقة اللغة العربية :

أرّخ أمين مدني ـ رحمه الله ـ للغة العربية ، وما يتصل بها من خط وأدب . ونقرر هنا أنه يعتبر اللغة العربية هي الأصل والأم لسائر مجموعات اللغات السامية ، إذ الجزيرة العربية هي مهد الساميين ، واللسان العربي هو الأصل للغات الساميين .

من أجل هذا فقد راح يستقصي آراء المستشرقين خاصة في قضية ( أقدم اللغات السامية ) ، فيورد رأي العالم ( أولهوزن ) ، الذي يقول : « إن العربية هي أقرب لغات الساميين القديمة ، بينما يذهب فريق آخر من المستشرقين إلى أنه من العبث أن يبحث المرء في لغات الساميين عن أقربها إلى السامية الأصيلة ، وإن كان هذا الفريق يرى أن لمجموعة اللغات السامية أمّاً وطنها ( الجزيرة العربية ) ، وأن القرابة قوية جداً بين أبجدية النقوش العربية الجنوبية ، وبين الأبجدية الفينيقية ، وإن ظل الخلاف قائماً حول درجة هذه القرابة ونوعها .

وقد جمع أمين مدني ـ رحمه الله ـ قدراً كبيراً من الآراء ، لعلماء قدماء ومحدثين ، فمن القدماء : ابن جرير الطبري ، وابن سلام والفخر الرازي ، ومن المحدثين جواد علي وجورجي زيدان وإسرائيل ولفنسون ، فضلاً عن نُقول هؤلاء العلماء عن ( أولهوزن ) ، و ( هومل ) ، و ( بريستد ) ، و ( غوستاف لوبون ) ، و ( ديورانت ) . ثم أخضع آراء هؤلاء العلماء جميعاً للمناقشة الهادئة الدقيقة . وانتهى إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي :

١ ـ من الراجح أن اللغة العربية القديمة في قلب الجزيرة العربية هي لغة العرب ، سكان هذه الجزيرة ، وهذه اللغة لم يُشبْها ما شاب لغة أبناء عمومتهم النازحين إلى المناطق المزدحمة بالعناصر غير العربية ، والذين عُرِفوا في البحوث المتأخرة بالساميين .

٢ ـ من الراجح ـ أيضاً ـ أن اللغة العربية هي أم اللغات وأنها اللغة التي كان الساميون يتكلمونها في مهدهم الأول . وفي سبيل الوصول إلى هاتين النتيجتين ، راح المؤرخ يلحّ إلحاحاً شديداً في سبيل الخلوص إليهما ، فهو حيناً يورد النصوص التي تؤكدهما ، وحيناً آخر ، ينقل ما يتعارض مع تلك النتيجة ، لكنه يلحّ عليها بالنقاش الهادىء المتروي ، مفنّداً ، ومقابلاً بين النصوص .

كما أنه يحرص على إبراز جملة من الفرضيات ، تأتي بمثابة مقدمات لهاتين النتيجتين السابقتين . ومن هذه الفرضيات .

١ ـ أن « الأمم السامية هي أمم عربية من عنصر عربي »[١]، وأن « اللغات السامية تفرعت من اللغة العربية »[٢] .

٢ ـ « أن الأمم العربية قبل الإسلام لم تستطع أن تحافظ على قوميتها وعلى لغتها . فكثيرة هي الكوارث التي حطّمت قوميتها ، وكثيرة هي الأزمنة التي طغت فيها على لغتها صفات ولهجات من لغات العناصر التي احتكّت بها في أنهار ومدن الهلال الخصيب ، وفي دلتا النيل والشواطىء العربية . فجعلت كل واحدة منها تكاد تكون مستقلة عن الأخرى ، من حيث الأبجدية ومن حيث النطق ، ومن حيث القواعد والخصائص »[٣] .

٣ ـ « استقصاء الحقائق التاريخية أثبت أن اللغة التي كان يتكلم بها الساميون في مهدهم الأول هي : اللغة السامية الوحيدة ، التي احتفظت بصفاتها الأصيلة ، لأنها عاشت داخل الجزيرة »[٤] . أما قلب الجزيرة العربية فهو « البلد الذي تمتع الساميون فيه بالاستقلال الكامل في كل عصر من عصورهم »[٥] .

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ، ص ١١٣ .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه ص ١١٤ .
(٥) نفسه .

نعود فنؤكد ما سبق أن قررناه ، من أن بحث أمين مدني عن اللغة العربية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنظريته عن ( عراقة الثقافة العربية ) ، وعن ( عراقة الحضارة العربية ) . وفي أوجز عبارة نقول : إن عراقة اللغة العربية مرتبطة بعراقة الثقافة العربية والحضارة العربية .

وهذه حقيقة تؤكدها كل الدلائل ، وإن ظلت لنا جملة من الملاحظات نوجزها فيما يلي :

أولاً : لقد سار الباحث في موضوع ( اللغة العربية ) على الضد تماماً من بحثه عن ( الخطوط العربية ) ، ففي بحث اللغة ذهب إلى أن العربية أصل تفرعت عنه سائر اللغات في جزيرة العرب مثل : العدنانية ، والبابلية ، والآشورية ، والكنعانية ، والإرمية وأخواتها في الشمال ، ومثل المعينية وأخواتها الجنوبية ، وكذلك الثمودية وأخواتها اللحيانية والصفوية والتومرية والنبطية .

أما في بحث ( الخطوط العربية ) ، فقد ذهب إلى عكس ذلك ، وهي أنها تصارعت فيما بينها ، وخضعت لعوامل سياسية وجغرافية انتهت بها إلى ذوبانها جميعاً في هذا ( الخط العربي ) ، الذي أطلق عليه أمين مدني اسم ( الخط القرشي ) .

فلماذا لا تكون العربية التي اتخذها الإسلام لغة له ، وسادت قبل ظهوره بنحو ثلاثة قرون على الأقل ، لماذا لا تكون هي الأخرى قد تمخضت عن صراعات وعوامل أدت إلى ظهورها ، وعلى هذا فهي ليست أصلاً للغات ، بل هي قد تشكلت عن هذه اللغات ، وحملت خصائصها .

ثانياً : إن القول بعراقة اللغة العربية أمر تثبته كل الدلائل ، فقد وصلت إلى الإسلام وقد اكتملت ونضجت في أبجديتها وقواعد كتابتها ، ومفرداتها الثرية الواسعة ، وسائر خصائصها في النحو والتصريف والاشتقاق والتعريب وغيرها ، هذا فضلاً عن تراثها الزاخر العظيم من شعر بلغ الغاية في انضباط موازينه وقوافيه ، ونثر منوع من خطب وأمثال وحكم وقصص . أفلا يكون القول بعراقة العربية أجدر من القول بكونها الأصل والأساس لسائر لغات العرب القديمة ؟ خصوصاً إن قامت على العراقة كل الشواهد ، بينما لم نجد على ( نظرية الأصل لسائر اللغات ) قرينة مقنعة . وإنما قصارى ما هنالك لا يعدو مجرد الظن والافتراض ، وهو ما يتضح من بحث أمين مدني ، ومن محاولاته التي أجهد بها نفسه وقارئه إلى حد بعيد .

ثالثاً : أن البحث في البدايات الأولى لظواهر الثقافة والحضارة من دين ولغة وكتابة وتقاليد وغيرها ، بحث مبني على لونٍ من النشاط الذهني المجرد ، قد يمتعنا ، ولكنه لا يصل بنا إلى قرار حاسم . وهو ما نراه ماثلاً واضحاً في بحث مؤرخنا ، وفيما أشار إليه من آراء الباحثين ، وما نقله من نصوصهم .

إن دراسات أمين مدني ـ رحمه الله ـ جدّت واجتهدت في البحث عن الأولويات والبدايات للغات والديانات والآداب ، وهي تمتعنا وتثيرنا ، وتطلعنا على أنماطٍ مثيرة من

الجهد العقلي وأساليب الطرّح والمناقشة والاستنباط والاستدلال ، وتفنيد النصوص ، والمقابلة بين الآراء ، فضلاً عن غزارة المادة العلمية ، لكن تظل نتائجها - برغم ذلك كله - في دائرة الظن والاحتمال لا تتعدّاها .

رابعاً : طبيعة المصادر التي رجع إليها ليست في عمومها مصادر مباشرة في البحث اللغوي ، وحتى المباشر منها غير كافٍ ، أو هو لم يُعدْ كذلك ، ويبدو أن المدارس الحديثة - في البحث اللغوي ، لم تكن مؤلفاتها متاحة للمؤرخ حين كتب ما كتب .

●●●

## ج - قضية عراقة الشعر العربي :

عالج أمين مدني هذه القضية في غير موضعٍ من موسوعته ( العرب في أحقاب التاريخ ) . ففي ( التاريخ العربي وبدايته ) عقد بحثاً تاماً بعنوان (التاريخ العربي ومصادره) أوقف فصلاً كاملاً على ( الشعر العربي عريق مثل لغته )[1]، وفي ( الشعر العربي وصلته بالتاريخ )[2]، كما عقد مبحثاً عن ( سوق عكاظ )[3] في كتابه ( التاريخ العربي وجغرافيته ) غير أن بحثه عن ( عكاظ ) ، يُعدُّ بحثاً تاريخياً جغرافياً محضاً ، صرف جهده فيه إلى تحديد الموضع ، وتاريخ إلغاء هذه السوق وتوقف نشاطها الأدبي ، ولم يتتبع نشاطها الثقافي في مواسم العرب .

وخلاصة رأيه في ( عراقة الشعر العربي ) نجملها فيما يلي :

١ - لا نستكثر على البلد الذي أذّن فيه إبراهيم بالحج ، فلبّاه الناس من كل فج ؛ أن يكون ملتقى الثقافات التي وصلت إليها شعوب الشرق العربي في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد[4].

٢ - لا نستبعد « أن يكون العرب هم الذين نقلوا إلى أرض الرافدين ودلتا النيل الشعر . . فما من شك في صلة العماليق والإرميين الذين نشأوا في قلب الجزيرة العربية بسكان العراق ومصر وسورية »[5].

---

(١) ص ٢٣١ وما بعدها .
(٢) ص ١٦٣ وما بعدها .
(٣) ص ١٢٣ وما بعدها .
(٤) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٢٣١ .
(٥) نفسه ص ٢٣٢ .

٣ ـ لا نستبعد « أن يكون العرب قد عرفوا الشعر من عهد : عاد وجرهم وجديس ، وميزوه عن غيره من الشعر في مصر وفي العراق في عصور ما قبل التاريخ بهذه الأوزان وهذه القوافي ، وأضفوا عليه البلاغة الخلّابة ، والبيان الساحر ، بفضل ما يملكون من لغة واسعة مرنة ، وبيئة شاعرية مشرقة »[١] .

٤ ـ أن الحجاز كان الموطن الأول للشعر العربي ، كما أنه موطن اللغة التي كتب بها ذلك الشعر .

●●●

على أن نظرية أمين مدني عن ( عراقة الشعر العربي ) ، تقوم على مرتكزات أساسية كان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد التحمس لها ، فمن تلك المرتكزات ، رأيه عن عراقة الثقافة العربية والحضارة العربية ، وهي عراقة وصل بها إلى أبعد الحدود ، كما لاحظنا عن بحثه بشأن ( عراقة اللغة العربية ) ، وكما سوف نلاحظ عن بحثه بشأن ( عراقة الديانات في الجزيرة ) . وحرصه على الوصول بهذه العراقة إلى دائرة ( السبق المطلق ) . كذلك من المرتكزات الأساسية في بحوثه عن عراقة ( الشعر العربي ) موقفه من نظرية الإسلاميين عن ( الشعوب البائدة ) .

ذلك أن أمثال الطبري وابن إسحاق لا يرون زوال كل آثار عادٍ وثمود وجرهم ، ممن سموا بالشعوب البائدة ، استناداً إلى قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادًا الأولى وثمود فما أبقى ﴾ ( النجم آية ٥١ ) بينما ابن سلام الجمحي صاحب نظرية الانتحال يرى أن الإبادة المقصودة في الآية الكريمة ، هي إبادة تامة ، وأنه قد ترتب عليها زوال كل آثار هذه الشعوب البائدة ، بما فيها آدابها . ويترتب على هذين الرأيين المعارضين ، أن أمثال الطبري وابن إسحاق قد رووا في كتبهم أشعاراً منسوبة إلى الشعوب البائدة ، بينما أنكر ابن سلام هذه الأشعار ، وعدّها من الزائف المنحول ، الذي وضعته الرواة ، وانتقد ابن إسحاق صاحب السيرة ، واتهمه بأنه « ممن أفسد الشعر وهجّنه ، وحمل كل غثاءٍ منه » .

أما موقف أمين مدني ، فإنه مع الفريق الذي يرى بأن إبادة هذه الشعوب ، لا يعني الزوال الكلي التام لكل آثارها مستدلاً بقول الله تعالى بشأن هود وأتباعه : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذّبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾* ( الأعراف آية ٧٢ ) .

وقد ترتب على موقف ( أمين مدني ) انتقاده لابن سلام ، وتأييده ابن اسحاق فيما أورده من أشعار نسبها إلى عاد وثمود ، وإن لم يستطع أن يعلن تأييده التام لهذه الأشعار ، التي طعن

---

( ١ ) نفسه ص ٢٣٣ .

* يقصد أمين مدني من استدلاله بالآية الكريمة ، أن الكفار فقط هم الذين لم يبق لهم باقية ، أما هود والذين آمنوا معه فقد أنجاهم الله ، و بقيت معهم آثارهم . فالإبادة لا تنصرف إليهم إذن .

في صحتها ابن سلام . كما أن أمين مدني ـ رحمه الله ـ قد اتهم ابن سلام بالحرص على « الانتصار لرأيه الشخصي » .

يقول أمين مدني : « ونقد الجمحي كما تراه فيه شيء من الصحة وفيه مجرد الانتصار لرأيه الشخصي ، فالصحيح في هذا النقد : الشك الذي يحوم حول الاعتقاد بأن هذا الشعر نفسه قد قيل في عصري عاد وثمود ، وإن كان هناك فرق في جودة الشعر بين المنسوب إلى عادٍ والمنسوب إلى ثمود ، فالشعر العادي أفصح وأقوى ، مما يدل على أن الناظم ليس هو شخصاً واحداً ، فإن شعراً تتناقله الأجيال قرناً بعد قرن روايةً لا يمكن أن يحافظ على أصله ، وأن هذا الشعر بالذات لا يستبعد أن يكون من وضع القصاص »[1] .

وبقدر هجوم أمين مدني على ابن سلاّم ، كان دفاعه عن ابن إسحاق وتوثيقه ، فهو يرد ـ بشأن ابن إسحاق ـ مقولة الزهري إمام أهل الحديث وعالم الحجاز والشام : « لا يزال في الناس علم ما بقي مولى آل مخرمة » ، يعني بذلك ابن إسحاق .

ويظل مؤرخنا ـ رحمه الله ـ يتعقب ابن سلام وينقض رأيه ، ثم ينتهي إلى قوله : « وهكذا نجد رأي الذين لا يصدقون بأن الشعر عرف من عهد عاد غير مستقر على أدلة مقنعة غير الشك في أن يكون هذا الشعر ، الذي رواه ابن إسحاق هو نفس الشعر الذي قاله الشاعر العادي والشاعر الثمودي . وهذا الشك يشترك فيه أكثر من اعتقد بأن الشعر عرف من عهد عاد »[2] .

« ونحن هنا مع الأكثرية التي لا تنكر الشعر على العرب البائدة ، ولكنها تستبعد أن يكون هذا الشعر نفسه نظم في عهد عاد ، وكذلك نحن مع الذين لا يستكثرون اللغة العربية على العرب البائدة »[3] .

● ● ●

والحق أن فكرة عراقة الشعر العربي وعراقة لغته فكرة جليلة ، وقد مضى بها أمين مدني ، يثبتها ويؤكدها دفاعاً عن أصالة الثقافة العربية التي أنكرها الشعوبيون في القديم والحديث . ولعل الدراسات التاريخية عن التاريخ العربي ، والتي كتبها معاصرون لم تجد من يدفع هذه التهم عن العرب وثقافتهم ، بمثل هذه الإفاضة والجهد والصدق الذي تذرع بها أمين مدني ، وهو يؤرخ للثقافة العربية ، ويرى عراقتها ، وامتداد جذورها بعيداً في أعماق التاريخ الإنساني »[4] .

غير أن التحمس البالغ للفكرة ، والاندفاع في إثرها ، قد شاب بحثها وتأييدها شيء من التجاوز .

---

(١ ، ٢) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٢٣٦ .
(٣) نفسه ص ، ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .
(٤) نقول هذا وفي الحسبان كتاب العقاد ( الثقافة العربية أسبق من الثقافة العبرانية واليونانية ) .

وقد كان الحق ـ كل الحق ـ معِ ابن سلام الجمحي ، لا مع ابن إسحاق ، فإن الشعر الذي رواه ابن إسحاق شعر منحول بيِّن النحل . ثم إن ابن سلام ـ من جهة أخرى ـ لم يكن بصدد الحديث عن بدايات الشعر العربي وأوليته ، حتى نتهمه بإنكار قدم الشعر وعراقته . فربما لا ينكر ابن سلام وجود شعر فِي الأمم البائدة ، وإن أنكر أن يكون قد صدر عنها مثل هذا الشعر الليّن الضعيف ، فضلاً عن أن يصل إلينا عبر هذه الأزمان السحيقة . إن ابن سلّام كان معنياً أشدّ العناية بتوثيق الشعر العربي ، ونقد ما وصل إلينا نقداً تاريخياً أساسه التحقيق العلمي ، وتمييز صحيحه من زائفه . وكانت مقدمته الشهيرة أهم ما عرفته الدراسات النقدية في مجال التوثيق ودراسة نظرية الانتحال .

أما ابن إسحاق ، الذي هاجمه ابن سلام ، ودافع عنه أمين مدني ، فالأمر بالنسبة إليه ذو جانبين : إذ هو مخطىء ومعذور في خطئه : فأما خطؤه ، فلأنه نسب هذه الأشعار إلى عادٍ وثمود ، وهي منحولة لا شك في نحلها . وأما وجه العذر ، فلأن مثل هذه الأشعار ، كانت ـ فيما نرى ـ لوناً من التراث الشعبي ، شاعت في المصادر وعلى ألسنة الرواة على أنها لعاد وثمود ، وإن لم يكن المؤرخون وأصحاب كتب السير والمغازي يروونها إلا على أنها من قبيل ( التراث الشعبي المنحول ) لا على أنها لعاد وثمود حقيقةً .

●●●

إننا لا نشك في عراقة الشعر العربي ، كما لا نشك في عراقة العربية وأصالتها وقدم نشأتها وتطورها . غير أن إقرارنا تلك الحقيقة لا يعني ـ قط ـ الذهاب إلى حدّ التحديد الزمني لعصور بعينها ، وإلى حدّ انتقاد آراء أئمة الرواية الشعرية ، وبخاصة ابن سلام ، بعد إذ غدت هذه الآراء ـ بمقاييس الباحثين القدماء والمعاصرين ـ مسلّماتٍ وبدهيات .

من جهة أخرى ، فنحن نوافق أمين مدني ـ رحمه الله ـ في رأيه عن مفهوم ( الأمم البائدة ) ، فهي لا تعني زوال آثارهم ، التي كشفت الحفريات عن شيء منها ، كما نوافق على ما أبداه من القرائن لتأكيد نظريته ، ونسانده ـ أيضا ـ في أن يكون للقوم شعر ، فهذا أمر بدهي ، بداهة أن يكون لهم لغة . غير أن تلك المقدمات التي لا خلاف عليها ، لا تفضي بالحتمية والضرورة إلى أن ما نسبه الرواة إليهم من الشعر صحيح في نسبته .

* * *

# الفصل الثالث

## الدين وتفسير التاريخ

سبق أن أشرنا إلى واحدة من ركائز ( الفكر التاريخي ) لـدى أمين مـدني ، وهي ( الدين ) : الدين من حيث ارتباطه بالثقافة ، ومن حيث كونه محركاً للتاريخ ، ومفسّراً لأحداثه وأطواره ، وعاملاً أساسياً أيضاً في انبثاق الحضارات ونشوئها وتطورها .

يقول رحمه الله : « لم ينتقل الإنسان من طور البدائية ، ويخرج من أحراج الغاب ليسكن أكواخاً تقيه وابل الأمطار وعاصف الرياح وهجمات الضواري إلا بفضل الموهبة التي ميزه الله بها عن غيره من سكان الأرض ألا وهي : العقل - فالعقل هو الذي سار به من مرحلة إلى أخرى إلى أن اتجه به لمعرفة سر الحياة وسر وجوده فيها . فأخذ يبحث عن القوة التي تتحكم في كل ما في الوجود ، القوة التي لا يراها ولكنه يشعر بوجودها في كل شيء ، يشعر بها في الأرض التي تقله ، ويشعر بها في السماء التي تظله ، ويشعر بها في الهواء العليل وفي الجبال الشامخة ، وفي البحر الهادر ، وفي الكواكب اللامعة ، وفي الشمس المشرقة ، بل يشعر بها في نفسه ، في قوته وأحلامه وآماله ، وفي ضعفه ويأسه وآلامه . وما هذا الشعور بتلك القوة التي نظمت هذا الكون العظيم إلا نتيجة التفاعل الحضاري الذي تطور بعقله ، فكان من نتائجه الأولى البحث عن رب هذا الوجود »[1] .

●●●

من هذه الركيزة الأساسية ، ينطلق إلى الفكرة التي أوقف عليها كتاباً كاملاً ، هو كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، الذي حاول فيه إثبات سبق العرب في مجالات الثقافة والحضارة ، وسبقهم إلى الديانات السماوية ، وإلى عقيدة التوحيد المطلق . وعن الدين والتدين في جزيرة العرب ، أجرى العديد من المباحث هي : ( الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ ) ، و ( صراع الأديان جزء مهم في تاريخ جنوبيّ الجزيرة وشرقيها ) ، و ( الأديان في العراق ) ، و ( أعاصير الأديان في سورية لا تقل عن الأعاصير السياسية )[2] .

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٨٧ .
(٢) نفسه ص ٨٥ ، ٣١٩ ، ٣٤٣ ، ٣٥٥ .

والملاحظ أن فكرة ( الدين والتدين ) التي تناولها أمين مدني ـ رحمه الله ـ في كتابه المتقدم ، قد امتد بها إلى عصر ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، ليثبت بها عراقة النزوع الديني في الوجدان العربي ، وفي الأرض العربية قاطبة .

ويبدأ المؤرخ رحلته مع ( الأديان في جزيرة العرب من قبل التاريخ )[١]، منذ عصر ما قبل الطوفان ، حيث يقرر أن الأبحاث الأثرية تؤيد ما ورد من قصص الأنبياء في التوراة والإنجيل ، ثم يعرض لموقف فريق من المستشرقين المنكرين للأنبياء فيقول : « فالمستشرقون في الفصول التي عقدوها للتاريخ العربي القديم لم يخرجوا من صوامع شكوكهم فيما ينسب للتوراة وللإنجيل . وفيما جاء في القصص القرآني وتحدث به المؤرخون القدامى إلا بعد أن ظهرت آثار الماضين من أمم البلاد العربية ، مصدقةً لما بين أيدينا من أسانيد المؤرخين القدامى الذين تحدثوا عن عصر إدريس ونوح وعالم ذلك الماضي البعيد »[٢] .

وتظل فكرة الحضارة وما صاحبها من نضج عقلي مرتبطة في بحث أمين مدني بالدين والتدين عند العرب ، يؤكد ذلك ما ورد في سورة هود من حوارٍ بين نبي الله وقومه ، وهو حوار يدل على مبلغ ما وصلت إليه النبوات من سمو عقلي . ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ، فَعُمِّيتْ عليكم أنُلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾[٣] . ثم يعلق على ما ورد في الآيات الكريمة بقوله : « فهذه الرسالة بهذه الأدلة المنطقية لا توجه إلى مجتمع بدائي لا يزال في طور الأدلة المادية . وهذه الرسالة تدل على أن النكسة لم تنحدر بقوم نوح إلى المستوى الذي انحدر إليه قوم موسى في وادي النيل الذين لم يؤمنوا إلا بالدليل المادي الذي تمثل في الحية التي لقفت ما صنع السحرة أمام فرعون وملئه »[٤] .

وعند القصص القرآني ـ أوثق مصادر التاريخ والنبوات وأصدقها ـ تكون وقفة أمين مدني : حيناً مع نوح ، وحيناً مع أبي الأنبياء إبراهيم وإسماعيل ، ولوط وهود وشعيب وصالح عليهم السلام .

إن دعوة نوح وغيره من الأنبياء ـ إذن ـ قد ظهرت في الجزيرة ، فجهاد الأنبياء في الشرق العربي جهاد قديم ، استمر من قبل الطوفان ومن بعده ، وقد ارتبطت هذه الدعوات بنضج عقلي مبكر شهدته مجتمعات الجزيرة العربية « ومن قصة إبراهيم في فلسطين نعرف : أن

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٨٥ .

(٢) نفسه ص ٨٩ .

(٣) سورة هود الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٨٩ .

إبراهيم وجد في فلسطين مجتمعاً منظماً له عقائده وله شرائعه ، ووجد دولاً يترأسها زعماء وملوك . كما وجد في الحجاز تجاوباً مع ملته . . . »[1] .

على أن من الحقائق التاريخية التي عني بها المؤرخ « أن العرب جميعهم كانوا في الأصل موحّدين ثم حادوا عن التوحيد » . وتلك هي نظرية الباحثين الغربيين في تاريخ الأديان ، والتي أطلقوا عليها « نظرية التوحيد القديم »[2] ، فالتوحيد هو الدين الأول في الجزيرة العربية ، بينما الوثنية قد ظهرت في مرحلة تالية . فليست الوثنية - إذن - بداية الأديان والتدين في جزيرة العرب . وحتى مع الوثنية فإن العرب الوثنيين ، لم ينفوا وجود إله خالق مسيطر ، وإنما عدُّوا هذه التماثيل وسائط لهم عند الله ، تنزه الله عن ذلك ، وهذا هو الشرك الذي ساد الجزيرة قبل الإسلام .

أما تلك الوثنية الطارئة ، التي زاحمت التوحيد ، فقد جاء بها ( عمرو بن لحيّ ) ، نقلها من ( البلقاء ) إلى مكة . ومع هذا فإن الوثنية لم تنل من قداسة الكعبة في نفوس القوم . يقول المؤرخ رحمه الله : « والوثنية التي جاء بها ابن لحيّ إلى مكة لم تنل من مكانة الكعبة في نفوس العرب وغير العرب ولا من شرف مكة القديم الذي نوّه به المؤرخ الروماني سيلاسي ، الذي عاش قبل الميلاد بخمسين عاماً بقوله : إن مكة أشرف معابد الشرق وأقدمها »[3] .

ومع أن هذه الوثنية كانت انتكاسة للتوحيد الذي جاءت به دعوة إبراهيم عليه السلام ، فقد ظل على ديانة إبراهيم قوم من عقلاء العرب ، مثل : قسّ بن ساعدة الإيادي ، وأمية بن أبي الصّلت ، وعبدالله بن جحش وورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحارث . وهؤلاء الرجال هم من أقوى الشواهد - على معرفة الجزيرة العربية لمبدأ التوحيد ، هذا مع قلة عددهم .

على أن من أبرز الملاحظات التي أبداها المؤرخ رحمه الله ، أن جزيرة العرب وإن شهدت ديانات مثل اليهودية والنصرانية والمزدكية وغيرها ، فقد بقي تأثيرها على عقائد العرب ضئيلاً للغاية .

والنتيجة النهائية التي خلصت إليها دراسة أمين مدني عن ديانات العرب قبل الإسلام ، أن « العقلية العربية صقلتها من أقدم عصور الإنسان تشريعات الأنبياء ، فعرفت الحياة وواجب الإنسان فيها ، وعرفت كيف تنظم المجتمع الفاضل وكيف تؤسس الحياة العزيزة »[4] .

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ، ص ٩١ .
(٢) نفسه ص ٩٢ .
(٣) نفسه ص ١٠٤ .
(٤) التاريخ العربي وبدايته ، ص ١٠٨ .

# الفصل الرابع

## أمين مدني ومصادر التاريخ

الحديث عن ( مصادر التاريخ ) عند أمين مدني خاصة ينصرف إلى جانبين اثنين مهمين :
الجانب الأول : هو دراسته لمصادر التاريخ العربي القديم ، وموقفه من كل نوع منها ، وترتيبه هذه المصادر من حيث أهميتها في مؤلفه ( التاريخ العربي ومصادره ) .
الجانب الثاني : يتعلق بمنهجية أمين مدني في التعامل مع مصادر بحثه ، من حيث طريقته في توثيق نقوله عنها ، والاستكثار أو الإقلال من النقل ، وتنوع مصادره أو عدم التنوع ، والثقة ببعضها أو عدم الثقة ، وطريقته في طرح آراء الآخرين ومناقشتها ، والعناية بذكر المصدر ومؤلفه معاً ، أو الاكتفاء بأحدهما .

ونود القول هنا : إن العناية بدراسة أمين مدني بمصادر التاريخ ، تظل مرتبطة أيضاً بمنهجه في التعامل مع مصادره التي يختارها . فالعلاقة - إذن - قائمة بين هذين الجانبين المتقدمين .

لكننا - في هذا المبحث - سنكتفي بدراسة الجانب الأول ، ونرجىء الجانب الثاني إلى بحثنا عن ( منهجه ومصادره ) في موضع لاحق من هذا البحث .

●●●

أوقف أمين مدني على دراسة ( مصادر التاريخ العربي القديم ) سفراً كاملاً من موسوعته الكبرى ( العرب في أحقاب التاريخ ) ، وهو السفر الثاني من تلك الموسوعة النفيسة .
وعلى عادة المؤرخ أمين مدني - رحمه الله - مازال الرجل على دأبه الذي عرف به ، حريصاً على إجادة التبويب والخطة ، موطئاً وممهداً لكتابه ، حريصاً على أن يذيّله بخاتمة ترصد النتائج التي انتهى إليها ، معنياً بين يدي كل بحث بأن يدرج تحت عنوانه عناصره الفكرية الأساسية ، صانعاً للكتاب - عدا الفهرس الموضوعي - فهرساً تحليلياً للأعلام وآخر للأماكن .

وقد حرص المؤلف على أن يسجل في مقدمة كتابه ذاك الهدف من تأليفه . يقول رحمه الله :

« . . فنحن اليوم نرجع - إذا ما أردنا الكتابة في قضية من قضايا التاريخ العربي - إلى الموسوعات التاريخية ، ونحن إذا ما رجعنا إلى الموسوعات التاريخية نراها تستند إلى أقوال أوائل الرواد من المفسّرين وجامعي السيرة والمغازي وأيام العرب وأشعارها ولغاتها . ونحن إذا ما رجعنا إلى أولئك الرواد في تراجمهم نجدهم قد جمعوا أخبار العالم القديم من تراث

قدامى الأمم ، وإذا ما رجعنا إلى التراث القديم نجد : كل أمة من الأمم القديمة أخذت ممن سبقها من عوالم الماضي المجهول ما بنت عليه معتقداتها في أصل الخليقة وعالم ما قبل الطوفان مما تحدثت به الأنبياء والرسل وأطلق عليها البحث اسم : التاريخ الديني »[1] .

هكذا يضيء أمامنا المؤرخ ـ رحمه الله ـ فكرة المصادر العربية ، ويكشف عن آفاقها التاريخية ، وتسلسل ما بينها من علاقة ، وأثرها في التشكيل الديني والعقلي بين الأمم المختلفة ، مما يدلنا على شمولية تصور أمين مدني لفكرة مصادر التاريخ العربي ، وعلاقتها بمصادر الأمم الأخرى ، بل وعلاقتها بالتأثير الديني والثقافي . وهكذا ـ وبإيجاز شديد ـ استطاع مؤرخنا أن يقنعنا بقيمة دراسة المصادر والوقوف عليها ، وخطورتها في حقل البحث التاريخي .

ثم يربط المؤرخ رحمه الله بين الفكرة العامة عن المصادر ومنهجه ـ إجمالاً ـ في دراستها وتناولها ، يقول :

« . . فبناءً على ذلك فرض عليّ البحث التقصي ، وفرض عليّ التقصّي أن أسير مع المصادر من مراحلها الأولى التي اكتشف معالمها من تقدّمني من الباحثين ، وكذلك فرض عليّ البحث أن أعرف حقيقة النصوص التي اعتمد عليها مؤرخو الشرق العربي ، وفرضت عليّ معرفة النصوص : أن أفرد لكل مصدر من مصادر التاريخ فصلاً خاصاً يوضح ماهو جدير بالإيضاح ، ويناقش ماهو خليق بالمناقشة . والإيضاح والمناقشة ألزماني بأن أعود إلى العصور القديمة ، وأنظر بمنظار أبنائها وأقف مع آرائهم في كل مكان »[2] .

وفي الفقرة الأخيرة إيضاح للعلاقة بين دراسة أمين مدني للمصادر كموضوع في كتاب مستقل ، وبين منهجه في التعامل معها ، بل وعلاقة منهج بحثه بهذا المنهج في التعامل .

●●●

وحين نتناول موضوع دراسة أمين مدني لهذه المصادر ، نلاحظ أن أهم سمة تميز هذه الدراسة هي ( الموضوعية ) ، التي تجعله يتجرد من كل هواجس التعصب ، وحرصه على استخلاص الحقيقة من كل المظان الممكنة ، مع جعل ( القرآن الكريم ) المصدر الأوثق والأجدر بكل الثقة ، وفي هذا ما يضفي على دراسة المصادر ( القيمة الإيمانية ) في البحث لديه .

لقد آمن أمين مدني ـ رحمه الله ـ بمصداقية كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واعتدّ بكل ما ورد فيه من أخبار السابقين ، وجعل له الصدارة المطلقة بين سائر مصادر التاريخ والأخبار ، ورفض كل ما يتعارض معه ، بل وأسهب في الردّ على دعوى ( فنية القصص القرآني وعدم التزامها بالواقع التاريخي ) ، تلك الدعوى التي أثارها الدكتور محمد أحمد خلف الله .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٢١ .
(٢) نفسه .

ولسوف نرى من خلال عرضنا لدراسات أمين مدني أن الرجل - رحمه الله - لم يقف موقف التصلب والتشدد والرفض المطلق لآراء المستشرقين ، وبعض الباحثين العرب من النصارى ، بل لم يقف موقف الرفض سلفاً من باحث يهودي مثل « إسرائيل ولفنسون » ، بل كان يناقش في مهل ، وينقد في تؤدة وأدب جمّ ، ملتزماً كل هذه الطوابع المنهجية في القبول والرفض على السواء ، ولهذا فلسوف يلاحظ القارىء ، أنه يوافق ولفنسون في مواطن ويخالفه في أخرى . يبدي ارتياحاً لجورجي زيدان ، أو لسواه في رأي ، ويبدي رفضه لرأي آخر ، ملتزماً - في الحالين - التؤدة ، حريصاً أشد الحرص على الظفر بالحقيقة ، فهي ضالته ينشدها في كل مكان .

ونحاول - فيما يلي - أن نبسط الحديث عن موقفه من كل مصدر على حده .

## ١ - مصداقية القرآن الكريم :

القاعدة الأساسية عند المثقف المسلم ، أن القرآن الكريم كتاب هداية ، ومنهج عقيدة وعبادة وآداب . فهو - إذن - ليس كتاب تاريخ ، إذ أن القصص الواردة فيه ليست هدفاً مقصوداً لذاته ، بل هي وسيلة لتحقيق أهداف أكبر ، كالتسرية عن رسول الله ، وهداية الأمة ، وتربيتها بأصدق منهاج ، من هنا تطول القصص وتقصر . . تتكرر بمناهج مختلفة في مواضع من سور القرآن . . تقتصر على الغرض الذي سيقت له ، فلا تحفل بالتفاصيل ، التي تباعد بين المسلم والهدف . ولكن الحقيقة التي لا يرقى الشك إليها هي أن هذه القصص هي الحق الذي لا مرية فيه ، فليس فيها أدنى مخالفة لوقائع التاريخ وأحداثه .

تلك هي القاعدة الأساسية المكينة التي ينبغي أن ينطلق المسلم منها وهو يطالع كتاب الله بعامة ، والقصص القرآني بصفة خاصة .

ومن هذه القاعدة الأساسية المكينة ينطلق أمين مدني في نظرته إلى ( القصص القرآني ) ، يقول ( مؤرخ العرب في أحقاب التاريخ ) رحمه الله :

« ولابد لي هنا : أن ألفت النظر إلى أن هدف القصص القرآني لا يقتضي تفصيل أخبار الماضي وتتبّع أحداثه . . . فلا غرو إن نحن لم نجد في قصص القرآن تاريخاً كاملاً لأمة من أمم الزمان الغابر ، ولا غرو إذا كان قصص القرآن جاء على صورة الخبر القصير والقصة الواعظة والمثل المضروب . . ولا غرو ! إذا كانت أنباء الأمم ومواقف الرسل تتكرر في القرآن ، فإن الغرض الأول من ذكرها : العبرة »[1] .

وقد صرف أمين مدني جهده إلى رد الشبهات عن القرآن الكريم ، التي أثارها المستشرقون ، والمتأثرون بتصوراتهم من الباحثين العرب ، فنجد في الفصل الخاص بالقصص القرآني أبحاثاً مثل : قصص القرآن كان ومازال هدفاً للتهم والشكوك -

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥٨-٥٩ بتصرف .

المستشرقون يجددون الشك في قصص القرآن ـ لماذا نفنّد التهم المجدّدة ؟ ـ جهل بعض المستشرقين بخواصّ اللغة العربية وجهل بعض الباحثين بحقائق التاريخ هما من مسبّبات الشكوك ـ حقيقة الأمثلة التي اعتمدت عليها الشكوك المتعثرة ـ ما أشبه رأي المستشرقين اليوم برأي الخارجين عن الإجماع بالأمس ـ طبيعة الشك هي التي جعلت المستشرقين يخلطون النص القرآني بأقوال المفسّرين ـ عودة بعض المستشرقين إلى محجة الصواب[1].

ثم يعود فيعقد فصلاً كاملاً ـ بعد الفصل الذي قدّمنا رءوس مباحثه ، وهذا الفصل جعل عنوانه ( النصّ القرآني أصدق النصوص )[2]، يعيد القول فيه حول فكرة ( الدفاع عن القرآن ورد مطاعن الخصوم ) ، والتي سبق أن فصّل القول فيها .

وحتى عندما يتناول سائر ( مصادر التاريخ العربي ) ، فإنه يظل مرتبطاً أوثق الارتباط بفكرة مصداقية القرآن الكريم ، فمن ذلك ـ مثلاً ـ بحث ( الفرق بين الناسخ والمنسوخ في القرآن والمؤول والمحرف في الأسفار ) ، وكذلك بحثه ( كيف حافظ المسلمون على القرآن ، وفرّط اليهود في الأسفار ) ، وذلك كله في الفصل الذي عقده عن ( الأسفار مصدر من مصادر التاريخ )[3].

ولقد كان من أهم القضايا التي شغلته ما أثاره الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه ( الفن القصصي في القرآن ) في زعمه الفاسد عن قصص القرآن ، وادعائه أنها قائمة على الفن لا على حقيقة التاريخ . يقول أمين مدني ـ رحمه الله ـ « السر في انصراف هذه الظنون إلى أن القصص القرآني : قصص أدبي ـ هو : أن معارف أصحاب هذه الظنون أدبية أكثر منها تاريخية . فلو أن هؤلاء تعمقوا في الدراسات التاريخية لما تورطوا في نقد لا يثبت أمام الحقائق التاريخية ، ولو أن هؤلاء رجعوا إلى النصوص التاريخية ، ودرسوا بتعمق القرآن وما جاء فيه من تشابه المواقف والأقوال ، لما فهموا القرآن على أساس العقلية الأدبية فحسب »[4].

ولم يقف عند حد بيان الأغلاط التي حاولت النيل من مصداقية القرآن التاريخية ، بل ساق الأدلة في هدوء وبمنهج منطقي مقنع . ومن ذلك على سبيل المثال : إنكار المنكرين لقصة ( تكلم عيسى في المهد ) على نحو ما أوردها القرآن الكريم ، وحجتهم في الإنكار أن ( واقعة تكلم عيسى ) لم ترد في الأسفار اليهودية والتاريخ المسيحي ، وقد نقض ـ المؤرخ ـ رحمه الله ـ أدلة المنكرين ، بطائفة من الأدلة الدافعة والتي منها : أن اليهود الذين أنكروا

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص٤٣-٦٠ .

(٢) نفسه ص ٧٧-٨٠ .

(٣) نفسه

(٤) وانظر التاريخ العربي ومصادره ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ .

تكلم عيسى قد أنكروا - أيضاً - رسالة عيسى برمّتها وكذبوها ، فكيف لهم أن يصدقوا إحدى معجزاته ؟ هذا فضلاً على أن الأسفار والمصادر المسيحية قد سكتا عن كثير من أخبار طفولة عيسى وصباه ، فكيف تذكران هذه الواقعة الجزئية ؟ . هذا إلى أن النصارى لم يصبحوا على دين المسيح إلا بعد إيمانهم به ، وهو لم يشرع في تبليغ الرسالة إلا بعد ثلاثين عاماً أو أكثر من حياته ، كما أن طفولة عيسى وصباه لم تصل إلى أولئك المسيحيين إلا عن طريق اليهود وهم خصوم عيسى ورسالته .

فإذا جاء إلى زعم المستشرقين ، بأن القرآن قد استرفد المادة التاريخية من المصادر اليهودية والمسيحية وغيرهما ، رد ذلك في هدوء ، بأنه لو ثبت لليهود أن القرآن كان ينقل عن مصادرهم لوجدوا الحجة عليه ، ولأثاروا هذا الأمر ، وهم الذين كانوا لا يكفّون عن الجدل ، والترصد للقرآن ، وما ورد فيه من قصص وأخبار[1] .

ولعل من أقوى الأدلة على صدق القصص القرآني - كما يذكر أمين مدني - مطابقة الكشوف الأثرية لما ورد في القرآن من الأخبار والقصص ، يقول : « ثم هذه أخبار ( عاد - المعينيين ) وأخبار ( ثمود ) التي انفرد بذكرها القرآن ، والتي كانت إلى وقت قريب موضع شك المستشرقين ، أصبحت أخباراً ذات قيمة في البحوث التاريخية بعد أن اكتشف الباحثون آثارهم في شمالي الحجاز وفي اليمن . ولا أراني مبالغاً إذا قلت : إن اتساع المعارف الأثرية أقنع جمعاً من الباحثين غير قليل بأن القصص القرآني يشير إلى حقائق تاريخية »[2] .

وخلاصة ما انتهى إليه أمين مدني في بحثه عن ( مصداقية القرآن ) أن القرآن الكريم يحتل مكان الصدارة من حيث الصدق التاريخي ، فأغلاط المصادر الأخرى ليست حجة على القرآن ، ولا ينبغي أن تكون ، لأن كتاب الله حجة على كل كتاب . يقول رحمه الله : « . . لست من الذين يشكون في خبر من أخبار القرآن ، ولست ممن يعدّون أن القرآن في قصصه قصد تحرر القصة ، وسار على طريقة الفن الأدبي فيما قصد من أنباء الغيب » . ويقول أيضاً : « فهذا أنا أضع القصص القرآني في مقدمة النصوص : لأنه أصدقها . وهذا أنا أعتمد على كل ما حدثنا به من أنباء ماضي البلاد العربية وأممها . وإنني أصارح القارىء بأنني لم أطِل الوقوف أمام تلك الشكوك إلا لأزيلها عن القصص القرآني وأستجلي حقيقة الأخبار التي جاءت فيه ، وأبين سلامتها من الخرافة والخيال ، وأحدد موقف هذا الكتاب من نصوص القرآن »[3].

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥١ وما بعدها .
(٢) التاريخ العربي ومصادره ص ٥٨ .
(٣) نفسه .

وأول ما نلحظه في موقف أمين مدني ـ رحمه الله ـ من القرآن الكريم هو قيام البحث التاريخي لديه على ( القيمة الإيمانية ) ، مع ارتكاز هذه ( القيمة الإيمانية ) على قدر كبير من التفتح الذهني ، مع التعقل والروّية ، حتى مع أشد الخصوم لجاجةً وسفاهةً . حجته سلاحُه دائماً ، وموضوعيته منحاه ومنهجه .

وثاني ما نلحظه هو أن موقفه ـ في الأعم الأغلب من تناول مصداقية القرآن الكريم ـ هو الموقف الدفاعي ، مع الجدل والمناقشة ، والسبب هو كثرة ما أثاره الخصوم حول كتاب الله ، ثم ما جُبل الرجل عليه من غيرة محمودة على كتاب الله ، صَبغت بحثه التاريخي بصبغة لا يخطئها القارىء المتمرّس بآثاره وبحوثه .

والقاعدة الأساسية ـ بدءاً ونهاية ـ هي أن « ما وافق القرآن فهو الصحيح ، وما خالفه وحاد عنه فباطل ؛ يجب نبذه وتركه » فضلاً عن نقضه وهدمه . وذلك هو موقف العالم السّلفي الذي لا تجرفه التأويلات ولا العناصر الدخيلة بعيداً عن النصوص القرآنية المحكمة .

●●●

## ٢ ـ الأســـــفار :

السِّفر بكسر السين ، هو الكتاب ، ويطلق على الكتاب الكبير ، والجمع على أسفار . هذا من ناحية اللغة . أما ( الأسفار ) اصطلاحاً ، فهي مجموعة الكتب التي نسبها أهل الكتاب إلى موسى وعيسى عليهما السلام .

وبوسعنا ـ سلفاً ـ أن نستخلص المعايير التي تعامل بها أمين مدني مع كل من التوراة والإنجيل ، وذلك استنباطاً من آرائه عنهما ، واستنباطاً أيضـاً من منهجه في الأخذ عنهما أو نقض آرائهما . وهذه المعايير هي :

١ ـ ما تطابق مع القرآن وجوداً ، أو معتقداً أخذ به ، ومالم يتطابق نَبَذه ، وسعى في نقضه وإبطاله .

٢ ـ ما جاء في الأسفار ، ولم يرد في القرآن ، أخضعه للنقد والتمحيص مستعيناً بمنهج علمي دقيق ، فإن ثبت له صحته أخذه ، وإلا تركه وأبطله .

على أن الأساس في كل الأحوال لديه هو عقيدته الإسلامية القائمة على موقف محدّد من هذه الكتب وملحقاتها من الشروح المختلفة ، ويمكن أن نلخص عناصر الموقف الإسلامي فيما يلي :

١ ـ احترام الأنبياء وإجلالهم ، والإقرار التام بوجودهم وبكتبهم .

٢ ـ أن الأسفار قد شابها التحريف ، وداخلتها شروح علماء أهل الكتاب ، حتى امتزجت

بها وصارت جزءاً منها ، بحيث لم يعد في الإمكان تمييز الأصل مما أضيف إليه وامتزج به .

٣ - أن الأسفار لم تدوَّن في حين نزولها وتلقيها ، بل تمت عملية التدوين بعد أجيال طويلة مما سمح بالتحريف والإضافة والحشو ، بينما القرآن الكريم « دوّنه كُتّاب الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجُمِع بعد وفاة النبي في عهد أبي بكر . وتوراة موسى لم تدوّن إلا بعد قرون من وفاته . والقرآن دُوِّن كما نزل حرفياً ، وجُمع بعد مراجعة ما في أيدي المسلمين من القرآن وما يحتفظ به كُتّاب الوحي ، وبعد إجماع الحفّاظ الذين حفظوه عن النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة وكما نزل . والقرآن دُوّن باللغة العربية وحدها ، وظل محفوظاً على نصه الذي أُنزل به بينما التوراة دوّنت بعدة لغات ، « وفي كل مرة دوّنت فيها الأسفار اختلط بأصلها ما يؤوله المؤولون ويفسِّره المفسرون ، وقلّ أن تُطابق كلمةٌ بكل معانيها كلمةً أخرى إذا ما نقلت من لغة إلى لغة ، وقلّ أن نجد نسخة خطية من الأسفار مطابقة للنسخة الأخرى التي دُوّنت بعدها أو قبلها »(١) .

●●●

وقد اتجه أمين مدني في دراسة ( مصدرية الأسفار ) إلى بسط وجهة النظر الإسلامية ، وموقف علماء المسلمين عموماً من تلك الأسفار . كما اتجه أيضاً إلى بسط العلل التي اعترت هذا المصدر غير الإسلامي ، والفروق بين تلك الأسفار وبين القرآن الكريم من حيث ( المصداقية ) ، ثم كيف أن المسلم - برغم حذره وارتيابه - في نصوص الأسفار ، يظل أفضل حالاً من المستشرقين ، ويظل موقفه من ( مصداقية الأسفار ) أدل على احترام أنبياء الله والديانات التي جاءوا بها . يقول أمين مدني رحمه الله : « والأسفار : قديم العهد منها وجديده لم تخل في اعتقاد المسلمين مما نزل على الأنبياء ، ولا تخلو كذلك من المحرّف والمؤول ، ولذلك وقف المسلمون منها موقف الحذر ، فهم لا يشكّون إلا فيما يثبت التحقيق : الريبة فيه ، وهم لا يصدقون إلا ما يؤكد التحقيق الثقة فيه ، لا سيما فيما يعود إلى غير التاريخ »(٢) .

تلك خلاصة لموقف أمين مدني - رحمه الله - من الأسفار ، من خلال حديثه عنها ، وبسطه الكلام في مصدريتها ، وأما تعامله الفعلي مع الأسفار ، من خلال التطبيق فله - من بحثنا - موضع آخر ، هو الفصل الخاص بالمنهج والمصادر .

والملاحظ أن المؤرخ قد أحسن إلى حد بعيد رسم المعالم الإسلامية لموقف العالم المسلم من الأسفار ، وتصوره ، كما وضع على الطرف الآخر موقف فريقٍ من علماء النصارى من كتبهم ، وبخاصة المستشرقين الذين شكّوا فيما لا ينبغي أن يرقى الشك إليه ، مما حوته التوراة ، وذكرَه الإنجيل ، كأنبياء الله ، الذين يؤمن بهم المسلم إيماناً راسخاً .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٩٧ .

(٢) نفسه ص ٩٨ .

وقد جمع المؤلف مادة غزيرة من مصادر شتّى بعضها قديم ، والبعض الآخر حديث . فمن هذه المصادر : تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، للعالم الإسلامي : محمد عزه ودوزه ، وكتاب ( إظهار الحق ) للعالم المسلم ، رحمه الله السِّندي صاحب المؤلفات الفقهية ( ت ٩٩٣هـ ) ، و ( تاريخ العرب قبل الإسلام ) لجواد علي ، وتاريخ ابن خلدون ، وتفسير الطبري ، ودائرة المعارف الإسلامية ، لمحمد فريد وجدي وطبقات ابن سعد .

لكن أمين مدني ـ رحمه الله ـ لم يرجع إلى الأسفار نفسها ، مع أنها موضوع الحديث ، ومع أنه قد تعامل معها بإزاء غيرها من مصادره في كتابه بأجزائه الثلاثة . وإنما اكتفى في كل البحث بما ورد في الكتب التي اطّلع عليها وأسلفنا ذكرها في الفقرة السابقة .

●●●

نحاول ـ فيما يلي ـ أن نعرض لموقف أمين مدني وتصوره لسائر مصادر التاريخ العربي .

## ٣ ـ الأساطير الجاهلية :

ربما يتملكنا العجب ، إذ نرى مؤرخاً في مثل قدر أمين مدني يعتدّ بالأساطير ، ويُسلكها في عداد مصادر التاريخ العربي ، الذي وقف له حياته ، يوثّقه ، ويحقق مسائله ، ويدقق في بحث مصادره ، ويجعل في مقدمة تلك المصادر كتاب الله عز وجل ، والذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[١] .

عالج المؤرخ ـ رحمه الله ـ موضوع الأساطير في الفصل الرابع من كتابه ( التاريخ العربي ومصادره ) تحت عنوان ( الأساطير والشعر في العصر الجاهلي ) ، وأفرد الأساطير والشعر الجاهلي بمبحث خاص كل على حده .

أما المراد بالأساطير التي عناها فهي ميراث الجاهلية من الحكايات والمعارف عن أصل الخليقة وعالم ما قبل التاريخ ، وهي كما يقول : « بقايا أنباء غامضة تداولتها أجيال عاصرت إبراهيم وهوداً وصالحاً ، وأنباء وصلت مع العقائد ، فاستقبلتها عقول خضعت لوثنية كلها خرافة وتدجيل . أما قصصهم وما يعرفونه من الأمم البائدة ، فقد تجمع مما احتفظت به بقايا تلك الأمم من آثار وأخبار ، وأشعار تتجدد وتتلوّن مع الزمن ، وتتسع مع الفهوم والمعارف . وأما تاريخ الشمال والجنوب فقد عرفوا شيئاً عنه روايات سمعوها من سكان الجنوب والشمال ، ومخطوطاتٍ اطلعوا عليها في ( الحيرة ) ، و ( صنعاء ) »[٢] .

---

(١) سورة فصّلت آية ٤٢ .

(٢) التاريخ العربي ومصادره ص ١٥٤ .

أما السبب في عدّ ( أساطير الجاهلية ) مصدراً للتاريخ العربي القديم ، فهو أن الجوهر في الأسطورة صحيح ، ومتفق عليه ، أما الخرافات والأوهام والتزيدات فهي في التفاصيل ، وقد استطاع المؤرخ أن يضبط لنا بدقة ( مصدرية الأسطورة العربية ) ، ويقنعنا بصلاحية مادتها ـ للتأريخ والمؤرخين ـ في أدق عبارة ، يقول رحمه الله :

« والذي يستلفت الانتباه في القصص الجاهلي : أن أصل القصة التاريخية لم يحجبْه الخيال على كثافته . فعلى كثافة الخيال في القصص الجاهلي ، لا يزال أصل القصة متفقاً عليه ، فالقصص الجاهلي عن عاد ، وثمود ، وجرهم ، وعبيل وغير هذه الأمم من العرب البائدة يلتقي جميعه في نقطة واحدة . . وإنما الذي اختلف في هذا القصص هي : الصور التي رسمها الخيال والمبالغات التي لوّنت بها صور الخيال ، وليس هذا بغريب على طبيعة الرواة ، فما آفة الأخبار إلا رواتها »(١) .

ولكي يشبع المؤرخ فكرته ويؤكدها بشكل مقنع ، يلجأ إلى ضرب أمثلة من التاريخ الإسلامي المدون الموثق ، وكيف أن بعض أحداثه وشخصياته لم تفلت من سطوة الخيال والمبالغات . كالذي نقله خيال الرواة عن « أمجاد دمشق وثقافة بغداد وحضارة قرطبة » ، وما أصاب تاريخ ( يوم الجمل ) ، و ( صفين ) من تزيدات الرواة ، « فكيف بذلك القصص الذي لم يصل إلى العربي الجاهلي نصوصاً واضحة ، وإنما وصل إليه عن أسفار لم يطّلع على بعضها غير قلة لا تذكر »(٢) .

وقد عالج أمين مدني رحمه الله موضوع ( مصدرية الأساطير الجاهلية ) على مرتكزين أساسيين :

الأول : التدوين عند العرب .

الثاني : موقفه من قضية الأمم البائدة .

وسوف نعالج كل مرتكز منهما ، لنكشف عن علاقته بالأساطير الجاهلية ، وتصور المؤرخ لها .

● ● ●

فأما التدوين ، فقد سبق أن عالجه في كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، كما أسلفنا في موضع حديثنا عن موقفه من قضية ( الثقافة العربية ) ، وذلك عند تناوله بالبحث للخطوط في الجزيرة العربية ، حيث انتهى إلى عدة نتائج كان من بينها : معرفة العرب للتدوين والكتابة ، وكذلك انتهاؤهم إلى ( الخط القرشي ) ، الذي تمخض عن حركة الصراع بين الخطوط المختلفة وبخاصة في شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها ، على ما سبق عرضه وبيانه .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٥٥ .
(٢) نفسه .

وصلة التدوين بموضوع الأساطير يتمثل في أن العرب في العصر الجاهلي قد دوّنوا هذه الأساطير ، وأنهم ورثوا بعضها مكتوباً مدوناً « فكل ما يمكن أن نقوله عن الكتابة والقراءة في جاهلية ما قبل الإسلام ، أنها كانت شائعة في إمارة المناذرة بالعراق ، وفي إمارة الغساسنة في الشام ، وفي مملكة التبابعة في اليمن ، وأن عدد الذين يعرفونها في الطائف ومكة والمدينة لا بأس به ، وأنها كانت في بعض أنحاء الجزيرة العربية جدّ نادرة »[١] .

ولقد ارتبطت الأساطير بالتدوين والكتابة والتسطير ، حتى حكى القرآن الكريم دعوى القوم الكاذبة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد نقل أساطير الأولين كتابةً : ﴿ وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[٢] .

ويعد النّضْر بن الحارث صورة من هذا النوع من الثقافة التاريخية المدوّنة « لأن تدوين الأخبار في كتب يتداولها المهتمون بالأساطير من العرب شيء مألوف عند العرب »[٣] .

كما يعد من صور التدوين لتلك الأساطير أيضاً ، أن العرب قبل الإسلام قد نقلوا القصص التاريخي المدوّن من الحيرة في العراق ومن مآب في سورية ومن صنعاء في اليمن ، وقد آل شيء من هذا التراث التاريخي المدوّن فيما بعد إلى فريق من أوائل المؤرخين المسلمين في عصر بني أمية ، أمثال : وهب بن منبِّه ومن ذلك تاريخ اليمن القديم الذي انحصرت مصادره فيما دوّنه الحميريون ، وفيما وجده وهب بن منبّه من مؤلفات الكتابيين .

وقد أُثر عن وهب ذاك قوله : « لقد قرأتُ اثنين وتسعين كتاباً أنزلت من السماء . اثنان وسبعون منها في أيدي الناس وعشرون لا يعلمها إلا القليل »[٤] .

● ● ●

هذا هو المرتكز الأول الذي أقام عليه المؤرخ رحمه الله دراسة ( الأساطير ) ، وهو التدوين . أما المرتكز الثاني ، فهو كما أسلفنا القول يتعلق بالأمم البائدة . وللمؤرخ رأي سبق بيانه في مفهوم الإبادة ، فهي لا تعني الزوال التام بحيث لم تبق للقوم ذرية وآثار ، بل بقيت هناك أجيال حفظت قدراً من ثقافتهم ، كما بقيت قلة من آثارهم . يقول رحمه الله :

« ولقد سبق في الجزء الأول : البحث في الأمم البائدة ، والبحث في الأمم البائدة التي اعتقد بعض المؤرخين خطأ أنها فناء لم يُبْق من تلك الأمم ديراً ولا ديّاراً . فالأمم البائدة لم تبتلعهم الأرض دفعة واحدة بين عشيّة وضحاها ، وإنما دُولهم هي التي دالت وسلطانهم هو الذي زال ، فانصهرت البقية المغلوبة على أمرها في الدول التي برزت بعدها فتبدّل اسمها ،

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٤٣ .
(٢) سورة الفرقان آية ٥ .
(٣) التاريخ العربي ومصادره ص ١٤٩ .
(٤) نفسه ص ١٥٠ .

واختفت ألقابها فاسحة المجال لغيرها من الأمم ذات الدولة والسلطان . . . »[1] .

ثم يستنتج من هذه المقدمة نتيجة هي أنه « لابد أن يكون حديث الآباء للأبناء عن ماضيهم مستفيضاً ، ولابد أن يكون حرص الأبناء على آثار ماضيهم شديداً . . ولابد أن يكون منهم رواة أخبار وشعراء تغنوا بماضيهم العزيز عليهم ، وندبوا مجدهم الآفل . . »[2] .

●●●

وحين ننظر في هذين المرتكزين الأساسيين لدى أمين مدني ، وننظر إلى معالجته للأسطورة العربية بشكل عام نستشعر الفكرة المحركة لذلك كله . وهي ( عراقة الحضارة والثقافة العربية ) في أعماق التاريخ . فالأسطورة على هذا النحو من التناول عنصر ثقافي أصيل ، والتدوين ـ وقد سبق أن تناولناه ـ عنصر ثقافي أصيل أيضاً . وتصور المؤرخ لفكرة ( الشعوب البائدة ) ، يعني أن الفناء لم يدب في الأجيال العربية ويمحقها محقاً ، بل ظل للأجيال وجود ، وظل هذا الوجود ينمو ، ومن خلال نموه تنمو إفرازات ومنجزات حضارية ، ومن خلال الوجود والنمو أيضاً تتحقق فكرة التواصل عبر التاريخ والحقب ، فتقوى مع الأجيال وتواصُلها حضارات وثقافات .

●●●

ولكن تبقى بعد هذا كله قضية . . !!

هي : موقف الإسلام وعلمائه من الأساطير العربية ، كما أوضحه المؤرخ رحمه الله : « فمن الحقائق الثابتة ، بأن المسلمين لم يعدموا من مدوّنات الجاهلية إلا ما يمسّ العقيدة ويضلل العقول الحديث عهدها بالإسلام . . ومن الحقائق الثابتة : أن مدونات احتفظ بها أفراد كانوا يرجعون إليها فيما يروونه عن العصر الجاهلي : إلى غير ذلك من مدونات السريانيين واليهود والمسيحيين التي لم يتعرض لها المسلمون »[3] .

أمر آخر لاحق بما سبق ، هو أن هذه المادة قد شكّلت في عصور التأليف عنصراً أساسياً جداً ، ابتداءً من القرن الثاني الهجري ، حيث يطالعنا كتابان مهمان ، عُدّا فيما بعد أساساً لحركة التأليف التاريخي ، وهذان الكتابان هما : أخبار عبيد بن شرية ، و ( التيجان ) لوهب بن منبّه .

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٥٣ . والجزء الأول المشار إليه هو كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه ص ١٥٩ .

ومع أن المؤرخ أمين مدني ـ رحمه الله ـ لم يفُضَّ في عرض موقفه من الأساطير ، بإزاء المصادر الأخرى ، فإن ما قرره من كلام وجيز مجمل يحدّد هذا الموقف ، إذ على المؤرخ الذي يتعامل مع هذا المصدر « أن يوطّن نفسه على الصبر والأناة ، ويفتش عن الوثائق التاريخية في الأخبار القصيرة والكلمات العابرة التي تأتي في الكلام عن التاريخ الإسلامي ، وفي الحديث عن الأدب الجاهلي وأخبار شعراء الجاهلية وأيام العرب ، وعليه أن يجرّد الأخبار التي يطلع عليها من الخيال ويستخلص الحقائق من المبالغات التي امتزجت بها . . »(١) .

تلك هي الأساطير بين مصادر التاريخ العربي ، كما تصورها أمين مدني وعرض لها ، ونحاول فيما يلي أن نستكمل حديثه عن هذه المصادر .

## ٤ ـ الشعر الجاهلي وصلته بالتاريخ :

عدّ أمين مدني الشعر الجاهلي مصدراً تاريخياً لاحقاً بالأساطير الجاهلية ، مع أنه أفرده ببحث مستقل ، إذ جعل عنوان الفصل الرابع من كتابه ( التاريخ العربي ومصادره ) هو : [ الأساطير والشعر في العصر الجاهلي ](٢). ثم قسّم هذا الفصل إلى مبحثين ، الأول في الأساطير ، والثاني في الشعر . والملاحظ أن ( مصدرية الشعر الجاهلي ومصداقيته التاريخية ) قد نالت عناية خاصة من المؤرخ رحمه الله . والدليل على ذلك تناوله الشعر الجاهلي بالدراسة في غير موضع من موسوعة ( العرب في أحقاب التاريخ ) .

فقد عقد مبحثاً بعنوان ( الشعر العربي عريقٌ مثل لغته ) في كتابه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، كما أسلفنا القول(٣). ونضيف هنا حقيقة جديرة بالتنويه ، وهي أن أمين مدني قد ربط فكرته عن ( عراقة الشعر ) بفكرة ( مصدرية الشعر ) ، فاتخذ من رواية ابن جرير الطبري لأشعار الأمم البائدة ، وقبله كذلك ابن إسحاق في السيرة . نقول : اتخذ من هذه الرواية دليلاً على سلامة هذه الأشعار ، وعلى الاعتداد بمصدقيتها بدليل رواية ثقات المؤرخين لها . وقد سبق أن لخصنا هذه الفكرة ، وبيّنا الرأي فيها .

أما كتاب ( التاريخ العربي ومصادره ) ، فتناول فيه موضوع الشعر الجاهلي في فصلين متباعدين ، أحدهما عرض فيه لصلة الشعر الجاهلي بالتاريخ ، والثاني عالج فيه قضية ( نقاد الشعر الجاهلي ورواة أيام العرب )(٤).

ربط أمين مدني بين ( الشعر الجاهلي ) ونشأة العلوم الإسلامية ، وبخاصة ما يتصل بالقرآن ، وما يتعلق بالتاريخ الإسلامي ، فكان الباعث على اهتمام المسلمين بجمع الشعر

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٦١ .
(٢) انظر ص ١٣٥ من الكتاب .
(٣) ص ١٦٣ ـ ١٦٨ .
(٤) ص ٤٨٣ ـ ٥٤٤ .

الجاهلي وتدوينه وتوثيقه « مافي القرآن من ألفاظ غريبة وما فيه من أنباء أصحاب الفيل ، وإيلاف قريش ، ورحلة الشتاء والصيف وغير ذلك مما وجد المسلمون في ديوانهم - الشعر - قاموساً يفسر غريب الألفاظ ، ومصدراً غنياً بنصوص تتحدث عن الفيل وأصحابه وعن قريش وتجارتها . . »[١] .

وعن طريق الشعر الجاهلي وقفنا على أيام العرب ووقائعها ، وعن الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية .

وقد عالج أمين مدني رحمه الله موضوع مصدرية الشعر الجاهلي من خلال قضية الرواية والرواة ، والجهود التي بذلت من أجل تمحيص الشعر الجاهلي وتنقيته من الزائف ، وكيف أن رواة التاريخ السياسي والإداري - مثلما كان لهم الفضل على هذا الجانب ، كان لعلماء الشعر - أيضاً - الفضل على التاريخ الأدبي والثقافي والاجتماعي[٢] .

ويمكن أن نقسم مبحثه عن ( نقاد الشعر ) إلى جملة من الأفكار نوجزها فيما يلي :

١ - علاقة الشعر بكتب التاريخ والسيرة والمغازي وكتب التفسير وكتب الجغرافيا واللغة والبلاغة .

٢ - جهود العلماء في النقد التاريخي للآثار الشعرية وتحقيقها .

٣ - مصادر الرواة في جمع الأشعار الجاهلية ، من ذخائر الحيرة والأسواق العربية مثل عكاظ والمربد .

٤ - انقسام رواة الشعر إلى مدرستين ، هما : مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، وتنافسهما في الجمع والتدوين والتوثيق .

٥ - توثيق الرواة ، والدفاع عن أمانتهم ، وبخاصة حماد الراوية وخلف الأحمر ، وهما أكثر راويين تعرضا للتجريح والطعن ، واتهما بالانتحال والتزييف .

٦ - تناول أمين مدني ترجمة طائفة من أئمة الرواية الشعرية بلغ عددهم خمساً ، هم : أبوعمرو بن العلاء ( ت ١٥٤هـ ) - حماد الراوية ( ت ١٥٥هـ ) - المفضَّل الضَّبي ( ت ١٦٨هـ ) - خلف الأحمر ( ت ١٨٠هـ ) - أبو عبيدة الراوية ( ت ٢١٠هـ ) ومن الملاحظ أن المؤرخ قد وجّه جل عنايته في ترجمة هؤلاء الأئمة من الرواة إلى توثيقهم .

●●●

والناظر فيما كتبه المؤرخ - رحمه الله - عن رواية الشعر ورواته ، يقر بالجهد الذي بذله المؤلف في سبيل توثيق الرواية الشعرية ، ونقض آراء الطاعنين على الرواة ، وبخاصةٍ حماد الراوية وخلف الأحمر . وانتهى في توثيقه حماداً الراوية مثلاً إلى قوله : « وقد وقف جهده

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٦٥ .
(٢) نفسه .

على البحث في تاريخ الأدب العربي ، وعلى معرفة أنساب البيوت القديمة ، فخلّف لمؤرخي الأدب العربي ما وصل إليه من شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن أبرزه شعر شعراء المعلقات ، وخلّف لمؤرخي الشعوب العربية ما عرفه من أيام العرب وأنسابهم ، فمهما اختلفت الأقوال في حماد الراوية فحماد رجلٌ أفاد التاريخ والأدب العربي »[١] .

ومع هذا ، تبقى في دراسة أمين مدني عن ( مصدرية الشعر العربي ) نقطتان :

النقطة الأولى : لم يتطرق إليها بأدنى عبارة ، وهي : إلى أي حدٍ يمكن الاعتماد على الشعر في البحث التاريخي ؟ مع ما هو معلوم عن طبيعة الشعر وجوهره ، من قيامه على الخيال والعاطفة ، مما قد يجنح به إلى تجاوز حقائق الواقع والتاريخ ؟ ثم . . ما الذي يجب أن يأخذ المؤرخ من الشعر الجاهلي ، وما الذي ينبغي أن يَدَع ؟

أما النقطة الثانية فهي تشكيكه في أمانة أبي الفرج الأصفهاني ، واتهامه باختلاق الروايات الطاعنة في حماد الراوية . يقول عنه : « . . الكثير مما دوّنه الأصفهاني عن حماد تافه ومختلق ، ولعل صلة حماد بالبيت الأموي هي العامل الأول من العوامل التي جعلت الأصفهاني يحرص على تدوين كل ما يحط من كرامة حماد . فالأصفهاني من الشيعة المتعصبين المبالغين في تحزبهم ضدّ كل من سار في ركاب الأمويين »[٢] .

ولنا عند عبارات المؤرخ وقفة . فقد جرّج ( أبو الفرج ) واتهمه بالتحزب ضدّ كل من سار في ركاب الأمويين ، وأغفل المؤرخ حقيقةً مهمة للغاية ، وهي أموية أبي الفرج الأصفهاني نسباً ، فهو - كما أورد ياقوت الحموي - « على بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالله بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو الفرج الأصفهاني[٣] .

كما تروي المصادر أنه لما علم الحكم بن الناصر صاحب قرطبة بتأليف الأغاني « وهو أموي مثله ، فسأله أن يرسل الكتاب إليه قبل إخراجه لبني العباس ، وبذل له على ذلك ألف دينار واعتذر إليه »[٤] .

بل يذكر القفطي أنه قد حصل لأبي الفرج « ببلاد الأندلس كتب قد صنّفها لبني أمية المقيمين بها هناك ، وسيّرها إليهم سراً ، وجاءه الإنعام والعطاء سراً أيضاً ، منها كتاب « نسب بني عبد شمس »[٥] . كما يذكر أيضاً أن أبا الفرج « كان أموياً ، وكان يتشيّع »[٦] .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥١٩ .

(٢) التاريخ العربي ومصادره

(٣) معجم الأدباء ١٣/ ٩٤ - ٩٥ ط ٣ دار الفكر - بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ٢٨٤ ، وانظر في أموية أبي الفرج إنباه الرواة ٢/ ٢٥١ .

(٥) نفسه ٢/ ٢٥٢ .

(٦) نفسه ٢/ ٢٥٣ .

كان أبو الفرج أموياً إذن ، وإن كان شيعياً ، فكيف يدوّن في كتابه كل ما يحط من كرامة حماد ، لأنه من الشيعة المتعصبين المبالغين في تحزبهم ضدّ كل من سار في ركاب الأمويين ؟ ثم إن أمين مدني - رحمه الله - لم يورد أدنى دليل على تحامل أبي الفرج على الأمويين . على أن تبرئة حماد واتهام أبي الفرج ، مع التحامل عليه في غير موضع ، يضعنا أمام مشكلة أشدّ خطورة ، وهي الدعوة الضمنية إلى نبذ كتاب الأغاني ، وهو أكبر مصادر الأدب في العربية .

●●●

## ٥ - المؤرخون ومن إليهم :

وهؤلاء هم صناع المصادر المؤلفة ، سواء منهم الرواد الأول ، الذين يمثلون مرحلة النشأة للتدوين التاريخي ، أم مؤرخو مرحلة ازدهار التأليف التاريخي واتساعه ، وقد أفاد هؤلاء من جهود رواد مرحلة النشأة مثل وهب بن منبّه وعبيد بن شرْية .

وإلى جانب هؤلاء المؤرخين ، فهناك كتب الأنساب والسير والمغازي والتفسير والجغرافيا . وبحوث أمين مدني - في هذا الجانب - مستفيضة دقيقة منظمة ، ويمكن أن نقسّمها على النحو التالي :

١ - الحركة الثقافية بالمدينة المنورة منذ صدر الإسلام إلى العصر الأموي . وقد تناول فيها عناصر الثقافة الإسلامية تفسيراً وحديثاً وعلم القراءة والتجويد والحلقات العلمية بالمساجد ، مع العناية بنشأة التعليم والمدارس وأوائل المعلمين ، وكيف أن علم التاريخ وتدوينه قد نشأ في المدينة على شكل سيرٍ ومغازٍ ، وعلى أيدي : أبان بن عثمان وعروة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، والزّهريّ ، وقتادة ، وابن إسحاق والواقدي ، مع ربطه هذه الأنشطة بثقافة العرب ومصادر هذه الثقافة قبل الإسلام « فما جُمع من أخبار فجر التاريخ الإسلامي العربي ، وما فسّر من أخبار قبل الإسلام تمثّله النصوص التي حققتها مدرسة المدينة »[١] ، حتى ليحق لنا أن نقول : « من المدينة بدأ التاريخ وتدوينه في العصر الإسلامي »[٢] ، كما أنه في « المدينة كتبت السطور الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية ، وفي المدينة وُلدت الثقافة الإسلامية ، ونشأ علم التاريخ عند العرب وبدأ المسلمون يحقّقون القضايا ويدوّنون الأحداث »[٣] .

٢ - كذلك تناول أمين مدني - أيضاً - نشاط القصّاصين والأخباريين ، بما حملوه من قصص صحيح ، وقصص خيالي تافه مستمد من الكتب القدسة . وكيف أن هذا القصص ليس كله

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٩٧ .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .

خيالاً وخرافة ، بل إن منه حقائق أقرَّتها الكشوف الأثرية مؤخراً [1] ، وقد مضى ما عرضنا له من موقفه بإزاء ( الأساطير العربية القديمة ) .

٣ ـ كذلك دافع المؤرخ ـ رحمه الله ـ عن المؤرخين المسلمين ومناهجهم في البحث التاريخي ، وما بذلوه من جهود في النقد والتمحيص ، فضلاً عن جهودهم في الجمع والتدوين والتأليف . إن أمين مدني الذي اتخذ من البحث التاريخي وسيلة للدفاع عن العروبة والإسلام ، قد حرص في هذا النطاق على أن يدافع عن مصادر هذا التاريخ ، ويدلل على وثاقتها ونقائها وسلامتها . وأول مصدر سعى إلى تبرئته والدفاع عنه وتوثيقه هو ( الرواية العربية ) ، التي أحدقت بها الاتهامات ، ولحقتها الظنون من كل مكان .

على أن موقفه من هذه القضية يتسم بالموضوعية والواقعية ، فهو ينظر إلى القضية من وجهين : الأول إبراز جهود المؤرخين في التحقيق والتمحيص ، والثاني العجز عن الفصل في الروايات التاريخية المبالغة الاضطراب ، والتي لم تنهض القرائن والوسائل لحسمها ، وبيان وجه الحقيقة . يقول : « ليس من السهل على من يتصدى اليوم لدراسة التاريخ : الوصول إلى حقيقة لا غبار عليها . فليست البحوث جميعها التي وُضعت عن المؤرخين ومصادرهم صحيحة موفقة غير عاطفية ، وليست جميعها متعمّقة مستقصية في حكمها ضد المسئولين عن القضايا التاريخية ، أو في حكمها لمصلحتهم ، فأنت إذا ما اطلعت على بعض البحوث التي تغريك عناوينها بقراءتها وجدت منها : السطحي المتسرّع ، ومنها العاطفي المتحيز ، ومنها الكشكول الذي يجمع الغث والسمين . . والدريئة التي انهالت عليها الشكوك هي : الرواية العربية التي أصبحت اليوم بين المحققين ككرة القدم بين اللاعبين ، فكما يتقاذف الكرة القوي والضعيف . . كذلك الرواية العربية . . ولا أرى مجحِفاً إن قلت : كثيرةُ التحقيقات التي تحتاج إلى تحقيق والتصحيحات التي تحتاج إلى تصحيح . . » [2] .

٤ ـ وإذا كان الذين هاجموا الرواية العربية ، واتهموها بالضعف قد فضّلوا عليها ( النص الأثري ) ، آخذين برأي المستشرقين ، فإن النصوص الأثرية التي اكُتشفت في العصور الأخيرة ليست جميعها نزيهة من الدعاية سالمة من الغموض » . كما أنها ليست جميعها مبرأة من الشبهات ، بل لا تخلو من الأهواء : أهواء الذين نقشوها ، وبدوافع عنصرية ، أو بدافع العبث أو الشعوذة ، بل إن المستشرقين أنفسهم ـ في عمومهم ـ ليسوا مبرئين من الأهواء .

جهود القدامى ـ إذن ـ لتوثيق الرواية العربية جديرة بالتقدير في جمع النصوص وحفظها وتصنيفها وإسنادها ونقدها ، فضلاً عما تحملوه من المشاق في جمع المادة التاريخية وتدوينها

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ١٩٥ .
(٢) التاريخ العربي ومصادره ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

ونقدها ، ومع هذا فإن المصادر القديمة ، حتى وإن شابها شيء من الأخطاء ، فإن العصر الحديث نفسه لم تسلم مصادره من الأخطاء مع توافر وسائل الطباعة والإعلام .

٥ ـ ومما تصدّى أمين مدني لبحثه ودراسة قضيته أن « العناصر غير العربية لم تخرج الثقافة العربية من عروبتها ، وإنما الثقافة العربية هي التي أخرجت العناصر غير العربية من أعجميتها » . وحول هذه القضية عقد مبحثين هامين ، الأول عن ( الولاء والموالي ) ، والثاني عن ( الشعوبية والشعوبيون )[(١)] . وقد عاد بقضيته الشعوبية إلى جذورها القديمة قبل الإسلام ، فقد مُني العرب في العهد الآشوري بحقد بالغت فيه العناصر التي لم يُرضها النفوذ العباسي العربي ، وفي العصر الإسلامي نجد أخبار التنافس الشعوبي بين الأعاجم والعرب ، لا سيما في المجال العلمي والأدبي .

●●●

وقد أفاض المؤرخ ـ رحمه الله ـ في قضية الشعوبية ، ولكنه لم يربطها بسياق ( المصادر التاريخية ) ، وأثر « الشعوبية في المصادر التاريخية والبحث التاريخي ، ولم يستقص الدعاوى والمفتريات التي أثارتها الشعوبية ضد التاريخ العربي قبل الإسلام وبعده . وبذلك جاءت معالجة قضيته ( الموالي والشعوبية ) غير مبررة منهجياً .

٦ ـ عني المؤرخ ـ رحمه الله ـ برصد مناهج رواد التاريخ العربي والإسلامي وأهدافهم ومصادرهم . فالتاريخ العربي بدأ تدوينه مع تفسير القرآن ، بينما بدأ تدوين التاريخ الإسلامي مع جمع الأحاديث المتصلة بالسيرة والمغازي . وقد جدّ الرواة في جمع المادة من مظانّ مختلفة ، بما في ذلك الكنائس ومدارس السُّريان واليونان وقصور التابعة في اليمن والأسواق العربية ، كما أن من هؤلاء الرواة من عني بالأنساب ، ومنهم من عني بالجغرافية لحاجتهم إلى معرفة البقاع التي كانت مسرحاً لأحداث التاريخ ، ومنهم من عني بالتراجم ، ومنهم من اتجه إلى نقل المصادر الأجنبية إلى العربية .

وقد كان مما جعل مهمة الرواد صعبة ، ما عانته أقطار عربية من وقوع تحت سلطان الغازي الدخيل ، ولولا صلابة الجهد والإصرار ، ما استطاعوا أن يقطعوا الشوط إلى منتهاه .

٧ ـ وفي سياق دراسة جهود المؤرخين ومصادر البحث التاريخي أبرز المؤرخ رحمه الله جهود فريق منهم مثل علماء الأنساب والجغرافيين . وإن لم يُشر إلى مدى الثقة التي ينبغي أن نوليها هذه المصادر .

٨ ـ ترجم أمين مدني عشرين مؤرخاً ، من أوائلهم : كعب الأحبار ( ت ٣٢هـ ) ، ودغفل النسّابه ( ت ٦٢هـ ) ، وعبدالله بن عباس ( ت ٦٨هـ ) ، ومن أواخرهم :

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٢٧٤ ـ ٢٨٨ .

محمد بن إسحاق ( ت ١٥٠هـ ) ، وأبو مخنف الأزدي ( ت ١٥٧هـ ) ، وهشام الكلبي ( ت ٢٠٦هـ ) .

وقد أمدنا المؤرخ بمادة غزيرة تتعلق بجهود هؤلاء الأعلام في التدوين التاريخي ، وعن مؤلفاتهم ومناهجهم ورواياتهم ومصادرهم وتأثيرهم في حركة التأليف . ومع أن بعض هؤلاء الأعلام قد ألم بهم المؤرخ في مباحث سابقة متفرقة . فإنه في هذا الموضع قد سلكهم جميعاً في سلكٍ واحد ، وعني بإبراز حركة التطور في المبحث التاريخي ، كما لم يخلِ الأمر من ملاحظات على جانب كبير من الأهمية يبديها المؤرخ في كثير من ترجماته . فهو - مثلاً - يشير إلى التهم الموجهة إلى كعب الأحبار برواية الأباطيل والقصص الخيالي ، ويسعى - في إيجاز إلى تبرئته[1] ، وكذلك الأمر في تبرئة الصحابي الجليل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما[2] ، إذ يشير إلى سمتين هامتين هما : النزاهة والتقصي ، مستدلاً بموقفه من قصة الذبيح : أهو إسماعيل أم إسحاق ؟ كما يشير إلى تنوع مصادر أخذه ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم ، والراسخين في العلم بالأسفار ، وعن الكتب المقدسة ، كما يشير إلى تنوع ثقافته واتساعها ، بين التفسير والحديث والتاريخ والفقه والأخبار والأشعار ، وإلى دخول مروياته أيضاً شتى المصادر الإسلامية المنوعة : تفسيراً وتاريخاً وحديثاً وفقهاً وسيراً ومغازي .

●●●

هكذا لم يقف أمين مدني - رحمه الله - عند الترجمة لحياة الشخصية ، وإنما عني عناية خاصة بثقافتها وجهودها في علم التاريخ ، والقضايا التي أثيرت حول الشخصية ، كما سعى إلى توثيق ما أثر عنها ، وتوهين ما رمُيت به من المطاعن . وجهود أمين مدني في ذلك كله تتسق تماماً مع هدفه في سبيل توثيق المصادر الإسلامية ، وتبرئتها من الشبهات والمطاعن .

ومن الجدير بالذكر في هذه الترجمات - وفي بحثه التاريخي بشكل عام - موقفه من قضيته ( الإسرائيليات ) ، التي دخلت المصادر الإسلامية على اختلافها ، وبخاصة المصادر التاريخية . وهو ما سوف نتناوله بشكل موسّع عند الحديث عن خصائص منهجه في البحث التاريخي .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٣٤٧ - ٣٥٢ ، وكعب تابعي كان في جاهليته من أكبر علماء اليهود في اليمن . أسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه ، وتوفي بالمدينة عام ٣٢ للهجرة .
(٢) نفسه ص ٣٥٧ - ٣٧٠ .

## ٦ ـ المستشرقون وعلماء الآثار والجيولوجيا :

أما الاستشراق ، فقد تتبع نشأته ، وربطه بحركتي التبشير والاستعمار ، وقد وقف الباحث ـ رحمه الله ـ على مثالب حركة الاستشراق ، من جهل اللغة العربية ، وتعصب ضد الإسلام والعرب ، واستغلال بعض الآراء الضعيفة في كتب العلماء القدامى ، هذا بالاضافة إلى بعث الشك في ( الأسفار ) ، وبعض الحقائق الدينية الصحيحة الواردة فيها ، مع « ثقتهم في النص اليوناني في أكثر مما يثقون فيما جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن »[(١)] .

ومع إقراره ـ رحمه الله ـ بمواطن الضعف في آراء المستشرقين ، بسبب الهوى ، أو جهل باللغة العربية ، كما أسلفنا ، فإنه لم يقف منهم موقف الرافض ، وإنما انتهى الأمر به إلى موقف واقعي متعقل ، خلاصته :

أ ـ أن عقلية المستشرقين وظنونهم تخطىء وتصيب .
ب ـ ومع هذا ، فإن كل باحث في التاريخ لا يكترث بما وصلت إليه بحوث المستشرقين هو : باحث ضيق الأفق ، كما أن كل باحث لا يعتمد على غير النتائج التي وصل إليها المستشرقون ولا يكترث بالنصوص العربية هو : باحث سطحي قصير النظر[(٢)] .

●●●

أما الآثار ونصوصها والجيولوجيا ونظرياتها ، باعتبارهما مصدرين مهمين من مصادر البحث التاريخي الحديث ، فإن لأمين مدني ـ رحمه الله ـ من هذين المصدرين موقفاً مهماً يتسم أيضاً بالوعي والموضوعية ، إذ يرى أن الكشوف الأثرية قد أماطت اللثام عن كثير من حقائق التاريخ الغامضة ، والتي كان الباحثون الأوروبيون ينكرونها يوماً ما ، هذا إلى أن تلك الكشوف قد أيدت بعض ما ورد في القرآن الكريم من تاريخ الأنبياء والشعوب القديمة .

أما علم الجيولوجيا ، فإنه هو الآخر ، قد حقق نتائج علمية هامة للبحث التاريخي ، إذ قدّر عدد السنين لظهور آدم وحوّاء بالنسبة لتاريخ ميلاد المسيح عليه السلام ، وعيّن أزمنة الدول ، واكتشف المعادن في مناطق تحدث التاريخ عن ثراء أهلها وعن حضاراتهم الصناعية والتعدينية المزدهرة . يقول رحمه الله : « ولقد أصبح اليوم لزاماً على الباحث في تاريخ الماضي القديم : أن يستنير بنظريات الجيولوجيين ونتائج تحقيقاتهم ، ولزاماً عليه ألا يغفل

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥٧٦ .
(٢) وانظر السابق ص ٥٧٩ .

النصوص الأثرية إذا ما أراد أن يصور حقائق الماضي ، ولقد امتدت آفاق البحث التاريخي ، وتعددت جوانبه ، وتحتم على التحقيق : ألا يقتصر على مؤلفات القدامى »[١] .

●●●

وبعد :

فتلك صورة مجملة الملامح لموقف المؤرخ - رحمه الله - من شتى المصادر التاريخية : قديمها وحديثها ، وموقفه هنا وهو يتناول المصادر بالدراسة والبحث ، وإبداء الرأي ، سوف نرى أنه هو موقفه مع تلك المصادر ، وهو يتعامل معها ، ويأخذ عنها ويناقش آراءها ، ويقابل بين تلك الآراء . سوف نجد - حين نتناول بالدراسة منهجه في استخدام المصادر - أن ثمة اتساقاً بين النظرية والتطبيق .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن كتابه ( التاريخ العربي ومصادره ) ، الذي أوقفه بتمامه على دراسة مصادر التاريخ العربي ، يدل على وعي منهجي بالأساس ، الذي ينبغي أن يقيم المؤرخ عليه بحثه .

ثمة حقيقة أخرى ، وهي موضوعيته ودافعيته في الأعم الأغلب في النظر إلى هذه المصادر ، فضلاً عن معرفته الدقيقة بطبيعتها ، ومنهجها ، ومزاياها ومثالبها ، والقوانين الأساسية التي حكمت تلك المصادر ووجهتها . لهذا لم نجرّب عليه شططاً أو لهجة متشنجة حادة ، إن رأى في هذا المصدر أو ذاك ما يخالف الحق والحقيقة . كما لم ينزلق إلى العصبية والمعاداة . فالتيار العلمي الوقور المتزن ، هو السائد لديه . وسنرى أنه بذلك خدم التاريخ العربي والإسلامي بما لم يتحقق على أيدي الرافضين والمتشنجين ، المجازفين أبداً بالتهجم والاتهام والازورار .

❊ ❊ ❊

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥٨١ .

# الفصل الخامس

## أمين مدني مفكراً إسلامياً

ينبع مفهوم الثقافة الإسلامية لدى أمين مدني ـ رحمه الله ـ من طائفة من التصورات الأساسية : حكمت منهجه في البحث التاريخي بشكل عام ، وقد اضطررنا في غير موضع إلى توضيحها ، نظراً لأهميتها ، وتكرار الحديث عنها في مؤلفات المؤرخ أيضاً . ويمكن أن نوجز هذه التصورات الأساسية فيما يلي :

١ ـ العلاقة العضوية التبادلية بين الدين والثقافة ، فمعرفة الله هي أساس الأديان ، والأديان هي نواة الثقافة . وقد انتهى إلى هذا التصور ، منذ بدأ بحثه وتأمله في التاريخ العربي قبل الإسلام ، حيث لاحظ الرابطة الوثيقة بين الدين والحضارة ، وبين الدين والثقافة .

وحين انتقل إلى ( التاريخ الإسلامي ) ، تأكدت هذه الحقيقة لديه في كتابيه ( التاريخ الإسلامي ومصادره ) ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض ما ورد فيه بهذا الشأن . ثم في كتابه ( الثقافة الإسلامية وحواضرها ) ، فالقرآن الكريم ـ وهو أوثق مصادر التاريخ وأصدقها ـ كان المحرك الأول للثقافة الإسلامية ، والحافز على وجودها في مجالات شتى ، فالقرآن ـ على حد تعبيره ـ « رسالة للعقل وأصل للثقافة » .

٢ ـ عراقة الثقافة العربية والحضارة العربية والتدين في البيئة العربية . فالعرب الذين أسهموا بقسط وافرٍ في صنع ثقافة إسلامية ؛ كانت لهم منذ أقدم عصور التاريخ ، ثقافة عريقة ، وحضارة عريقة ، تشهد بها شواهد القرآن ، والآثار المكتشفة حديثاً . وقد ضاعت هذه الثقافة ، وإن بقيت أطلال لها ونصوص دالة عليها ، لعل من أشهرها نص ( حصن الغراب )[١] .

●●●

على أن كتابه ( الثقافة العربية وحواضرها ) ، يعد أبرز مؤلفاته شمولاً لآرائه في الثقافة الإسلامية ، والفكر الإسلامي . ومن هنا رأينا أن نقوم دراستنا هنا على عرض لأساسيات هذا الكتاب ، واستقصاء لأهم المباحث والقضايا الواردة فيه :

قسم المؤلف كتابه ذاك إلى قسمين :

القسم الأول : دراسة نظرية عامة للثقافة الإسلامية ، في قضاياها وطوابعها وأصولها العامة .

القسم الثاني : دراسة تاريخية تطبيقية ، حاول ـ من خلالها ـ أن يستقصي حواضر الثقافة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس ، وفي بلدان المشرق العربي .

---

(١) وانظر تفاصيل هذا النص الأثري الهام في : التاريخ العربي وجغرافيته ٣ / ٢٣٤ .

أما القسم النظري ، فقد أقامه على العديد من القضايا الأساسية العامة هي :
١ ـ قضية الأحاديث الموضوعة .
٢ ـ الاجتهاد في الفقه الإسلامي .
٣ ـ التجديد والمحافظة في الثقافة الإسلامية .
٤ ـ الفنون ، والخلاف حولها .
ونحاول فيما يلي أن نستخلص ـ بإيجاز ـ رأيه في كلٍ من هذه القضايا الأربع من :

## القسم الأول من الكتاب :

### ١ ـ قضية الأحاديث الموضوعة :

وقد عالجها ـ في إيجاز شديد ـ من جوانب شتى ، منها : أسباب وضع الأحاديث ، والأخطار التي نجمت عنه ، والجهود التي بذلها علماء السنة لتوثيق رواية الحديث ، وتوقي الروايات الموضوعة .

أما عن أسباب الوضع ، فقد عزاها إلى الحزبية الدينية والسياسية ، وإلى حركة التصوف . ولم يورد أسباباً أخرى ، مع أن من بينها الشعوبية ، والزندقة ، وحركة المنافقين ، والغفْلة المفضية إلى الإسراف في حسن الظن ، وإلى غير ذلك من الأسباب .

وغير خافٍ ما نتج عن ( وضع الحديث ) من انتشار الآراء الفاسدة في الفقه والعقيدة والآداب ، وما صاحب ذلك من انتشار الشك ، واضطراب الرأي ، وتوالد الفتن .

وقد بذل علماء الحديث جهوداً جبّارة في سبيل تنقيته من الوضع والدسّ ، منها على سبيل المثال : تأليف الكتب في الأحاديث الموضوعه ، كالموضوعات لابن الجوزي ( ت ٥٩٧هـ ) واللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، لجلال الدين السيوطي ( ت ٩١١هـ ) ، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ، كما صنفوا درجات الأحاديث ، وجعلوها مراتب ، منها الصحيح والحسن والعزيز والغريب والمرسل والمنقطع والضعيف . هذا إلى جانب كتب رجال الحديث ، التي كشفت أحوال الرواة ، ودرجات عنايتهم أو غفلتهم ، أو قلة أمانتهم .

●●●

### ٢ ـ الاجتهاد في الفقه الإسلامي :

وفي هذا المبحث الهام ، حرص المؤلف رحمه الله على إثبات مرونة الفقه الإسلامي ، وقابليته للتطور ، حتى يمكنه أن يواجه كل جديد مستحدث من حاجات العصر

وضروراته ، وما قد يتطلبه ذلك من المواجهة الواعية ، بالرأي المتجدد ، والاجتهاد المتطور . ولعل من أدق هذه الحاجات المستجدة ، قضية المصارف والشركات المساهمة ، التي خصها ـ رحمه الله ـ بكتاب كامل حمل هذا العنوان(*) . وقد شدّد المؤلف النكير على الجمود ، جمود فريق من الفقهاء ، ممن تجاهلوا مرونة الفقه الإسلامي وقابليته للتطور ، وما طرأ من حاجات وضرورات في عصرنا ، اقتضت فتح باب الاجتهاد .

●●●

## ٣ ـ قضية التجديد والمحافظة في الثقافة الإسلامية :

وقد عرض المؤلف بالدراسة لجوانب مختلفة من خصائص الفكر الإسلامي ، ومن هذه الجوانب :

- أن الريادة الثقافية من أخطر المسئوليات .
- أن الإسلام يدعو إلى الاعتدال .
- أن الجمود والجموح قد أضرّا بالعقلية الثقافية .
- السياسة الإسلامية في القرآن الكريم .
- أن التشريع الإسلامي قضائي وسياسي .

أما الريادة الثقافية ، فالمراد بها ، دراسة المسئولية التي يضطلع بها علماء المسلمين وسائر التربويين والإعلاميين وأساتذة الجامعات ، فالتثقيف والتقويم من أخطر المسئوليات[1] .

وهؤلاء الرواد فريقان : أحدهما جامد متصلب العقل ، والثاني متطرّف بعيد عن كل توجه إسلامي .

على أن الإسلام ـ بعدُ ـ دينُ اعتدال وتوسُّط ، فلا ينبغي أن يقوم في المجتمع الإسلامي متشددون جامدون ، ولا متطرفون جامحون . أما تراث الإسلام الثقافي ، فقد أصبح الحفاظ على أصالته وتنقيته من الدخيل ، من أعقد المشكلات التي تواجه المتخصصين ، وبخاصة ما يتعلق منها بقضايا العقيدة مثل : القضاء والقدر ، ومشكلة القول بخلق القرآن ، هذا إلى ذلك الحشد من الفِرق الإسلامية ، كالقدرية والجبْرية والجهْمية والمرجئة والمعتزلة والفلاسفة .

---

(١) الثقافة الإسلامية وحواضرها ص ٤٨ .

(*) للمؤلف رحمه الله وأجزل مثوبته رأى في مسألة ما يسمى بأرباح المصارف ، لا نقره عليه . . وموضوع الكتاب لا يدخل في بحثنا ، الذي قصرناه على التاريخ .

وإذا كانت هذه التيارات القديمة قد اعتمدت على الجدل والمناظرة ، أو على الحرب والسيف ، فإن تيارات التشكيك ومعاداة الإسلام - في العصر الحديث - كالماركسية والوجودية والصهيونية ، تجد من المساندة الشيء الكثير[1] .

وقد عرض أمين مدني - رحمه الله - لبعض جوانب التشريع السياسي الإسلامي . ويمكن الانتهاء إلى بعض النتائج في هذا الجانب نوجزها فيما يلي :

١ - أن الإسلام قد ربط بين الدين والدولة ، وهذا فارق جوهريٌ بين الإسلام والمسيحية ؛ التي قامت على تدين الرهبانية ، ولم تتضمن - في شريعتها الدينية - تشريعات سياسية . والإسلام دين سلام وجهاد ، وهذا فارقٌ آخر بينه وبين المسيحية ؛ التي بُنيت على السلام دون جهاد أو قتال . والجهاد في الإسلام مبنيٌ على رد العدوان ، وليس العدوان . نجد ذلك في نصوص القرآن الكريم ، كما نجده أيضاً في أحداث التاريخ ، كصلح الحديبية ، حين رأى النبي - صلوات الله وسلامه عليه - رؤيا الفتح ودخول البيت الحرام ، فكان موقفه صلوات الله عليه مرناً ، إذ قَبِل الصلح ، ومهادنة العدو ، ثقة منه بوعد الله له[2] : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسكم ومقصِّرين لا تخافون ، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا ﴾[3] .

إن ( صلح الحديبية ) إذن بكل أحداثه وملابساته يجسِّد قاعدة الاعتدال في السياسة الإسلامية ، فلا اندفاع ولا تخاذل . ولكن تثبُّتٌ وتعقّلٌ مع الطمأنينة إلى جنب الله عزّ وجلّ .

وكما وضع الإسلام تشريعاً في السياسة والقضاء معاً ، وبذلك لا يتعارض الدستور السياسي في الحكم مع تشريع الحقوق في القضاء ، فإن المصدر التشريعي لهما واحدٌ ولا يتعارض ذلك مع توزيع الاختصاصات « فللسياسة رجالها وللقضاء رجاله » ، وكلاهما يستمد الحكم من كتاب الله تعالى .

على أن الميزة الكبرى التي يتميز بها التشريع الإسلامي السياسي ، قيامه على قاعدة ( العقيدة الدينية ) ، قاعدة الإيمان بالله ، التي بنى المسلمون عليها صروح دولتهم الوطيدة في الماضي . إن كل « كيان لا يقوم على قاعدة صلدة من الصعب الحفاظ عليه . . وهذه هي القواعد التي أسست على ثقة وإعجاب الجماهير ببطل من أبطال التاريخ وأفذاذه . . وهذه القواعد سرعان ما تتصدّع بموت البطل الذي أعجبت به الجماهير . . »[4].

---

(١) الثقافة الإسلامية وحواضرها ص ٤٨ .

(٢) نفسه ص ٦١ .

(٣) سورة الفتح آية ٢٧ .

(٤) الثقافة الإسلامية وحواضرها ص ٦١ .

## ٤ ـ الفنون والخلاف حولها :

وتلك هي القضية الرابعة من القضايا التي تحدث المؤلف عنها ، بعد إذ تحدث عن : الأحاديث الموضوعة ، والاجتهاد في الفقه الإسلامي ، والتجديد والمحافظة على الثقافة الإسلامية ، وقد اتجه أمين مدني إلى نوع واحد من الفنون ، وهو « فن الغناء » .
وواضحٌ أن أمين مدني ـ رحمه الله ـ ممن أقروا الغناء ورأوا إباحته مالم يكن مُسفّاً مبتذلاً . يقول ـ رحمه الله ـ « ولا يخال البحث أن واحداً من المتساهلين ، أو واحداً من المحافظين ينكر أن في ديننا فسحةً ، وأن ليس في ديننا رهبنة ، وأن الإسلام يحبِّب الترويح عن النفس والمرح النزيه ، وترويض الجسم »(١) .
وإذا كان الباحث ـ رحمه الله ـ قد طرح موضوع الغناء في كتاب عن ( الثقافة الإسلامية ) ، فقد عَدّ ( الغناء ) داخلاً في سِفْر الثقافة الإسلامية ، ولم يتحرّج من أن يناشد المسئولين عن الثقافة الإسلامية ، أن يضعوه « في إطار الفن الإسلامي » . وله ـ رحمه الله ـ رأيه .

●●●

ذلك عرض موجز للقسم الأول من الكتاب ، حاولنا أن نستخلص عناصره الأساسية .
وأول ما يسترعي الانتباه : ما يتسم به فكر أمين مدني من نزوع إلى التجديد ومرونة التصور والاجتهاد ، فهو لا يفتر عن مناشدة ( رواد الثقافة ) ترك الجمود والتشدّد ، ومواجهة العصر بمستجداته ومستحدثاته مواجهة تتطلب المرونة وسعة الأفق .
ويستشعر قارىء كتاب ( الثقافة الإسلامية وحواضرها ) عناية المؤلف ـ رحمه الله ـ بقضية الاجتهاد ، وتكراره القول فيها ، وهو ما يبرز بشكل تطبيقي في كتاب آخر يحمل عنوان ( الاستثمار المصرفي . . شركات المساهمة في التشريع الإسلامي ) حيث حاول فيه ـ عن طريق الاجتهاد ـ الانتهاء إلى صيغة معقولة للمصارف والشركات المساهمة توفّق اجتهادياً بين مبادىء الشريعة وحاجات العصر المستجدة على الساحة . كما يلحّ بشكل واضح على ضرورة الاجتهاد ، ويرى أن الاجتهاد لو صح أن يُقفَل في فقه العبادات ، فإن فقه المعاملات يرتبط أشد الارتباط بالحاجات المتجدّدة . وهو مع هذا لا يجعل أمر الاجتهاد مفتوح الباب لكل طارق ، بل لابد من أن تتوافر للفقيه المجتهد مؤهلات الاجتهاد والفُتيا ، كما يجب أن يناط الاجتهادُ بهيئةٍ علمية من فقهاء ذوي خبرة وكفاءة .
ولعل من أقوى عبارات تحذيره من الانغلاق والجمود قوله رحمه الله : « إن مواجهة كل جديد بسلبيةٍ جافةٍ جامدة لا يسدُّ الطريق في وجه الجديد ، بل هو على العكس يتيح له

---

(١) الثقافة الاسلامية وحواضرها ، ص ١٠١

الانتشار ، لأن الرغبة في التطور تملأ النفوس ، فإذا لم يُدرَسْ الجديد بكثير من الواقعية . . فإن الجماهير سوف تدير ظهرها للسلبية لتستقبل الجديد بغثّه وسمينه . . مع أن التطور لا يعني التنكّر للعقيدة وإنكار مواقف الإسلام من اليهودية والمسيحية »[1] .

## القسم الثاني من الكتاب :

أما القسم الثاني من كتابه ( الثقافة العربية وحواضرها ) ، فهو دراسة تاريخية جغرافية لمواطن الثقافة الإسلامية ومراكزها الكبرى في الأقاليم المختلفة عبر العصور الإسلامية المتقدمة ، من أقصى المشرق الإسلامي ، فيما وراء النهر وخراسان والأفغان والسِّند ، إلى أقصى المغرب على المحيط[2] .

ففي دراسته لبلدان ما وراء النهر وغيرها في أقصى المشرق ، رسم الحدود الجغرافية لكل إقليم ، ثم رسم صورة تاريخية عامة لحواضر الثقافة الإسلامية بها ، وربَط بين حاضر الثقافة الإسلامية في هذه الأقاليم ، وبين ماضيها ، حيث مُنيت الثقافة الإسلامية بخسارة فادحة ، بعد استيلاء روسيا الشيوعية على أجزاء غالية من هذه البلدان .

وقد كان للمسجد في كلٍ من ( بخارى ) و ( نَيْسابور ) مثلاً ؛ مكانة الجامعات في عصرنا ، فرُوّادها من طلاب العلم يقصدون حلقاتها ، ويحصلون على ما يعادل ـ اليوم ـ درجة ( البكالوريوس ) ، فإذا أراد الطالب بعد إنهاء هذه المرحلة الدراسية ، أن يحصل على ما يوازي الدراسات العليا في عصرنا ، توجّه إلى المدينة ومكة أو إلى الكوفة والبصرة وبغداد ، أو إلى الفُسطاط في مصر ، إلى غيرها من حواضر الثقافة والعلم في المغرب العربي .

وقد عرفتْ مدينة ( بخارى ) اثنين من أنبـغ علمائها ، همـا أبو حفص البخـاري ( ت ٣٢٧هـ ) أحد تلاميذ أبي حفص الإمام البخـاري المحدِّث الشهـير ، وصاحب الصحيح . ومن العلماء الذين تلقوا العلم في بخارى ( ابنُ سينا ) الطبيب الفيلسوف ، ومنذ تولي إمارة بخارى ( مير عالم ) سنة ١٣٠٨هـ ، الذي تربى في مدرسة ( سانت بطرسبرج ) الحربية ، منذ هذا التاريخ ، بدأت المعالم الإسلامية في ( بخارى ) المسلمة تختفي شيئاً فشيئا .

أما نيسابور ، فأولُ حاضرة إسلامية عرفت المدارس في رأي بعض المؤرخين ، وأما سجستان ـ وهي خراسانية ـ فيذكر المؤرخون أن ( محمود سبكتكين ) أحد حكامها جمع علماءها ، وكلّفهم بتأليف تغير شامل للقرآن الكريم .

---

(١) الثقافة الاسلامية وحواضرها ، ص ٦٩

(٢) وانظر البحث الثالث : حواضر الثقافة في المشرق الإسلامي وشماله ص ١٧٠ ـ ٢٤١ .

وهكذا تتبّع المؤلف ـ رحمه الله ـ نشاط الثقافة الإسلامية في حواضرها المختلفة ، متحدثاً عن العلماء وحركة التعليم وحركة التأليف ، وعن المساجد والمدارس والمكتبات ، والحكام الذين شجعوا الحركة العلمية ، وأسهموا بالمال ومجالس العلم في تنشيطها والنهوض بها .

ومع وجازة العرض ، وسرعة التسجيل ، فإن المؤلف قد استطاع أن يجول بالقارىء عبر مساحات المكان والزمان جولات ـ وإن تكن سريعة ـ لكنها ألمت بالحركة العلمية في نماذجها المختلفة وأماكنها المتباينة ، ومساحاتها الشاسعة .

●●●

ولعل أول ما يلفت الانتباه تلك العناية المتميزة ، التي أولاها الباحث للمدينة المنورة ، فخصها بثماني عشرة صفحة في موضع ، ثم عاد إليها في مواضع متفرقة من الكتاب ، فهو مشدود دائماً إليها ، حفياً بذكرها ، والإشادة بأمجادها ، بل هو يفضلها عن كافة الحواضر ، فيقول : « وكل حاضرة من هذه الحواضر لم ترْق لمستوى حاضرة الإسلام الأولى : ـ المدينة المنورة ـ في حياة النبي وأيام أبي بكر وعمر إلى نهاية العهد الأموي والعباسي ، فدمشق لم تزاحم المدينة كما زاحمت بغداد ودمشق » . كما يقرر أن المدنيين « هم الذين وضعوا أساس الثقافة الإسلامية بلا مراء » .

وفي الموضع الذي خصّه ـ أساساً ـ للحديث عن المدينة المنورة ، يوافينا في حواشي البحث بتراجم اضافية مفيدة لطائفة من علمائها ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : السيد أحمد برزنجي ، والسيد جعفر برزنجي ، والشيخ محمد العزب ، وعبدالغني المجدّدي ، وإبراهيم الأسكوبي ، والعربي زرّوق ، والشيخ عمر كردي ، وغيرهم[1] .

وما يزال أمين مدني على دأبه في ربط الماضي بالحاضر ، فهو يتوقف عند بلاد ما وراء النهر وغيرها من بلدان المشرق ، ليذكر ما تعانيه من حرب ، ضدّ العقيدة وتربصٍ بالثقافة الإسلامية .

كذلك يعني ـ كعادته ـ بقضية الغزو الثقافي ، وموقعها من قضيته : ( الأصالة والتجديد ) ، فيتناول موضوع تتريك الثقافة الإسلامية ويشير إلى أن ( الروافد التي خالطت نبع الثقافة الإسلامية ) ليست كلها عذبة نقية ، إذ أن بعضها حمل معه شوائب وزبداً شغلا أقلام الرواد : تحقيقاً وتفنيداً . وما أكثر ما حمله فيضان العصر إلى المشرق الإسلامي )[2].

على أن من الركائز الفكرية الهامة ، التي سعى رحمه الله إلى تأكيدها وترسيخها ، أن ( القرآن الكريم ) ، هو الأصل في الثقافة الإسلامية ، وأن العلوم الإسلامية قد نشأت خدمة لكتاب الله ، وامتثالاً لأمر الله في كتابه بالتفكر والنظر المتأمل .

---

(١) بلغ عدد هؤلاء العلماء الذين أوردهم المؤلف بالحاشية ستة عشر عالما وانظر ( الثقافة العربية وحواضرها ) ص ١٢٥ مبحث ( المدينة المنورة المهد والمنطلق ) .

(٢) الثقافة العربية وحواضرها ص ٢٥٠ .

هكذا نجد كتاب ( الثقافة الإسلامية وحواضرها ) يؤكد بشكل علميٍ واضحٍ أن ( البحث التاريخي ) ليس مجرد سردٍ للأحداث ، بل هو استخلاص واستنباطٌ للدلالات ، وللتيارات التي تدفع هذه الأحداث وتحرّكها . كما أن التاريخ ينبغي ألا يكون حضور الماضي بذاكرته وذكرياته ، بل هو حضور الحاضر ، وامتداد لجسر الزمن عبر الماضي والحاضر والمستقبل . كما أن التاريخ الإسلامي على وجه الخصوص لا سبيل إلى فهمه إلا بتصوّرٍ إسلامي شاملٍ دقيق يتميز بقدر كبير من النقاء والصفاء .

هذا إلى أنَّ هذه الصورة الشاملة المركزة لحواضر الثقافة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها ، كما رسمها المؤرخ في كتابٍ صغير ، قد نجحت إلى حدٍ كبير في إبراز وحدة المعرفة الإسلامية ، في ارتكازها المنيع على وحدة العقيدة الإسلامية ، وكيف أن الإسلام دين بريء من التفرقة ومن الحدود الإقليمية ، وكيف أن كل العناصر الإنسانية والبشرية قد أقبلت عليه ، ثم أخذت من الإسلام وأعطت ، لتثبت بذلك قابلية الفكر الإسلامي للتشكل في إطار محكم من العقيدة .

***

# الفصل السادس

## في المنهج والمصادر

# في المنهج

قلنا في مبحث ( أمين مدني ومصادر التاريخ ) : « الحديث عن مصادر التاريخ عند أمين مدني ـ خاصة ـ ينصرف إلى جانبين اثنين مهمين :

الجانب الأول : هو دراسته لمصادر التاريخ العربي القديم ، وموقفه من كل نوع ، وترتيبه هذه المصادر من حيث أهميتها .

الجانب الثاني : يتعلق بمنهجية أمين مدني في التعامل مع مصادر بحثه ، من حيث طريقته في توثيق نقوله عنها ، والاستكثار أو الإقلال من النقل ، وتنوع مصادره أو عدم التنوع ، والثقة ببعضها أو عدم الثقة ، وطريقته في طرح آراء الآخرين ومناقشتها . والعناية بذكر المصدر ومؤلفه معاً ، أو الاكتفاء بأحدهما » . ونضيف ـ هنا إلى ما تقدم ـ طريقته في اختيار المصادر ، ومدى تصوره لطبيعة المصدر ، وشخصية مؤلفه : مادةً ومنهجاً .

●●●

وإذا كنا ـ فيما سبق ـ قد تناولنا بالدراسة بحوث أمين مدني في مصادر التاريخ العربي القديم ، وموقفه منها ، فإنا هنا نتناول منهج أمين مدني في التعامل مع المصادر ، بعد أن نتناول بشكلٍ عام منهجه في البحث التاريخي .

لقد عني أمين مدني ـ رحمه الله ـ بالمنهج عناية كبيرة ، فهو حريص على تصنيف مادته العلمية ، حريص على دقة تنسيقها . إذ هو يقسِّم كتبه الثلاثة في سلسلة ( العرب في أحقاب التاريخ ) لينهض كتاب منها ببدايات التاريخ العربي : ديانةً ولغة وأدباً وحضارة وثقافة ، بينما يستقل الكتاب الثاني بدراسة مصادر التاريخ العربي ، وثالث بالتاريخ العربي وجغرافيته . ثم يقسِّم كل كتاب من هذه الكتب الثلاثة إلى فصولٍ ومباحث ، وهو تقسيم مركب ، يطابق التقسيم الذي ينهض على أبواب وفصول .

ويشعر القارىء أن كل شيء في مكانه تماماً ، وأن الإطار العام لكل كتاب من هذه الكتب الثلاثة دقيقٌ غاية ما تكون الدقة ، مُحْكم غاية ما يكون الإحكام .

إن الأمر الذي لا شك فيه أن ( خطة بحثٍ ما ) ، تعكس خاصية الفكر لدى صاحبه ومدى قدرته على السيطرة على مادة بحثه ومصادره ، ومدى قدرته على التعامل مع المادة وتنظيمها وتحليلها واستنباط النتائج . وسوف نرى أن خطة أمين مدني في بحوثه التاريخية ، تعكس ـ لديه ـ خاصية الفكر المنظم ، القادر على الاستبطان ، واستنطاق الدلالات ، مما يعين على الظفر بالنتائج المنبثقة منطقياً من مقدماتها .

ويحرص أمين مدني أيضاً ـ خضوعاً لخاصية التخطيط المنهجي الدقيق ـ على أن يجعل لكل كتاب من كتبه التاريخية الثلاثة ـ مقدمة تتصدر البحث ، وخاتمة تذيّله . ففي المقدمة يسجّل الدوافع والأهداف ، والخطوط الأساسية للمنهج ، إلى جانب ما قد يثيره من القضايا العامة ، وما يشير إليه من المصادر ، أو أبحاث الآخرين ، وما صادفه من مشاق .

أما خاتمة الكتاب ، فتأتي رصداً دقيقاً منظماً للنتائج العلمية التي توصل المؤرخ إليها بعد جولته الطويلة الشاقة في دروب البحث التاريخي ، وهو يعمد إلى إجمال هذه النتائج ، وترقيمها ، وتقسيمها في غاية الدقة ، ولتأخذ لذلك مثالاً موضحاً من كتابه ( التاريخ العربي وجغرافيته ) ، فهو في مقدمة الكتاب ، وقد أطلق عليها ( التوطئة ) ، يوضح بعض دوافعه لتأليف هذا الكتاب ـ بعد أن بسط الحديث عن هذه الدوافع في مقدمتي كتابيه ( التاريخ العربي وبدايته ) ، و ( التاريخ العربي ومصادره ) .

يقول في مقدمة ( التاريخ العربي وجغرافيته ) : « . . ففي بحوث المتقدمين حقائق تزيل ما حاول الاستعمار القديم والحديث أن يرسّخه في عقول الكثيرين من الذين انصرف فهمهم إلى أن العراق وسورية ليستا من الجزيرة العربية وأن دلتا النيل وضفته الشرقية لا تمتان بصلة إلى العرب والعروبة »[1] .

« فلإزالة هذه الشوائب من المفهوم العام وضعت هذا الجزء ـ التاريخ العربي وجغرافيته ـ ولأجل أن يكون القارىء على بيِّنة لم أبالغ له في مقدمتي الجزأين السابقين . . » .

ثم يبين المؤرخ أنه عمد في كتابه ذاك إلى الإجابة عن العديد من التساؤلات منها : « هل نحن نعيش على جزيرة ؟ أو على شبه جزيرة ؟ أقوالٌ لها قيمتها لأنها لم تترك في ظلمات الشكوك أطراف هذه الجزيرة ـ أمِّ البلاد العربية ـ جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً ، وأقوال لها قيمتها لأنها لم تجهل : معالم الحدود الطبيعية لأقسام الجزيرة السبعة ـ لا سيما الحجاز ، ونجد واليمن وتهامه والعروض ، هذه الأقسام الخمسة التي كان حظها لدى الجغرافيين العرب أوفر من بقية أقسام الجزيرة : الهلال الخصيب ، ومصر العمليقية ، لأن الاستعمار الفارسي والرومي الذي جثم زمناً طويلاً على الهلال الخصيب ، ومصر ، جعل الغالبية من جغرافيي العرب ومؤرخيهم ـ في أكثر أقوالهم ـ يعتبرون العراق فارسياً ، وسورية رومية ، ومصر جميعها فرعونية خضعت للاستعمار البيزنطي ، مثلما جعل الاستعمار الحبشي الذي تسلط على اليمن . . علماء اللغة العربية يقولون : ما لغة حمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا . . »[2] .

لقد أراد المؤرخ رحمه الله ـ إذن ـ أن يصحح أوهاماً غشيت تاريخ الجزيرة ، وأن يحدد أيضاً الحدود الدقيقة للجزيرة العربية ، وعلى الأمرين معاً كان أمين مدني يصدر عن ولاء وانتماء للجزيرة العربية التي أولاها حبه ، ووقف حياته على دراسة تاريخها وإثبات عراقتها لغة وعقيدة وحضارة وثقافة . وهو بعدُ حريصٌ على توضيح أهدافه في المقدمة .

---

(١) ص ٩ .

(٢) ص ١٠-١١ .

كذلك كان من أهدافه تصحيح قراءة النصوص القديمة ، وتخليصها من أوهام القراء . تلك الأوهام التي ترتب عليها أغلاط كثيرة ، أغلبها يتعلق بتحديد المواضع ، كما أشار إلى تلخيصه أقوال بعض جغرافيي العرب القدامى ، وما رآه مفيداً من نتائج الدراسات الحديثة التي عنيت بتقويم البلدان ، وإلى عنايته بإبراز جهود الجغرافيين العرب وإضافاتهم إلى جهود اليونان . وتسجيله تاريخ هذه الجهود وتواصلها : بداية وتطوراً[١] .

هكذا يستطيع قارىء الكتاب من مقدمته أن يتعرف الكتاب على إجماله ، سواء في المادة أم في المنهج ، أم في الأهداف والقضايا .

●●●

أما نتائج البحث ـ ويسميها المؤرخ : نهاية المطاف ـ فقد رصدها مجملة محددة في نهاية الكتاب ، ومنها تحديد الجزيرة العربية ، حيث أثبت أنها تشمل « الهلال الخصيب » ، و « مصر العمليقية » . كما أثبت أنها شبه جزيرة وليست جزيرة تامة . ومنها تصحيح أوهام وقع فيها الجغرافيون حديثاً ، نتيجة عدم فهم لنصوص القدماء[٢] . ومنها ـ أيضا ـ الدفاع عن تاريخ العرب في مواجهة شبهات الخصوم ، في كثير من المسائل التي تتعلق بهذا التاريخ .

وربما كان من أهم ما سجله الباحث من النتائج ، ما يتعلق بالسلسلة كلها ، أعني سلسلة : ( العرب في أحقاب التاريخ ) هي وفاؤها بموضوعات لم يتناولها من كتبوا عن جزيرة العرب قبل أمين مدني ، حيث أنهم « لم يقدموا مؤلفات متكاملة لمصادر تاريخ الشرق العربي . . ولا مؤلفات متكاملة لجغرافية هذا الشرق في عصورها القديمة . . »[٣] .

●●●

ثمة خصائص أخرى تتعلق بمنهج البحث التاريخي لدى أمين مدني ، منها : عنايته بإلقاء الضوء على طبيعة المصادر التاريخية المرتبطة بأبحاثه ، سواء منها ما تسنّى له الرجوع إليها ، أو ما لم يتح له الرجوع إليه من تلك المصادر ، فالأمر عنده لا يقف عند حدود الاقتباس للنصوص ، ونقلها في تضاعيف البحث ، ولكنه يحرص أشدّ الحرص على فهم المصدر الذي يتعامل معه ، من حيث منهجه ، وآرائه ، والفروق بينه وبين ما يناظره من المصادر الأخرى ، وسوف نعود إلى هذا الأمر في موضعه من دراسةٍ في تعامل أمين مدني مع المصادر .

●●●

ويتميز منهج البحث التاريخي لديه أيضاً بخاصية ( الاستقصاء الدقيق للحقيقة العلمية الواحدة ) . من ذلك مثلاً : استقصاؤه لقضية ( اتهام العرب بإحراق مكتبة الاسكندرية )

---

(١) ص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٢) ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٣) ص ٤٨٧ .

وهي قضية أثارها جورجي زيدان ، وتناقض موقفه بشأنها : فهو ـ حيناً ـ يرفضها ، وحيناً يقبلها . وقد عمد أمين مدني إلى واقعة إحراق مكتبة الاسكندرية ، وهي سبعة أدلة ، منها على سبيل المثال ، زعمه أن العرب كانوا حريصين على محو كل كتاب غير القرآن ، ومنها أن القاضي ابن القفطي هو مصدر هذا الخبر ـ خبر الإحراق ـ وقد نقله عنه أبو الفرج الملطي « وابن القفطي المعروف بالقاضي عالم باللغة والحديث وعلوم القرآن ، فإذا كان هناك من يشك في أبي الفرج الملطي فإن القفطي بعيد عن الشك »[1] ، ومن أدلة جورجي زيدان على أن العرب قد أحرقوا مكتبة الاسكندرية ما جاء في ( كشف الظنون ) من أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر سعد بن أبي وقاص بإحراق ما وجده من كتب في خزائن بلاد فارس ، بعد فتح سعد بن أبي وقاص لها[2] .

إذن فإن « حرق الكتب كان في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه . . . كما فعل عبدالله بن طاهر بكتب فارسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣ من مؤلفات المجوس »[3] .

وبعد أن أورد أمين مدني الخبر منقولاً عن جورجي زيدان بدأ يستقصي جوانب الضعف فيه ، ويحسُن هنا أن نورد نص الخبر .

« تكلم يحيى النحوي عند عمرو بن العاص في شأن المكتبة التي أنشأها بطولا مادس فلادلفوس ، وطلب منه الإفراج عن كتب الحكمة في الخزائن الملوكية للحاجة إليها . فاستأذن عمرو بن العاص الخليفة في شأنها ، فجاء الأمر بإعدامها ، فشرع عمرو بن العاص في تفريقها على حمامات الاسكندرية ، فاستغرق حرقها ستة شهور »[4] .

أما منهج المؤرخ في توهين هذا الخبر ، فيبدأ براوي الخبر ، وهو يحيى النحوي . فالمؤرخون يسندون إليه الخبر ، ويزعمون أنه تكلم عند عمرو بن العاص ، مع أنه لم يعاصر فتح عمرو بن العاص لمصر ، بل مات قبل الفتح بنحو ربع القرن .

أما ما زعمته الرواية من توزيع الكتب على حمامات مصر ، فإنه أمر يثير الدهشة ، إذ ليس من المعقول أن يلجأ عمرو إلى تلك الوسيلة الساذجة ، والتي قد يترتب عليها تسرب هذه الكتب ، في الوقت الذي يخشى عمرو بن العاص تسرّبها ووقوعها في أيدي الناس[5] .

ثمة أمر آخر ، وهو أن هذا الخبر لم يبدأ سماعه إلا في مصادر القرن السابع الهجري ، بينما صمتت عن ذكره كل المصادر السابقة على هذا التاريخ[6] .

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
(٢) نفسه ص ٢١٨ .
(٣) نفسه ص ٢١٨ .
(٤) نفسه ص ٢١٩ .
(٥) نفسه
(٦) نفسه ص ٢٢١ .

ثم ينتقل المؤرخ من استقصاء عناصر ضعف النص التاريخي إلى استقصاء أدلة زيدان وبواعثه وتفسير علل الضعف في تلك الأدلة . وهنا نرى من الأوفق إيراد كلام أمين مدني بنصه ، دون أدنى حذف أو تصرف ، يقول في الردّ على جورجي زيدان : « فلابد للمؤرخ الذي يكتب عن قضية من قضايا الماضي من نصٍ يعتمد عليه ، لا سيما أن هذا الخبر لم يتحدث عنه المؤرخ من قبل مطلع القرن السابع من الهجرة . والقرن السابع مليء بالفواجع . ففيه انتهت الخلافة العباسية على أيدي النازيين ، وفيه برزت العواقب الوخيمة للانقسام العنصري والانفصال السياسي اللذين منيت بهما الامبراطورية العربية ، واستسلم آخر معقل للخلافة العباسية ، فلا يُستبعد عن أحداث هذا القرن : أن تُذاع في غمرتها الشائعات عن الدولة العربية وتؤلَّف ضدها الأساطير ، وتُنسب إليها مثالب هي منها براء ، ولا يُستبعد عن ابن القفطي أنه سجّل الخبر ببراءة المؤرخين الذين كانوا حريصين على تسجيل ما يسمعونه على علاته ، وما أكثر هذه العلّات »[1] .

ويطول بنا الحديث لو رحنا نكشف عن ( استقصاء ) أمين مدني لحيثيات جورجي زيدان ، ومحاولة ( استقصاء ) جوانب الضعف فيها ، وإبطالها بالدليل المنطقي والتاريخي ، والكشف عن فساد منهج ( زيدان ) في البحث التاريخي ، إذ هو ـ كما لاحظ أمين مدني ـ يعتمد من ناحية على سمعته العلمية ، كما يعتمد ـ من ناحية أخرى ـ على الفروض الظنية المتهافتة .

وأخيراً ينتهي أمين مدني إلى تقرير حقيقة منهجية هامة في البحث التاريخي ، وهي أن : « التحقيق لا يكون علمياً مالم يكن بعيداً عن الخيال وأعمق من الظنون ، ومالم يكن متواضعاً لا يعتمد على الشهرة الأدبية ، ولا يغالي في الثقة بالنفس والاعتماد على منطقه ، فيفرضه فرضاً ، كما فرض جورجي زيدان آراءه وظنونه في هذا التحقيق فرضاً ، فلابد للنفي أو للإثبات : أن يعتمد على نص يؤكد : الشك أو اليقين »[2] .

هكذا ينهض منهج أمين مدني في البحث التاريخي على ركيزة منهجية هامة ، وهي : الاستقصاء الدقيق لجوانب المسألة التاريخية : في مصادرها ونصوصها وحيثياتها وأكثر ما يكون هذا الاستقصاء ، وأكثر ما تكون عنايته به ، حين يتصدّى لشبُهات حول جوانب في التاريخ الإسلامي : في أحداثه وقضاياه . فيوسعها تفنيداً يرتكز على الاستدلال .

ثمة ملحظ آخر ، وهو أن أمين مدني ، وهو يرد على جورجي زيدان لم تستغرقه تفاصيل رأي جورجي زيدان وجزئياته ، بل إنه ـ وإن أعطى التفاصيل والجزئيات عنايته ـ فقد خلص إلى حقيقة كلية ، وهي طبيعة الخلل في منهج جورجي زيدان ، كما اتجه كلامه الذي اقتبسنا نصّه ، وهو نصٌ هام للغاية ، إلى توهين منهج زيدان من ناحية ، وفي تقرير الركيزة

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٢٢٢ .

(٢) نفسه ص ٢٢٧ .

الأساسية للبحث التاريخي ، بلْه البحث العلمي برُمّته . ويمكن أن نلخص تلك الركيزة الأساسية في كلمة واحدة هي ( الموضوعية ) التي يتجرد بها الباحث من كل عوامل الضعف النفسي .

على أن أمين مدني لم يتورط قطّ في أسلوب الهجوم والاتهام والتجريح ، كما كان دقيقاً للغاية في السيطرة على فكره ولغته في المناقشة والتفنيد ، وهو ما يندر تحققه في أبحاثنا الإسلامية ، وبخاصة ما يتصل منها بالشبهات التي أثارها خصوم الإسلام .

●●●

كما أن الحرص البالغ عن دفع الشبهات ، مع غيرة إسلامية على الموروث التاريخي ، قد دفعا بأمين مدني إلى سلبية واضحة في أبحاثه ، وهي ظاهرة التكرار ، والإلحاح المستمر ، بما يفقد مسلكه العلمي الرصين قدراً من الرصانة . فمسألة ( حريق مكتبة الاسكندرية ) يتكرر في مواضع شتى ، بعد إذ أشبع القول حولها في الموضع المخصص لها . فهو يتناولها في مبحث بعنوان ( لم تكن مصر بعد الفتح مورداً لرواد الثقافة العربية »[1]، ثم يعود إليها بكلام جديد يتسع به ، وكأنه يتناول الموضوع من قبل[2].

على أن التكرار - في منهج أمين مدني - يكاد يصبح سمةً مطَّردة في سائر ما كتب من أبحاثه في سلسلة ( العرب في أحقاب التاريخ ) ، وهو يعترف بهذا التكرار ، ويبرره لقارئه . فيقول عن كتابه ( التاريخ العربي ومصادره ) :

« في كل فصل من فصول هذا الكتاب ، حاولت جهدي أن أجمع الاستيعاب والإيجاز . . . ومحاولة الاستيعاب مع الإيجاز في موضوعات واسعةٍ أبعادُها ، عميقةٍ أغوارُها . . . لا تسلم من التفريط فيما لا يحق التفريط فيه رغبة في الإيجاز ، ولا تسلم من التكرار الذي أراه ضرورياً للاستيعاب ، وقد يراه الباحث من لزوم ما لا يلزم »[3].

●●●

سبق أن أوردنا نصاً لأمين مدني يدعو فيه المؤرخ إلى الالتزام ببعض المبادىء المنهجية الهامة في البحث التاريخي ، مثل : تجنب الخيال والظنون ، والتزام التواضع ، والاعتماد على الدليل دائماً لنفي فكرة ما أو لإثباتها . ونضيف هنا بعض المبادىء المنهجية الأخرى ، التي كان أمين مدني يدعو إليها ، ويلتزمها في الوقت نفسه . فمن هذه المبادىء ، دعوته إلى النقد ، بعد أن قدّم إلى قرائه أدلته التي ساند بها الحقائق التاريخية ، وشفع هذه الأدلة بذكر مصادرها . وهدفه من الدعوة إلى النقد ، هو ضمان

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٢٣١ - ٢٣٨

(٢) وانظر عودته إلى القضية في صدر مبحثه ( ماذا وجد رواد الثقافة في العراق وبلاد فارس ) ص ٢٤١ .

(٣) التاريخ العربي ومصادره ص ٥٨٨ .

سلامة تاريخنا من الشوائب . يقول : « خَرصتُ على إيضاح الأدلة ومصادرها ليستطيع الناقد أخذ فكرة عنها ، وإبداء رأيه فيها . فالنقد بمعناه الصحيح ضروري في مثل هذه البحوث لسلامة تاريخنا من الشوائب ، التي مازلنا في حاجة إلى إزالتها ، لنتبين طريق المستقبل على ضوء حقائق الماضي وتجاربه ، فلقد أمرنا الله أن نسير في الأرض ، وننظر عاقبة الذين سبقونا »(١).

هكذا لا يكون التاريخ - في منهج أمين مدني - هدفاً مقصوداً لذاته ، بل وسيلة لهدف أكبر ، هو الإفادة من التاريخ في بناء المستقبل ، فهو - إذن - هدف تربوي إصلاحي ، يسعى إلى النهوض بالأمة بمنهج التاريخ ، ولا تعارض - في منهج أمين مدني - بين أن يكون التاريخ منهج تربية وإصلاح ، وبين موضوعية الدراسة وخضوع أبحاث المؤرخين للنقد ، حتى يصفو التاريخ من كدر الوهم والشبهات .

●●●

ومن أبرز المبادىء المنهجية ، التي قدّمها أمين مدني للبحث التاريخي ، دعوته إلى : ( الحرص في قراءة نصوص القدماء وتفسيرها ) ، إذ يقود الخطأ في القراءة والتفسير إلى خطأ في النتائج ، يقول - رحمه الله - « كثير من أقوال القدامى : من جغرافيين ومؤرخين ، بعيد عما قصده القدامى ، من ذلك ما عناه القدامى في قولهم : فصارت جزيرة العرب خمسة أقسام : اليمن والعروض ونجد والحجاز وتهامة »(٢).

والذي عناه - رحمه الله - في عبارته السابقة ، أن تقسيم القدماء جزيرة العرب إلى خمسة أقسام المذكورة في أقوالهم ، لا يعني عدم دخول مصر وسورية والعراق ، ضمن الجزيرة ، كما لا يعني أن القدماء في قولهم المتقدم قد نفوا عروبة تلك البلدان « إنما هم أرادوا بهذه الأقسام الخمسة ، الأرض التي لم تخضع للاستعمار الفارسي والروماني كما خضع الهلال ومصر »(٣).

وقد طبّق أمين مدني في بحثه التاريخي هذا المبدأ المنهجي الهام : « الحرص في قراءة نصوص القدماء » ، وأفاض في الحديث عن سمة ( عروبة تلك البلدان ) : الهلال الخصيب ، ومصر العمليقية ، وأوقف على إثبات تلك الحقيقة الفصلين الثامن والتاسع من كتاب ( التاريخ العربي وجغرافيته )(٤).

ولعل من دلائل التزامه بالحرص على صحة قراءة النص التاريخي القديم ، ما أوضحه من سوء فهم باحثين مؤرخين للنص التاريخي المتعلق بموضِع « سوق

---

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٨٠، ٤٨١ .

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٨١ .

(٣) نفسه ص ٤٨٠ .

(٤) ص ٣٤٥-٤٣٥ .

عُكاظ » ، والذي يقرر أن « عكاظ » بأعلى نجدٍ قريباً من عرفات » ، فقد تعجَّب بعض قراء هذا النص القديم : إذ كيف يكون « عكاظ » بأعلى نجد ، ثم يكون في الوقت نفسه قريباً من عرفات ؟ ولم يقف هذا الفريق من قراء النص عند إبداء الدهشة ، بل هم خطَّأوا أمثالَ ابن حبيب[١] صاحب كتاب « المحبَّر » . مع أن نجداً التي عناها ابن حبيب هنا ليست ما نعرفه الآن بالمنطقة الوسطى في المملكة العربية السعودية ، والذي ينتهي حدّها عند « فيد » ، لأن عكاظاً تقع في أرض الحجاز ، لا نجْد . بل المقصود بنجد في عبارة ابن حبيب هي ( سراة الحجاز ) ، لأنها مرتفعة عن تهامة ، وكل ما ارتفع عن « تهامة » فهو نجْد[٢] .

وقد أورد المؤرخ عبارات مماثلة لكل من : المسعودي وياقوت الحموي وابن خلدون . وحتى يتمكن من صحة قراءة النص كان عليه أن يستقصي الأمر في شتى المعاجم الجغرافية القديمة وكتب التاريخ . ولعل موضوع أقسام الجزيرة العربية ، وسوق عكاظ ، ليس سوى قليل من كثير من الموضوعات ، التي عالجها أمين مدني في إطار ( مبدأ القراءة الصحيحة والفهم الصحيح للنص التاريخي القديم ) .

●●●

ومن معالم منهج أمين مدني في البحث التاريخي ، عنايته بجمع النصوص بدقة واستقصاءٍ وشمول ، ثم إخضاع النصوص المجموعة للتصنيف والتبويب ، مع العناية بعد هذا بالمقابلة بينها ، وبخاصة بين النص القديم والنص الحديث . والسمة واضحة في كل جوانب القاعدة المنهجية المتقدمة ، فإن غزارة المادة العلمية المجموعة هي من أبرز ما يلحظه قارىء الموسوعة التاريخية ، مستخرجة مستخلصة من مصادر شتى : قديمة وحديثة ، مع دقة التبويب ، والتوزيع للمادة العلمية مصنفة داخل الأبواب المختلفة .

أما ظاهرة ( مقابلة النص القديم بالنص الحديث ) ، فهي أيضاً مما يسترعي قارىء الموسوعة التاريخية في أكثر أبحاثها ، ولنأخذ لذلك مثلاً : قضية « قصص القرآن » ، حيث يقابل بين أقوال القدماء وأقوال المحدثين ، بين من قطعوا بصدق القصص القرآني ، وبين من حاولوا التشكيك في هذا الصدق . فالدكتور محمد أحمد خلف الله كان ممن يرى بأن « المنطق العاطفي هو الذي يسود القصة التاريخية في القرآن ، ومعنى ذلك أن القصص التاريخي في القرآن قصصٌ أدبيُ أولاً وأخيراً » .

وقد عرضٍ أمين مدني رأي خلف الله ، وقرنه بأدلته وقرائنه ، كما عرض آراء القدماء مقرونةً أيضاً بأدلتها ، ثم ناقش الفريقين ، مناقشة هادئة عميقة ، وخلص إلى

---

(١) من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ، وكتابه المحُبَّر في الأخبار والمواضع توفي ببغداد عام ٢٤٥هـ. وانظر ياقوت ١١٢/١٨ والفهرست ١٠٦ .

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٢٤-١٢٥ .

نتيجة هامة ، هي : « صدق القصص التاريخي الوارد في القرآن الكريم » ، واجتهد في نقض كل دليل استجلبته أوهام خلف الله .

ومثل هذا من المقابلات كثير ، فمنه قصة عيسى ابن مرين عليه السلام ، وحديثه في المهد . فقد قابل بين نصوص إسلامية ، وأخرى للمستشرقين ، ومثله أيضاً قضيته إحراق مكتبة الاسكندرية ، ودعوى انتحال الشعر الجاهلي ، وقضايا نشأة اللغة العربية وتاريخها ، وقرابتها من اللغات السامية الأخرى . فكل هذه القضايا حرص أمين مدني ـ رحمه الله ـ على أن يعرضها في إطار المقابلة بين النصوص ، مع التفنيد والمناقشة .

●●●

تلك هي أبرز السمات التي يتميز بها منهج أمين مدني رحمه الله ، وقد بقي ـ بعد ـ أن نتناول منهج أمين مدني في التعامل مع المصادر .

* * *

## في التعامل مع المصادر

ويتسم هذا المنهج بجملة سمات نوجزها فيما يلي :

١ ـ الاعتدال في التعامل .

٢ ـ الموضوعية .

٣ ـ الجمع بين المصادر القديمة والحديثة .

٤ ـ التنوع في المصادر .

ونحاول الآن أن نفصّل القول في كل سمة من هذه السمات .

●●●

### ١ ـ الاعتدال

فأما الاعتدال في التعامل مع المصادر ، فالمراد به أن أمين مدني لم يتخذ ـ قط ـ موقف الخصومة المتشددة من مصادر بعينها ، ولا موقف انعدام الثقة الدائم من أي من المصادر التي تعامل معها . وهو في المقابل لم يفرط في الثقة بمصدر بالذات ، وهذا بطبيعة الحال يخص غير القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وجرياً على هذه القاعدة ، فإنه في مواطن يأخذ من جورجي زيدان ، ويعتدّ برأيه ، ويشيد به ، لكنه في موضعٍ آخر ، يرفض رأي جورجي زيدان ، ويخضعه لغير قليل من الدحض والإبطال ، وهو في الحالين ـ قبولاً ورفضاً ـ لا يبالغ ولا يشتطّ .

ولقد مضى مثال لرفضه قول جورجي بشأن مكتبة الاسكندرية ، ولنأخذ هنا بعض ما يدل على إشادته بجورجي زيدان وتزكيته إياه ، إذ يسلكه والمطران الدِّبّس وجواد علي في سلك واحد ، فيقول : « . . . كان للمطران الدبس وجورجي زيدان وجواد علي ، ومن سار في الطريق ، فضل جمعها ومقابلة الرواية القديمة بالنص الحديث ، وتعريب ما وصلت إليه بحوث المستشرقين »[١]، وذلك في معرض الحديث عن جمع النصوص التاريخية القديمة .

كما يعزو إلى جورجي زيدان ـ في موضع آخر ـ جهده في البحث التاريخي ، ويسلكه مع جواد علي وغيره في عقد واحد ، ويصف أبحاثهم بأنها تتسم بعمق « البحث العلمي والنقاش المستوعب »[٢].

---

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٨٦ .

(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٨١ .

## ٢ - الموضوعية :

أما عن موضوعية أمين مدني في تعامله مع المصادر ، ففي الكثير مما مرّ بنا أدلة عليها ، ولعلنا لسنا بحاجة إلى إعادتها ، فهو ينقب عن الحقيقة أنّى كانت ، ويستخلصها إن ظفر بها ، موثقاً لها ، كما أن مسلك الاعتدال والهدوء في عرض المسائل ومناقشة الخصوم ، هي الأخرى من دلائل موضوعية زيدان ، ولعلنا مطّرون مرة أخرى إلى أن نورد المزيد من أقواله في جورجي زيدان الذي أعرض عنه وعن كتبه كثيرون من الباحثين ، بسبب بعض مطاعنه في تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية ، ثم احتدوا واشتدوا في خصومتهم إياه . أما أمين مدني فهو - وإن لم يبرىء زيداناً ، ولم يتساهل أدنى تساهل في شبهاته ومطاعنه ، فإنه قد حاول أن يفيد من نصوص جيدة أوردها في كتبه التاريخية ، كما اتسم في بحثه التاريخي بجودة الصنعة المنهجية ، فضلاً عن سبقه في التأريخ للعرب قبل الإسلام ، يقول أمين مدني : «ولعل جورجي زيدان أكثر ترتيباً في مؤلفه ، ولعل كتابه (العرب قبل الإسلام) هو الأول في نوعه ، على أنه كان من الاختصار بحيث لم يتسع لكثير من فصول التاريخ القديم الجديرة بالذكر ، ومما لا شك فيه أن جورجي زيدان بمؤلفه ( العرب قبل الإسلام ) أدى المهمة التي تطوّع لها »[1] .

فإذا أتى إلى كتاب (تاريخ سوريا) للمطران الدِّبْس - وهو من مصادر أمين مدني التي عوّل عليها كثيراً - وصفه بقوله : « كتب في تاريخ سورية بمنطق المطران ، وعقلية الجبل الذي عاش فيه . على أن ( تاريخ سوريا ) ، للمطران الدبس يعتبر مرجعاً للذين يؤلفون في ماضي سوريا القديم ، لم ينقص من قيمته مؤلف فيليب - حتى الحديث ( تاريخ سورية ) ، أو مؤلفه : ( لبنان في التاريخ ) »[2] .

وإذا كان لنا من تعليق على مواقف أمين مدني من مصادره التي تعامل معها ، فإننا نقول : إن موضوعية أمين مدني واعتداله وهدوءه في التعامل مع المصادر التي تعاهد الكثيرون من الباحثين المسلمين على تركها واتخاذ موقف الخصومة الحاد من أصحابها ، نقول إن موقف أمين مدني من تلك المصادر قد ارتكز على ركيزتين :

الأولى : إخضاعه مصادره وما حوته من مادة تاريخية للنظرة العلمية الفاحصة المدققة ، بحيث أمكنه أن يستخلص ما يفيد مؤلفاته ويثريها ، وأن يدع ما يحيد عن منهجه الإسلامي في البحث التاريخي ، ودفاعه عن أمة العرب تبعاً لهذا المنهج .

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٤٨٦ .
(٢) نفسه ص ٤٨٦ .

الثانية : فهمه العميق لطبيعة المصادر التي تعامل معها من حيث منهج هذه المصادر ، ومن حيث مادتها العلمية . ولعل عباراته التي أوردناها في وصف كتب لزيدان والمطران الدِّبْس تكشف عن أبعاد هذا الفهم ، بما يدل على أنه لم ينظر في هذه المصادر نظرة عجلى وبما يحقق هدفه في الاقتباس والإفادة . بل قرأها في أناة ودقة بصر ، ثم تعامل معها على أساس هذا الفهم .

من هنا مارس تعامله مع هذا النمط من المصادر المشبوهة على أساس مكين من ثقته بمنهجه وثقته بأسلوبه في الانتفاع من تلك المصادر . وهذا أمر لا يتوافر لكثير من المشتغلين بالدراسات الإسلامية وبخاصة منها ، الأبحاث التاريخية .

●●●

## ٣ ـ الجمع بين المصادر القديمة والحديثة :

أما الجمع بين المصادر القديمة والحديثة في بحثه ، فأمر يشكل سمة بارزة في بحثه ، إذ يجد قارىء موسوعته التاريخية ، مؤلفات قديمة في التاريخ والجغرافيا والأدب واللغة والعلوم الإسلامية ، إلى جانب مؤلفات حديثة : تاريخية وجغرافية على وجه الخصوص . بل يلاحظ القارىء تتبّع المؤلف بعض ما شاع من آراء في المصادر الحديثة ليردها إلى أصولها من المصادر القديمة ، والتي أتيح للمؤلف قدرٌ حسن من الاطلاع عليها ، والوقوف على آرائها . وفي حال التوافق أو التعارض يحرص المؤرخ على مبدأ ( المقابلة ) بين النصوص القديمة والحديثة ، ثم يناقش في هدوءٍ ورويّة ، لينتهي إلى رأي خاص به . وهو دائماً جدّ حريص على إبداء الرأي في كثير من التروّي والأناة .

لنأخذ مثالاً لذلك : حديثه عن ( حماد الراوية ت ١٥٥هـ ) ، وهو متهم من القدماء ، متهم من كثير من المحدثين ، وتهمته هي انتحاله الشعر الجاهلي وتزييفه ، ووضعه أشعاراً على ألسنة أقوام ، وقد أعانته على ذلك قدرته الشعرية . وقد تناول أمين مدني ـ رحمه الله ـ ( قضية حماد وانتحال الشعر ) برمتها راجعاً إلى الأغاني وتاريخ الطبري وفهرست ابن النديم والمزهر للسيوطي . كما يعوّل كثيراً على كتاب ناصر الدين الأسد : ( مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ) ، وهو يقابل بين النصوص ، وأكثرها مكرر مشترك بين المصادر القديمة ، ويعزو ما ورد من هذه النصوص عند ناصر الدين الأسد إلى مصادرها القديمة ، لينتهي إلى جملة من النتائج نستخلصها فيما يلي :

١ ـ أن حماداً كان راوية شاعراً ، وكان نسّابة مؤرخاً ، ولم تشغله مجالسة الخلفاء عن مجالس لهوه الخاصة ، والتي اتخذها خصومه ذريعة لنقدهم إياه واتهامه .

٢ ـ أن حماداً كان يعوّل في رواية الأشعار الجاهلية على المدونات أكثر من تعويله على الرواة ، مما اتخذه خصومه أيضاً دليلاً للطعن والتجريح .

٣ ـ منافسة البصريين له ، وكانوا أكثر تعويلاً على الرواة ، وأكثر تحرياً وتمحيصاً لمروياتهم من أهلِ الكوفة ، على ماهو معلوم بين الدارسين .

٤ ـ توثيقه حماداً الراوية الذي « وقف جهده على البحث في تاريخ الأدب العربي ، وعلى معرفة أنساب البيوت القديمة ، فخلّف لمؤرخي الأدب العربي ما وصل إليه من شعر شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن أبرزه شعر المعلقات . . . »[١].

وقد انتهى أمين مدني ـ رحمه الله ـ إلى نتيجة مشابهة في تناوله ( خلف الأحمر ) الذي اقترن اسمه باسم حماد الراوية ، واقترنت بالاسمين ( قضية الانتحال )، ولعلنا لسنا بحاجة إلى بيان العلاقة بين ( روايةِ الشعرِ الجاهلي ) ، وبين تاريخ العرب في أحقاب التاريخ ، فقد كان الشعر مصدراً مهماً للمؤرخين القدماء خاصة .

ولعلنا لو استعرضنا حواشي موسوعة ( التاريخ العربي ومصادره ) في أيٍّ من أجزائها الثلاثة ، لكان من اليسير أن نجد المصادر القديمة بإزاء المصادر الحديثة : ففي بحث ( القصص القرآني ) من كتاب ( التاريخ العربي ومصادره ) يبلغ ما رجعٍ إليه من المصادر ـ عدا ما يستشهد به من آيات القرآن الكريم ـ نحو أربعة عشر مصدراً ، تضم من القديم : تاريخ الطبري وتفسيره وسيرة ابن هشام ، وتاريخ ابن كثير ، وتفسير النيسابوري ، إلى جانب كتب حديثة منها : الفن القصصي في القرآن ، للدكتور محمد أحمد خلف الله ، وعبقرية المسيح لعباس محمود العقاد ، وقصص الأنبياء لعبدالوهاب النجار ، ودائرة المعارف الإسلامية وكتاب الأبطال لكارليل .

## ٤ ـ تنوع مصادره :

أما تنوع المصادر ، فقد أعانه على تحقيق منهجه في الاستقصاء ، والجدّ في جمع مادة غزيرة ، وكل ذلك بدوره قد أعانه على تحقيق قدرٍ حَسنٍ من المقدمات والنتائج . ومن دلائل هذا التنوع في المصادر ، أن نجد مصادر قديمة مع أخرى حديثة كما مضى القول ، كما نجد مصادر تاريخية بازاء مصادر في اللغة والأدب والتفسير والفلسفة والجغرافيا ، والحضارة .

كذلك تتنوع تلك المصادر بين الكتب ومشاهدات المؤلف في رحلاته وتنقلاته في الخافقين . وقد بدا من تعليقاته وإشاراته إلى هذه الرحلات ، حرصه على تزويد نفسه بالخبرة الحية ، التي يمكن أن تثري جوانب البحث التاريخي لديه ، وتعينه على تصور الأحداث والمواقف التاريخية ، كما تعين قارئه أيضاً على التصور التاريخي ، حين يسرد له بعض مشاهده الحية بهدف تقريب المادة التاريخية ، ولنتوقف عند هذه النقطة بالذات : ففي كتابه ( التاريخ العربي وجغرافيته ) بالذات تكثر إشاراته إلى هذا المصدر الواقعي المحسوس . ففي موضع حديثه عن ( مواسم العرب وأسواقها العامة ) يقول رحمه الله :

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ص ٥١٩ .

« مما سمعت به عن أمم الماضي ، ومما رأيته في شعوب الحاضر ، أن لكل قرية سوقاً خاصة بها . . . فأنا لا أتجاوز الواقع إن قلت : إن هذه العادة مازالت باقية في أرقى الأمم حضارة في هذا الحاضر الذي نعيش فيه . فلقد رأيت في لندن وفي غيرها أسواقاً أسبوعية يهبط إليها المتسوّقون من الضواحي ، ويحرص بعض اللندنيين على التسوق منها ، ورأيت كيف تكتظ في الأعياد أسواق أوروبا وأمريكا بالقرويين وأبناء المدن الصغرى لا سيما في العواصم الكبرى »[1] .

ومثل ذلك حديثه عن خصوبة تهامة عسير ، مما لم يشهد له مثيلا ، فيما زاره من البلدان »[2] .

وفي بعض الأحيان ترد الإشارة إلى الواقع الملموس استطراداً وتعبيراً عن حبه الغامر لوطنه العربي ، وطموحه الكبير إلى نهضته واستقلال أقطاره ، مثل حديثه عن واقع اليمن الجنوبي وحاضره ، في ثنايا بحثه عن تاريخ اليمن وجغرافيته[3]، ومثله ربطه بين حاضر العراق وماضيه ، في ثنايا الفصل الذي عقده عن ( الهلال الخصيب ) باعتباره جزءاً من أجزاء الجزيرة العربية[4] هذا إلى مواضع أخرى يطول البحث بتعدادها والإشارة إليها[5] .

●●●

رحم الله أمين مدني ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير ما يجزي الصالحين والمخلصين .

* * *

(١) التاريخ العربي وجغرافيته ص ١٢٩ .
(٢) التاريخ العربي وجغرافيته ص ٢٨٣ .
(٣) نفسه ص ٣٣٦ .
(٤) ص ٣٧٦ .
(٥) وانظر الصفحات : ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٢ ، ٤١٠ .

# الباب الثالث

## نماذج من كتبه

# الفصل الأول

## من كتاب « التاريخ العربي وبدايته »

## معالم المجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية

١ ـ لقد تقشع كثير من الشكوك التي كانت تحول بين محققي التاريخ العربي القديم في الأزمنة المتأخرة ، وبين ما كان يقوله المؤرخون العرب في الأزمنة المتقدمة عن الحجاز ونجد واليمامة ، وإن هذه البلاد كانت مناطق ذات خصب وثراء ومياه متدفقة ، وعن دول العرب وعظمة ملوكها ، فآمن الكثيرون بما قاله المسعودي : [ وكان الحجاز أشجر بلاد الله وأكثرها ماء ][1] ، وبما قاله الطبري : [ واليمامة إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها خيراً وأشجاراً ][2] ؛ وبما قاله ابن خلدون في تاريخه ، وصاعد في طبقاته ، عن شعوب عاد ؛ وثمود ، وطسم ، وجديس ، وجُرْهم ، والعماليق ، وأنها كانت ذات ملك ضخم وسلطان كبير[3] . وصدقوا بما جاء في جغرافية ( بطليموس ) عن أنهار الجزيرة التي كانت تنساب في أراضيها وينساب معها الخير العميم ، ورجعوا إلى ما قاله « بطليموس » عن المائة والستين مدينة التي كانت تزهى بها شبه جزيرة العرب ، وأخذوا يعنون بتحقيق ( إسطفانوس ) و ( بلي ) اللذين توصلا لمعرفة عدد من أسماء تلك المدن[4] . ولقد جاء في موجز تاريخ الشرق الأوسط : [ فمنذ سنة ٨٠٠٠ ق . م . تقريباً اهتدى الإنسان بعد تجارب شاقة وأخطاء جسيمة إلى استزراع الأغذية النباتية واستئناس بعض الحيوانات النافعة فتسنى له بذلك لأول مرة أن يدرج في مدارج الارتقاء نحو الحضارة ][5] .

وبواعث هذا التصديق جاءت في البحوث الأثرية والجيولوجية التي توصلت إلى معلومات لا تختلف كثيراً عما قاله قدامى المؤرخين . وهذه البواعث هي التي جعلت عدداً من المستشرقين يهتمون بالتحقيق في مواطن الحضارات القديمة في ربوع الجزيرة العربية التي أصبحت قاعاً صفصفاً ليس فيها غير سراب يحسبه الظمآن ماء .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢ / ٨١ .
(٢) تاريخ الطبري ٢ / بحث اليمامة .
(٣) طبقات صاعد ص ٥٤ تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٧ .
(٤) التاريخ الجغرافي للقرآن ص ٧٢ .
(٥) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ٤ .

وهذا الذي صدق به الباحثون هو الذي أنبأنا به القرآن الكريم فيما أنبأنا به من أخبار الماضين :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كم أَهلكْنا من قبلهم من قَرْنٍ مكَّناهُم في الأَرض مالم نُمَكِّن لَكُمْ وأَرْسَلْنا السَّماءَ عليهم مِدْراراً وجعلنا الأَنْهارَ تَجْري مِنْ تَحتِهِم فَأَهْلَكْناهُمْ بذُنوبهِمْ وأنشأنا مِنْ بَعْدِهِم قَرْناً آخرين ﴾[1] و ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذين مِنْ قبلهم كانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّة وأَثاروا الأَرْضَ وعَمَرُوهَا أَكْثَر مما عَمروها وجاءَتْهُمْ رُسُلُهم بالْبَيِّناتِ فما كَان الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهمْ يَظْلِمُون ﴾[2] و ﴿ كَالَّذين مِنْ قَبْلِكم كَانُوا أَشَدَّ مِنكم قُوَّة وأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا بخَلَاقِهِم فاسْتَمْتَعْتُمْ بخَلاقِكُم ﴾[3] و ﴿ وقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الذين كفروا وكذبوا بلقاءِ الآخرة وأَتْرَفْنَاهم في الحياة الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلكُمْ يأْكُلُ مما تأْكُلُون مِنْه ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْربُون ﴾[4] و ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُون . وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ . وإذا بَطَشْتُم بطَشْتُم جَبَّارين . فَاتَّقُوا الله وأَطِيعُون . واتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بما تَعْلَمُون . أَمَدَّكُمْ بأَنْعَام وَبَنِينِ . وجنات وعُيُونٍ ﴾[5] و ﴿ واذْكُرُوا إِذْ جَعَلكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْد عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ في الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وتَنْحِتُونَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فاذْكُرُوا آلاءَ الله ولَا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدين ﴾[6] و ﴿ أَتُتْرَكُون في مَا هَاهُنَا آمِنين . في جَنَّاتٍ وَعُيُون . وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هَضِيم . وتَنْحتُونَ مِنَ الْجبَالِ بُيوتاً فَارِهِين ﴾[7] .

٢ ـ حقاً لقد مكن الله للذين عاشوا على ظهر هذه الجزيرة قبل الميلاد ما لم يمكن للجاهلين فيما بعد الميلاد ، فأرسل على أولئك السماء تمطرهم مدراراً فأثاروا الأرض ، وعمروها ، فكما أن الصحة من بواعث أصالة الرأي وحسن التفكير ، فإن الأرض الخصبة تبعث النشاط ورغبة الاستثمار ، وهذا هو سر الحضارة التي حافظت على بقائها في بلاد الهلال الخصيب وعلى ضفتي وادي النيل .

فها نحن نرى اليوم للثموديين الذين كانوا يعيشون في شمالي الحجاز متخذين من سهول الحجر حدائق ومن جبالها بيوتاً ـ آثاراً بارزة إذا ما رأيتها فناً في النحت لا ينقص عن النحت الفرعوني في مصر ، قال عن صلته بالفن الفرعوني البتنوني : [ ويظن آخرون أن الثموديين من العمالقة حذقوا صناعة النحت أيام إقامتهم بمصر ] [8]. وقال عن صلة الفن الفرعوني به

---

(١) سورة الأنعام آية ٦ .

(٢) سورة الروم آية ٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٦٩ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٣٣ .

(٥) سورة الشعراء آية ١٢٧ وما بعدها .

(٦) سورة الأعراف آية ٧٤ .

(٧) سورة الشعراء آية ١٤٦ وما بعدها . ولقد جاء في تفسير قوله تعالى في سورة فاطر آية ٤٤ : ألم يسر هؤلاء المشركون الذين عارضوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في الأرض فإنهم تجار يسلكون طريق الشام فينظروا كيف كانت عاقبة الذين كانوا بها . تفسير الطبري ٢٢/١٤٧ .

(٨) الرحلة الحجازية للبتنوني ص٣١٢ .

جورجي زيدان : [ واقتبس المصريون من مخالطة العمالقة معارف كثيرة ولا سيما الأبنية فاتخذوا عنهم أشكالاً جديدة ويعد أبو الهول المجنح من مبتكراتهم ][1] .

فمما قاله المؤرخون المصريون عن الحضارة المصرية واتصالها الوثيق بالحضارة العربية في داخل الجزيرة العربية يتبين لنا : أن العمالقة الحجازيين والفراعنة المصريين كانوا على مستوى حضارة لا ينقص هنا في الحجاز عنه هناك في مصر ، ويتبين لنا : أن الشعبين كانا على صلة ثقافية يتبادلان المعارف والفنون . ثم شاء الله أن يمني قلب الجزيرة بالجفاف وأن تستمر حضارة مصر بفضل النيل . فمصر كما يقولون : هبة النيل .

٣ - وإنني أؤكد : أن لو بحث عن آثار قلب الجزيرة لظهر فيها ما يدل على حضارة لا تنقص عن حضارة الواديين الفرات والنيل . وإنني هنا أذكر أثراً ضئيلاً ظهر عندما كنت رئيساً لبلدية المدينة المنورة ، فقد قامت بلدية المدينة بعمل بالوعات لتصريف مياه الأمطار ريثما يتم الإجراء الرسمي الذي تقتضيه الموافقة على المشروع الذي تقدمت به البلدية لإنشاء مجار عامة . فلقد ظهر في إحدى الحفريات أمام باب السور القديم المسمى في العهد التركي « باب بصري » الواقع شمالي السور ، والذي أزيل في التنظيمات التي اقتضتها توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي - جدار قائم تحت عمق ستة أمتار من ظهر الأرض يبلغ طول حجارته متراً ونصف المتر ويبلغ عرضها ثلثي المتر منحوتة بطريقة أدق من حجارة مباني الحرم النبوي القديمة التي أظهرتها حفريات توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي . وليس طراز نحتها من نوع حجارة آطام اليهود . ولقد بحثت مع بعض الإخوان الذين يعنون بالآثار وبتاريخ المدينة لعلنا نعرف شيئاً عن ذلك الجدار ، فلم نعرف من تاريخه شيئاً غير أنه جاهلي قديم ، قد يكون من عهد العمالقة أو من آثار السبئيين أو المعينيين في يثرب .

٤ - ولقد تذكرت هذا السور الذي تراكمت عليه ستة أمتار من أتربة المباني التي أنشئت بعده في مئات السنين عندما قرأت ما جاء في كتاب التاريخ العربي القديم : [ أما الآثار التي وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها في الجهات الصحراوية القاحلة ، والجبلية الحجرية في شمالي غرب البلاد العربية ، حيث تكشف لنا القناع عن الحالات المختلفة التي مر بها الطريق التجاري العربي المار بمكة والمدينة ، والذي كان يمتد حتى يبلغ البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط ودمشق . وأكثر ما توجد هذه الآثار في المدن التي فقدت كثيراً من أهميتها القديمة أعني « العلا » و « الحجر » مدائن صالح و « بطراء » و « بصرى » ففيها نجد كثيراً من الخرائب التي ترجع لا إلى ما قبل الإسلام فحسب بل إلى ما قبل الميلاد ، وأيضاً مما يؤيد أنها كانت قديماً مركزاً هاماً من المراكز التجارية وملتقى للقوافل ، وليست هذه القواعد التجارية هي الوحيدة الغنية بالآثار القديمة فقد عثر العلماء على كثير منها في قلب الجزيرة « نجد » والجانب الغربي لبادية الشام ][2] .

(١) العرب قبل الاسلام ص ٧٢ وكتاب الدولة العربية الكبرى لمحمود كامل المحامي ص ٥٣ / ٣٩ .
(٢) التاريخ العربي القديم ص ٣٧ و ٣٨ .

ولقد جاء في بحث « جواد علي » عن الميناء الحجازي [ لويكة كومة ـ المدينة البيضاء ] : أن هذه المدينة [ من أهم الموانىء الحجازية على عهد البطالسة . ويرى بعضهم أن هذا الميناء هو الحوراء[1] مرفأ سفن مصر إلى المدينة ويظهر أن الحوراء كانت من المواضع الجاهلية القديمة . وقد وجدت بها آثار قصور . ويظهر أن تجارة هذا الميناء كانت غامرة جداً فكانت القوافل التي تنقل البضائع بين « بصرى » وبين « لويكة كومة » فخمة جداً حتى كأنها قطع كبيرة من الجيوش تقوم بنقل الأموال من الميناء إلى « بصرى » ومنها إلى السوق . أو بنقل التجارة الواصلة إلى بصرى من العراق أو الخليج أو اليمن ومنها إلى ذلك الميناء لتصديره إلى مصر وحوض البحر المتوسط . ويتبين من إهمال الكتب اليونانية أو اللاتينية ذكر هذا الميناء بعد الميلاد : أنه شأنه أخذ بالأفول من ذلك الوقت ][2] .

ويقول جواد علي : [ ورَعْمة جزء من أجزاء الجزيرة العربية وقد ذكروا مع « سبأ » في أسفار « حزقيال » في معرض الكلام عن التجارة فذكر أنهم كانوا يتاجرون بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم وبالذهب . وأن أرض رعمة يجب أن تكون منطقة تقع في الأقسام الغربية من شبه الجزيرة العربية ـ ومن الظنون التي تبحث عن « أوفير » ظنون تؤكد : أن « أوفير » في اليمامة ][3] أو على شاطىء الخليج العربي .

وقال جواد علي : [ وأما اليونان والرومان ففي الأخبار المدونة في كتبهم عن ذهب الجزيرة وجودته ووفرته واستخراجه قطعاً قطعاً نقية من مناجمه ووجود الأنهار التي تحمل مياهها أتربة الذهب وأمثال هذا من قصص ما فيه الكفاية عن رأي القوم في ذهب الجزيرة وكثرته ـ ولقد أشار الإسلاميون إلى مواضع عديدة في جزيرة العرب عرفت بذهبها أو بوجود معادن أخرى فيها ][4] .

ويؤكد لنا المؤرخون العرب قصة الكنوز التي عثر عليها ( عبدالله بن جدعان ) في قبور الجرهمين .

وينقل كرد علي ـ عن جغرافية استرابون : [ أن كل عربي كان قبل المسيح إما تاجراً وإما سمساراً )[5] .

وأثبتت بحوث « عبدالله فلبي » في نجد وفي اليمامة وفي منطقة الظهران وشواطىء الخليج العربي ـ أن للفينيقيين آثاراً في اليمامة وفي شواطىء الخليج العربي تدل على حضارة

---

(١) جاء في دائرة المعارف الإسلامية : أن ( شبرنجر ) تعرف على الحوراء وقال : إنها عين الحورا ـ راجع مادة الحجاز مجلد ٣١٢/٧ .

(٢) جواد ٣٧٩/٢ ورأى ( ونست ) أنها « لويكة كومة » هي : « المويلح » في الوقت الحاضر ويظن آخرون أنها « عينونة » أو « الخريبة » وهي تابعة لإمارة ضباء على ساحل البحر الأحمر .

(٣) جواد ٢٧٨/١ .

(٤) جواد ٤١٥/٢ .

(٥) الاسلام والحضارة العربية ص ١٢٠ .

قديمة بلغت مستوى لا بأس به وأن نجداً من الأراضي التي سكنها الإنسان منذ عصره الحجري .

فمجموع هذه الأقوال التي يعثر عليها الباحث في مختلف المصادر ـ وفي غير مكان واحد من موضوعات التاريخ القديم لقلب الجزيرة ـ ترسم لنا صورة وإن كانت غير متكاملة ، فهي على كل حال تعطينا فكرة عن تلك الحياة الرخية ، وعن نشاط الذين أثاروا الأرض وعمروها . وتؤكد لنا : أن عرب قلب الجزيرة تجاوزوا الحياة البدائية بمراحل ، فالأمة التي تعرف كيف تستخرج الذهب والنحاس ، وكيف تتاجر بالعطور والبخور والتوابل والنسيج والذهب والأحجار الكريمة أمة تعرف بدون شك من معاني الحياة أكثر مما يعرفه سكان الغاب المتوحشون أكلة العقارب والخنافس كما يصفهم الشعوبيون .

٥ ـ فنحن إذا ما رجعنا إلى ما يقال عن : ( إرم ذات العماد ) ـ ولإرم ذات العماد بحث خاص من حق موضوع : « التاريخ العربي في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها » القادم من هذا الجزء إلحاق التحقيق في قصة إرم ذات العماد به ـ نجد أن الخيال الذي تفنن في تصوير هذه المدينة اعتمد على الاقتناع بحضارة قوم عاد ، وقدرتهم على الإنشاء والتعمير والبذخ في الزخرف والمغالاة في الترف ، ونجد الخيال منصرفاً في اقتناع العربي في القرون الإسلامية الأولى إلى أن قوم عاد وقوم سبأ لم تكن لهم دولة في غير اليمن . فلذلك لم يخالط أخيلتهم شيء من الحقائق التي أثبتت أن دولة عاد الأولى كانت في وادي القرى شمالي الحجاز ، وأن مملكة بلقيس السبئية كانت من ممالك شمالي الحجاز قريبة من مملكة سليمان ـ حيث إن الحقائق أثبتت أن عاداً الثانية هي التي انتقلت إلى اليمن وأسست دولتها فيه ، وأن بداية دولة سبأ في اليمن كانت في القرن السابع قبل الميلاد أي بعد عصر سليمان بن داود بثلاثة قرون .

فلذلك نرى الروايات التي كانت رائجة في العصر الأموي وما بعده غارقة في الخيال الذي تصور مدينة إرم ذات العماد متحركة تارة تكون في الشمال ، وتارة تكون في الجنوب ، وأن بلقيس سيدة سبأ كانت تملك اليمن في مطلع الألف الأخيرة التي سبقت الميلاد .

٦ ـ فلو أن أصحاب هذه الروايات توافرت لهم المصادر التي تعب الباحثون المتأخرون في تحقيقها لأبدوا شيئاً من الاهتمام بما كان يقوله بعض المحققين القدامى عن قوم عاد وأنهم كانوا في وادي القرى على مقربة من حجر ثمود ، وأن لسبأ دولة كانت في شمالي الحجاز في المنطقة التي تضم المدينة المنورة ـ والعلا .

ونحن اليوم تنقصنا الأدلة الأثرية التي لا شك في العثور عليها لو تفرغت للبحث عنها هيئات رسمية ذات إمكانيات حكومية مثل الهيئات التي كفلت نفقاتها حكومات سورية في سورية ، وحكومة الأردن في شرقي الأردن ، فالآثار هي التي يمكن أن تجدد تاريخ الحضارة في الحجاز القديم ـ الحجاز الذي عمره العماليق والإرميون أيام سلطانهم على مصر وعلى سورية وعلى العراق . ويمكن الاعتماد عليها في تحديد الحضارة التي تشير إليها بعض آثار اليمامة وما تكشف في أوديتها .

فمما لا شك فيه : أن ما في مدائن صالح ، وما في خربات منطقة العلا ، وما في حجر اليمامة من آثار هي عناوين بارزة لصفحة مليئة بحضارة عريقة قديمة .

فلقد أكد علماء الجيولوجيا : أن انخفاض مستوى الماء في جزيرة العرب أثر أيما تأثير في حضارة سكانها - أضف إلى ذلك الأسباب التي ذكرها « كارلتون كون » - الذي يقول : [ إن العصر الثالث الذي أفترضه وأسميه عصر الجمل وتضاؤل التجارة لهو نفس العصر الذي يسميه « ديلافيدا » عصر الظلام . وهو عصر استمر من القرن الثالث حتى القرن السابع بعد الميلاد . وقد نسأل لماذا كان هذا العصر عصر الظلام ؟ بما أن شبه الجزيرة كانت دائماً تعتمد على التجارة الخارجية - فلابد أن أحداثاً خارجية كانت مسئولة عما حدث . ففي هذا العصر تدهورت قوة « روما » وانتقلت سوق التجارة إلى « بيزنطة » وكان للبيزنطيين طرقهم الخاصة إلى الشرق المارة بواحات تركستان إلى شواطىء بحر قزوين ومنخفض القفقاس والشواطىء الجنوبية للبحر الأسود ][1] .

٧ - وإنني إخال : أن فيما مر بنا عندما بحثنا في اللغة العربية والخطوط التي دونت بها أدلة كثيرة توضح لنا مختلف الحالات التي مرت على هذا الجزء من البلاد العربية ، والتي انتهت بيقظة قريش واهتمامها بالوضع السياسي عندما أخذت تضيف إلى اهتمامها بالتجارة وأرباحها . الاهتمام بعلاقتها مع دول ما قبل الإسلام ، وتدعيم الكيان العربي وحمايته مما أصابه في قوميته وفي لغته . وما تلك اليقظة إلا إرهاص لبعثة محمد وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكنهم كانوا كاليهود في المدينة الذين كفروا لما جاءهم ما كانوا به يوعدون . فلم يكن موقف عقلاء قريش ومفكريها وغير قريش من الذين أنكروا الوثنية التي أذلت العرب أمثال : أمية بن أبي الصلت ، وعبدالله بن جحش من الدعوة الإسلامية ، بأفضل من موقف العماليق مع موسى .

ثم التاريخ السياسي القديم لجزيرة العرب - إنه ينبئنا عن وجود دول في الحجاز كان لها شأن في مكة أشار إليه ابن جرير الطبري في تاريخه عندما تكلم عن النسب النبوي ، وكان له شأن في شمالي الحجاز تشير إليه الآثار والخطوط التي أقنعت المستشرقين بوجود دول في شمالي الحجاز عرفوا في بحوثهم بأسماء متعددة منها اللحيانيون والمعينيون والسبئيون والددنيون .

وينبئنا : أن العرب الذين انتزعوا بقيادة سرجون « الهلال الخصيب » من الدول القفقاسية والآرية التي عزلته عن البلاد العربية - لم تفتهم الفرصة عندما وثب الساسانيون يجددون سلطان فارس القديم . فقد تجمعت قبائل إياد وقضاعة وغيرها من القبائل العربية على حدود « السواد » للذود عن الكيان العربي المحطم وإعادة القومية والأمجاد العربية للعراق . وينبئنا بغير ذلك من المواقف العربية في تاريخ النضال العربي الطويل .

---

(١) قصة الشرق الأوسط ص ١٠٠ .

والحديث عما ينبئنا به التاريخ السياسي القديم لجزيرة العرب ، له بحث في الجزء الخاص به من هذا الكتاب ؛ أما هنا فتكفينا الأدلة التي قدمناها . فلو لم يكن أمامنا غير التجارة دليل لكفى ـ فكيف بنا ونحن نجد الجيولوجيين يؤكدون : أن قلب الجزيرة كان في الزمن القديم أكثر صلاحية لحياة الإنسان من مناطقها الشمالية القريبة من المناطق الثلجية ، ونجد من يؤكد : أن قلب الجزيرة وجنوبها كانا أسبق من سكان وادي الفرات ووادي النيل إلى استنبات الحبوب واستخدام الحيوانات المستأنسة ، ونجد من يؤكد : أن العرب في ماضيهم القديم عرفوا طريقة التعدين فاستخرجوا النحاس والذهب من بطن أرض الجزيرة العربية ، ونجد آثار الماضي البعيد تؤكد لنا : أن العرب في جاهليتهم كانوا أكثر من تجار ، كانوا مزارعين يستنبتون الأرض حبوباً وثماراً ، وكانوا معماريين أشادوا القصور ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، وكانوا محاربين فتحوا الممالك وأنشأوا الدول .

فالحقائق التاريخية التي انتهت إليها بحوث المتأخرين لم تجعل مجالاً لذلك الشك الذي كان يهيمن على بحوث المستشرقين . ولكن الشك الذي مازال باقياً هو : الشك في العصر الذي بدأ المجتمع العربي يقيد الحياة العربية في قلب الجزيرة بالنظم والتقاليد ويفرض عليها الخلق الاجتماعي .

٨ ـ فليس من السهل معرفة التاريخ الذي بدأ فيه سكان قلب الجزيرة العربية حياتهم الاجتماعية والسياسية والثقافية على أساس نظام يحمي حقوق الأفراد ويوجه الجماعات إلى ما يسعد حياتها ويرعى مصالحها العامة .

إن التاريخ الاجتماعي والسياسي في الحجاز بدأ على ما أرجح عندما دوى صوت إبراهيم عليه السلام يؤذن بالحج إلى البيت الذي أقيم مثابة للناس وأمناً ، فلقد قام إبراهيم وإسماعيل بأمر من الله يطهران البيت للطائفين والركع السجود ـ فتطهير البيت الذي أشار إليه القرآن الكريم اتخذه بعض المفسرين دليلاً على أن العرب في مكة كانوا في وحل من الفوضى الدينية والاجتماعية أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت الحرام في مكة منها .

فبين « حراء وثور » في مكة ـ أذن إبراهيم بين العرب بالدعوة التي أمر بها : ﴿ وأَذِّنْ في النَّاس بالْحَجِّ يأتوك رجَالاً وعلَى كُلِّ ضَامرٍ يأْتينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميق . ليشهدوا مَنَافع لهُم ويَذْكروا اسْمَ الله في أَيَّام مَعْلُومَات عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهيمةِ الأَنْعَام فكُلُوا منها وأَطعمُوا الْبَائسَ الفَقير ثُمَّ لْيَقْضُوا تفَثَهُمْ وَلْيوفوا نُذُورَهُمْ ولْيَطَّوَّفُوا بالْبيت العتِيق ﴾[1] ، ففي مكة وضع أول بيت للناس مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات ـ وفي مكة دعا إبراهيم ربه : ﴿ رَبَّنا وابْعَثْ فيهم رَسُولاً مِنهم يَتْلو عَلَيْهم آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الكتَابَ والْحكْمةَ ويُزَكِّيهم إنَّك أَنْتَ العزِيزُ الْحَكِيم ﴾[2] ، وفي مكة استجاب العرب للنظام السياسي ورضخوا لواجبات الحياة الاجتماعية ورضيت جموعهم بزعامة إسماعيل وخلفائه .

---

(١) سورة الحج آية ٢٧ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة آية ١٢٩ .

على أنه يوجد من المؤرخين من يقول : إن تاريخ إبراهيم لم يكن البداية للحياة العربية المتحضرة . ويوجد من الأدلة الكثير مما يؤكد قول هؤلاء ـ فالتجارة العربية وطرقها ، وزراعة الأرض وأساليبها ، واللغة العربية وخطوطها ، كلها أدلة تؤكـد قدم الحيـاة الاجتماعية والحضارة العربية .

وعصر إبراهيم في فلسطين متأخر بالنسبة للدول العربية في فلسطين والحضارة العربية وآثار العاديين في شمالي الحجاز . على أن هناك من يقول : « إن هوداً نبي قوم عاد وصالحاً نبي قوم ثمود بعثا قبل إبراهيم ـ وقد سبق ترجيح قدم عهد إبراهيم .

والأدلة تثبت أن العماليق والإرميين عندما استولوا على الهلال الخصيب وعلى مصر : كانوا أصحاب عقيدة ولغة ومجتمع متحضر ، وكانوا على مستوى أثّر على عقائد السوموريين في العراق ، والفراعنة في مصر ، وعلى لغتهم ومجتمعاتهم المتحضرة ، مثلما تأثروا هم كذلك بتلك العقائد واللغات والمجتمعات .

وإن النصوص الأثرية تنفي كل ما قيل عن بداوة الساميين الذين أسسوا الدول العربية في الهلال الخصيب ، وفي الصحراء العربية بوادي النيل ، وأنهم كانوا قبائل من الوحشية في صميمها جهلا وضيق أفق ، لا يعرفون من الحياة غير النهب والسلب ثم العودة إلى رءوس الجبال وبطون الأودية .

وهذه الأقوال التي توجد في مصادر التاريخ العربي صحيحة تؤيدها أدلة قوية ، ولكن حلقات التاريخ لابد لها من روابط ولا شيء يربط بين حلقات التاريخ مثل الدين واللغة ، وأديان أمم الطور الأول ـ العرب العاربة ـ كما رأيناها في بحث الأديان لم تكن لها مثل تلك الرابطة التي أوثقتها صلة إبراهيم واعتمدت على قواعد البيت الحرام . واللغة العربية تفرقت بها اللهجات في الشمال وفي الجنوب حتى خيل للكثير : أن لغة العرب العاربة بادت معهم ولم تبق منها باقية ، فمنذ ارتفعت قواعد البيت ارتفعت راية القومية العربية وأصبح لها نقطة ارتكاز وانطلاق ، وتأسس المجتمع العربي على أساس التعاون للمصلحة المشتركة والخلق الفاضل الذي دعت إليه ملة إبراهيم ، وتأسست الدولة العربية للحفاظ على الحرية والأمن وحماية المقدرات العربية وصيانة المنافع العامة .

فلقد ذكر الطبري ـ في كلامه عن نسب عدنان ـ أسماء ملوك جمعوا شتات العرب في قلب الجزيرة وأمنوا خائفهم ، وردوا كل طريد وأصلحوا بين الناس وأقاموا في كل بلد عربي دار ضيافة وبلغوا من الشأو ما جعل « أمية بن أبي الصلت » يفاخر بهم ملوك بني الأصفر القياصرة :

إن الصفي بن النبيت ممالكاً ... أعلى وأجود من هرقل وقيصر

والطبري الذي نوه بتلك الأسماء ، حرص على أن يسلسلها إلى ( قيدار ) حفيد إبراهيم .

٩ ـ ومن قصة إبراهيم تتبين لنا جوانب الحياة العربية والمجتمع الذي تأسس في عصر إبراهيم ، وحظ المرأة فيه ـ ففي قصة إبراهيم وزيارته لابنه إسماعيل واستقبال زوجه الأولى وتذمرها من الأزمة المالية التي كانت تعانيها أسرة إسماعيل ، ثم زيارته الثانية والحفاوة التي لقيها من زوج إسماعيل الثانية واستقبالها له بالمظهر الذي يليق بربة البيت ولا يخدش سمعة الأسرة أو يكشف واقعها ، ووصية إبراهيم لإسماعيل في زيارته الأولى بأن ينفصل عن زوجه المتبرمة الثرثارة التي لا تمثل كرامة الأسرة ، ووصيته في زيارته الثانية بأن يحفظ عليه زوجه القنوع الكتوم ، دليل على أن المرأة كانت ذات أهمية وشأن في المجتمع العربي .

وكذلك نحن إذا رجعنا إلى قصة وفد عاد التي يتحدث عنها المؤرخون العرب بمنطقهم وبما في أخيلتهم من صور ذلك الماضي البعيد ، نجد أن للأم ومكانة بيتوتها شأنها في الزعامة والرياسة . فلقد أنكر بعض أعضاء وفد قوم عاد الذي جاء إلى مكة يستغفر ويطلب الغيث في ظلال البيت الحرام ـ على رئيس الوفد أن يتنبه ضميره لما في الوثنية من ضلال وجحود فيدعو إلى تركها ، فقال له شاعرهم إنك من سراة عاد وأمك من ثمود .

فنحن إذا ما قرأنا هذه القصة لا يمكننا أن نحجز الخيال ونشيح بالبحث عما تنم عنه هذه القصة وما فيها من شبه بالقصص التاريخية في عصور الملكية في أوروبا وما كان للمصاهرة بين الملوك من أثر في ربط الأواصر السياسية بين دول ما قبل الحرب العالمية الأولى .

فكل من القصتين يشعرنا بأن العرب في عصورهم الغابرة كانوا يقدرون أثر المرأة في الحياة الاجتماعية العامة وفي تربية النشء ، ومكانها في المسرح السياسي ، وتقدير المرأة في حياة الأسرة يفرض العناية بإنشائها وإعدادها لتقوم بواجبها ، وهذا لا يكون إلا بعد مراحل قطعها الإنسان في طريق تطوره .

ولقد ظل العربي يقدر المرأة في حياة الأسرة ، ولقد ظل هذا الاحترام ينبض به قلب العربي الذي يعيش في بطون الصحاري ومنعرج الأودية بعيداً عن المدن الإسلامية وحضاراتها . وإننا لنلمس ذلك الاحترام في ندائه لها وهو يشاورها في أمره وشئونه :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا
ماذا ترين ؟ أندنيهم لأرحلنا في جانب البيت أم نبني لهم قببا ؟

وفي الحديث النبوي : « خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء » ما يعطينا فكرة صحيحة عن مقام المرأة العربية في صدر الإسلام .

١٠ ـ والذي لا ينكر في جاهلية ما قبل الإسلام : وأد البنت . والوأد في الجاهلية تحدث عنه القرآن الكريم أكثر من مرة ـ فلقد قال تعالى : ﴿ وكَذَلك زُيِّن لِكَثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكين قَتْلَ أَوْلادِهم شُركاؤُهم ليردُوهمْ ولِيَلْبِسُوا عَلَيْهم دِينَهُم ولو شَاء الله ما فَعَلوه فَذَرْهم وما يفْتَرون ﴾[1] ، و ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذين قَتَلوا أَوْلادَهُم سَفَهاً بغَيْرِ عِلْمٍ وحَرَّموا ما رَزَقَهم الله

(١) سورة الأنعام آية ١٣٧ .

افْتَراءً علَى الله قَدْ ضَلُّوا وما كَانُوا مُهْتَدِين ﴾(١).

وجاء في تفسير الطبري في موضوع هذه الآيات [ وقد هلك الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم وتحريم ما حرمت عليهم من أموالهم فقتلوا طاعة لها أولادهم ـ ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خبرهم في هذه الآيات من قوله : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ـ الذين كانوا يبحرون البحائر ويسيبون السوائب ويئدون البنات . ويقول « قتادة » : هذا صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السبى والفاقة . ويقول « عكرمة » : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر ](٢).

وقال تعالى : ﴿ ويَجْعَلونَ لله البنات سُبْحانَه وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وإذا بُشِّر أَحَدُهُم بالأُنْثى ظَلَّ وجهه مُسْودًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّر بِه أَيُمْسكه عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّه في التُّرابِ أَلا ساءَ مَا يَحْكُمُون ﴾(٣) وجاء في تفسير الطبري : ( جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم ألا ساء ما يحكمون )(٤).

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتلُوا أَوْلَادكُم خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهم وإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبيراً ﴾(٥).

فمن هذه الآيات ومما جاء في تفسيرها ، يظهر لنا أن من وثنيي العرب قبائل خضعت لعقائد انتقلت إليها مع الأصنام التي استوردها العرب من الشمال . فمن تلك العقائد : الأنعام التي حرمت ظهورها . والأنعام التي لا يذكر اسم الله عليها ، ومنها جعل البنات لله والبنين لهم . والوثنية في كل مكان كانت تفرض عقائد تتنافى مع الرحمة والضمير . فلقد كان الفينيقيون في سورية يقدمون أعز أبنائهم أضحية للآلهة تلتهمه النار حيًّا . وكان البابليون في العراق والفراعنة في مصر يضحون بعفاف بناتهم باسم الآلهة ـ فوأد البنات أقدم عليه العربي طاعة للشركاء الذين جعلتهم الوثنية أنداداً لله ، ثم استغل هذه العقيدة الضعاف الجهلة ، إما تخلصاً من عبء البنت ، وإما خوفاً من أن تقع غنيمة عدو يمرغ عفافها في وحل الرذيلة .

فالوأد طاعة للوثنية أو خشية إملاق أو سبى لم يكن عامّاً عند العرب جميعهم ، وإنما كان في قبائل من ربيعة ومضر . وكانت المرأة في ربيعة ومضر تحتل مكانتها إذا سلمت من القتل : وأداً ، أو قذفاً من قمة جبل ، أو ذبحاً بالسكين ـ مثل المرأة في سائر القبائل العربية . وفي أخبار العرب وقصص حروبها الشيء الكثير عن المرأة العربية في المجتمع العربي .

١١ ـ ونحن إذا ما قلبنا صفحات التاريخ العربي نبحث عن الوضع العربي في جاهلية ما بعد الميلاد . نجد أولئك الذين حدثونا عن مفاخر المكيين بعد إسماعيل وقالوا : إن للعرب البائدة دولاً ذات عظمة وسلطان كبير ، يقولون عن الجاهلية قبل الإسلام : إن العرب

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٠ .
(٢) تفسير الطبري ٨/ ٣٥ وما بعدها .
(٣) سورة النحل آية ٥٧ وما بعدها .
(٤) تفسير الطبري ١٤/ ٨٤ .
(٥) سورة الإسراء آية ٣١ .

يرجعون في حوادثهم الاجتماعية إلى رؤساء قبائلهم وكلهم يحكمون في مشاكلهم أهل الشرف والأمانة والرياسة والسن والمجد والتجربة ـ فما معنى هذا ؟ إنها العودة إلى الحياة القبلية . والعودة إلى الحياة القبلية أمر لا مفر منه في تلك العصور لكل أمة أخنى على كيانها السياسي والاقتصادي الزمن المتقلب .

لذلك نحن لا نجد من المؤرخين من يقول : إن العرب في عصرهم الجاهلي الأخير أنشأوا دولاً كالتي أنشأها الإرميون والعماليق والإسماعيليون في البلاد العربية ، ونجد أكثرية المؤرخين لا تتحدث بغير الجاهلية المظلمة بكل ما ينجم عنها ويترتب عليها ، وبغير الفوضى التي أوشكت أن تعيد العرب جميعهم إلى حياة الغاب التي فارقها الإنسان من أقدم عصوره .

فلقد حجب ظلام هذه الجاهلية ماضي العرب القديم في قلب الجزيرة فظن الكثيرون : أن هذا الظلام مخيم على هذه الأرض منذ الأزل ، وأن العرب في هذا الصقع لم تكتحل أعينهم بنور الحضارة .

١٢ ـ ولقد تحمس أعداء العروبة قبل الإسلام وبعده في نشر مثل هذا الظن ، كما سنرى في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي من هذا الكتاب . وكان من تأثير دعاية خصوم العرب أن انصرفت بحوث المفسرين والمؤرخين إلى الناحية القاتمة من تاريخ عاد ، وثمود ، وجُرْهم ، والعماليق وغيرهم من شعوب الماضي البعيد . فلم يعن المشتغلون بالتاريخ العربي بغير الإشارة العابرة إلى ما حفل به الماضي العربي القديم ، فجل ما قالوه عن ماضي قلب البلاد العربية لا يزيد على كلمات مستعجلة نوهت بما لعاد وثمود من دول في شمالي الحجاز ، وبما لطسْم وجديس من دول في اليمامة . ولا يزيد على سرد الروايات التي تحمل الأنباء الغامضة المحجبة بالخيال القصصي عن العماليق والجرهميين وتنازعهما على السلطان في مكة إلى أن أتت خزاعة ومن بعدها قريش ، فلم يبق أي أثر للنفوذ الجرهمي في أم القرى وما حولها ، فما أكثر ما اجتمع الشمل في مكة وما أكثر ما تفرق كأن لم يكن :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا    أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكذلك كان ما يقال عن العماليق الذين انتزعوا السيادة على المدينة من أبناء عمومتهم ( عبيل ) الذين نزحوا إلى الجحفة فأخذهم سيلها ، وما يقال عن تكتل اليهود في المدينة وتسلطهم على اقتصادياتها ، وكيف قضوا على شأن العماليق ولولا الأوس والخزرج الذين استوطنوا المدينة وهيمنوا على مقدراتها السياسية لكان لليهود ما أرادوه . وكذلك كان ما قالوه عن طسْم وجديس في اليمامة ، وما قالوه عن سكان جبلي طيىء ـ أخبار قصيرة وكلمات متناثرة في بطون التفاسير والمؤلفات التاريخية والأدبية .

ولكن هذه الكلمات الموجزة المستعجلة على إيجازها وغموضها ، وهذه الروايات التي تحوم حولها منتظرة التحقيق العلمي لتحكم لها أو عليها ـ تؤكد لنا على إيجازها وغموضها والشكوك التي تحيط بها : أن للعرب في ماضيهم القديم شأناً أكبر بكثير مما كان للعرب في

جاهلية ما قبل الإسلام ـ فالمؤرخون أمثال : الطبري ، وصاعد ، وابن خلدون ـ وإن لم يجدوا من الأدلة ما يدعم إشارتهم إلى دول الحجاز في مكة وفي وادي القرى وسواحل الحجاز ، أو يوضح شيئاً من النظم التي قام عليها المجتمع في أم القرى ، وفي المدينة ، وفي الطائف ، وفي الحجر ، وفي مدين ، وفي اليمامة وقريتها[1] ـ فإنهم كانوا على ثقة من وجود نظم إدارية وسياسية واقتصادية قامت عليها الدول العربية التي وصفها صاعد بأنها دول ضخمة ذات سلطان كبير . فالسلطان الكبير لا يقوم على غير نظام يصحح الأوضاع ويجعل للدولة نفوذها في التخطيط الإداري ، والسياسي والاقتصادي .

١٣ ـ فمثل العرب قبل الإسلام مثل العرب بعد الإسلام ـ فأين الدولة العربية التي تضارع الإمبراطورية التي ترأسها الأمويون ؟ وهل وجد في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ملك أو رئيس دولة عربية يقول مثل ما قال هارون الرشيد : أينما تمطري فخراجك لنا ؟ لقد رجع العرب بعد أن رفع رايتهم الإسلام ووحدت كلمتهم شريعته ونور عقولهم هديه ، إلى وضع لا يفضل الوضع الجاهلي بأكثر من الإيمان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، أما الفوضى الإدارية ، وأما النعرة القبلية ، أما الجهل والفقر فما أشبه اليوم بالأمس .

ولماذا نرجع إلى الأمس وهذه الأمم العربية اليوم وقد ساعدها انشقاق الدول الكبرى إلى معسكرين شرقي وغربي ، وقد أفاء الله عليها من الموارد ما جعلها في طليعة القادرين على تمويل كل ما يكفل لها المجد والسؤدد والنفوذ الذي لا حد له في المجال الدولي ـ لا تزال في مفترق الطرق ؟!

فلا غرو إذن : إن رأينا العرب بعد دولهم الأولى التي سادت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، ودوخت السوموريين في العراق واقتحمت على القوطيين وادي النيل ، يرجعون القهقري إلى الحياة القبلية وتقاليدها التي يشير إليها الطبري ، ولا غرو إن وصف المؤرخون عصر الجاهلية الأخير بعصر الظلام .

١٤ ـ ثم التاريخ العربي الإسلامي هو كذلك أوشك أن يضيع ، وأوشكت حقائقه أن تغطيها أخيلة القصصيين الذين اتخذوا من خلفاء بني أمية وبني العباس أبطالاً لروايات خيالية كادت تفني شخصيتهم الحقيقة . وأكثر من هذا فقد صوروا سياسة علي بن أبي طالب بما شاءته الدعاية الأموية ، ثم أمعنوا في اتهام الأمين العباسي بالغباء والسذاجة تحقيقاً لرغبة المأمون وسياسته ، إلى غير ذلك مما شوه الكثير من حقائق التاريخ الإسلامي العربي ، لولا أن تداركت التاريخ العربي دراسات الأكفياء من المحققين .

---

(١) القرية حاضرة اليمامة في العصور القديمة .

وهكذا أوشك أن يضيع علينا إلى الأبد التاريخ العربي القديم لولا أن تداركته الدراسات الأثرية فطورت البحث في أحداث الماضي الغابر . فبعد أن كانت أخباره قصصاً خيالية ليست بذات شأن يذكره المؤرخ الذي لا يحفل بغير ما هو منطقي معقول ، أصبحت موضوعات تاريخية ذات أهمية في بحوث المؤرخين . فأخذوا يسألون وهم يبحثون في نظم الدول العربية التي قامت في الهلال الخصيب وفي مصر وشمالي الحجاز وفي الجنوب : في اليمن وحضرموت وعمان : هل كان لدول قلب الجزيرة نظم على غرار نظم هاتيك الدول الشمالية الجنوبية ؟ . . وهل خضع العرب داخل جزيرتهم للملكية كملكية الآشوريين في الشمال ، والتبابعة في الجنوب ؟ أو كان النظام السياسي في قلب الجزيرة يتفق وما عرف عن صرامة العرب ، وشجاعتهم ، وإبائهم ، وتعشقهم الحرية التي لا حدود لها ؟

١٥ - إن المستشرقين المتأخرين عندما يبحثون في هذه الناحية لا يزيدون شيئاً على ما يقوله ( ديورانت ) : [ وأما من بقي من الساميين في بلادهم فقد أوجدوا حضارة العرب والبدو وأنشأوا الأسرة الأبوية وما تتطلبه من : طاعة وصرامة خلقية ، وتخلقوا بالجبرية وليدة البيئة الشاقة الضنينة ، والشجاعة العمياء التي تدفع أصحابها إلى وأد بناتهم وتقديمهن قرباناً للآلهة . على أن الدين لم يكن جدّيًا بين هؤلاء الأقوام حتى جاءهم محمد بالإسلام . ولم يعنوا بالفنون ، وملاذ الحياة ، لأنهم كانوا يرونها خليقة بالنساء ومن أسباب الضعف والانحلال - وظلوا وقتاً ما يسيطرون على التجارة مع الشرق الأقصى . تتكدس في ثغورهم غلات جزائر الهند ، وتحمل قوافلهم تلك الغلات وتنقلها في الطريق البرية غير الآمنة إلى فينيقية وبابل . وشادوا في قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل . ولكنهم لم يكونوا يشجعون الأجانب على المجيء إليها ورؤيتها - ولقد بقي هؤلاء الأقوام آلاف السنين يحيون حياتهم الخاصة بهم محافظين على عاداتهم وأخلاقهم ][1] .

وديورانت على ما يظهر : فرض الوضع العربي عشية ظهور الإسلام على جميع أطوار العرب في تاريخهم الطويل ، عندما قال : [ على أن الدين لم يكن جدّيًا بين هؤلاء الأقوام ، ولم يعنوا بالفنون وملاذ الحياة ] ؛ فالحياة الدينية قد تقدم الكلام عنها ، وكذلك تقدم الكلام عن آثار العلا والحجر واليمامة - ثم إن ما جاء في كلام ديورانت نفسه : وشادوا في قلب الجزيرة العريضة : المدن والقصور والهياكل ، يثبت أن العرب في قلب الجزيرة كانوا يعنون بالحياة وملاذها وبالعقائد وطقوسها ، وإنما الذين كانوا لا يعنون بملاذ الحياة هم القبائل الرحل . وفي كل أمة : حاضرة وبادية . ومما لا جدل فيه أن ملاذ الحياة تختلف باختلاف البيئة ؛ ثم السعادة وملاذ الحياة ماهي ؟ وأين تكون ؟ لقد اختلف الناس في مكانها . هل هي مضمخة بالعطور تتثاءب في القصور الفخمة ؟ أو هي منطلقة بين خيام الصحراء المتواضعة وبين الحقول النضرة .

---

(١) قصة الحضارة ٢ / ٣٠٩ .

وكذلك فعل « كارل بروكلمان » عندما بحث في أوليات الأدب العربي فقال : [ إن سكان شبه جزيرة العرب منذ القدم ينقسمون إلى مجموعتين شعبيتين تفصل فروق بعيدة العمق إحداهما عن الأخرى . ففي السهل الساحلي الخصيب في الجنوب ، وفي السفوح الزراعية الكثيرة والمتدرجة وراء ذلك السهل في تصاعد يبلغ مرتفعات شاهقة ، اختلط ( من قديم ) الجنس الشرقي الذي يكون نواة الأصل السامي بعناصر من أجناس البحر الأبيض المتوسط ، وعناصر زنجية في بعض الجنوب ، لما يبدو من امتداد العلاقات بالساحل الإفريقي المقابل إلى زمن ما قبل التاريخ . وهكذا أوطن السكان هنا في زمن مبكر ، وأنشأوا بفضل موقعهم الجغرافي على طريق التجارة الهندي المصري عمراناً ماديّاً رفيعاً . على أنه وإن كانت دولهم سبأ ، ومعين ، وحمير ، قد أرسلت قوافل تجارية الى الشمال في بلاد الشام كما أنزلت جاليات من معين في بلاد ( العلا ) القريبة من مدائن صالح ، فقد حال تكوين هذه الدول الإقطاعي دون نمو نظام سياسي دقيق ، أو قيام سلطان قوي ، لتغلب سادتهم على الملوك ، وتناهت حضارتهم العقلية إلى قيام تشريع ينظم جميع العلاقات الملكية بعناية ودقة . ولكن نقوشهم الكثيرة العدد حيث كانت ليست ذات غناء للنظرة التاريخية . أما أهل شمالي تهامة وهضبة نجد فإنهم وإن تقدموا منذ زمن طويل قبل الميلاد نحو سورية وبلاد ما بين النهرين ، قد احتفظوا بطابع سلالتهم الأصلي على مستوى أنقى . وكانت بذرتهم الأولى تتألف من العرب الرحل الذين حفظت لهم حياة البداوة عقولهم وأجسامهم غضة ناضرة ، ولم تقم لهم مستعمرات حضرية إلا على طريق التجارة في أراضي الحجاز الساحلية . ولكن العرب أقاموا في هذه المدن متميزين في أحياء وقبائل مثل أبناء عمومتهم من البدو الرحل ، ولم تنشأ إمارات عربية إلا في أطراف الصحراء وتحت تأثير الدولتين العظميين : بيزنطة الرومية وفارس . فقد قامت إمارتا دمشق والحيرة اللتان جمعتا أيضاً في بعض الأحيان مجموعات كبيرة من البدو ، تحت سيادتهما ](1) .

فبروكلمان وأمثاله من المستشرقين المتأخرين لا يذهبون ببحوثهم إلى عصور ما قبل الميلاد . فلذلك تراهم عندما يبحثون عن صلات المعينيين والسبئيين بالشمال الحجازي لا يذكرون غير الصلات التي كانت تربط بين العلا في شمالي الحجاز وبين معين في الجنوب . أما عن تاريخ المعينيين والسبئيين في شمالي الحجاز فهم لا يتحدثون عنه ، ولذلك رأيناهم ينكرون ما اقتنع به من سبقهم من المستشرقين في موضوع اللغات السامية ، ولا يهتمون بما يقولونه عن اللغة العربية وإنها هي أم اللغات السامية .

فهم كما تراهم لا يلقون بالاً ، لا إلى ما جاء في بحوث من سبقهم من المستشرقين : ولا إلى ما جاء في المؤلفات العربية عن نشوء المجتمع المكي بعد بناء البيت وعن دول : عاد وثمود ، وعبد ضخم ، وطسم ، وجديس في مكة ، والمدينة ، والحجرين : حجر ثمود

---

(1) تاريخ الأدب العربي ص ٤١ و ٤٢ .

وحجر اليمامة ، والطائف ـ لأن النقوش التي وصلت إلى أيديهم ليست ذات غناء للنظرة التاريخية على تعبير بروكلمان ، ولأن أهل التوراة لا يعرفون شيئاً عن أخبار عاد ولا ثمود ولا هود ولا صالح ولا أحد من العرب العاربة ، لأن سياق الأخبار في التوراة عن أولئك الأمم إنما هو لمن كان في عمود النسب ما بين موسى وآدم ، وليس لأحد من آباء هؤلاء الأجيال ذكر في عمود ذلك النسب ، كما يقول ابن خلدون(١) .

١٦ ـ ولعل ( سيديو ) أحد القلائل الذين أشاروا إلى الوضع السياسي في قلب البلاد العربية في كلامه عن التنافس بين الكنعانيين والاسماعيليين : [ ولكن مع بدء تنافس الأرومتين الكبيرتين : العرب المتعربة ، والعرب المستعربة ـ فكان يبحث عمن يكون رئيساً ليتبعه الجميع عند الإغارة ، وعن المكان الذي يكون مركزاً للشعب العربي . وكانت لكلا الحزبين قاعدته ـ وودّ بنو إسماعيل أن تكون الصدارة لمكة فاستندوا في دعواهم إلى قدسية ما تحتويه من الآثار . وود بنو قحطان أن تكون مرتبة الشرف لصنعاء فذكروا في دعم زعمهم غنى اليمن وقدم أهلها فطلبوا أن تكون صنعاء عاصمة لبلاد العرب ـ ولم ينته الصراع بين الفريقين إلا في القرن السادس حين كسبت مكة دعواها ، أي حين رأى محمد إمتاع بلاده بالوحدة الدينية . وظلت نجد والحجاز سالمتين من أي تسلط أجنبي فإليهما وجب أن تلجأ كل قومية عربية لتنير الخارج فيما بعد . ولم تقع فيهما دولة متسلسلة الراتب كدولة التبايعة ، فكانت تملكها قبائل مستقلة راضية بأن تدير أمور نفسها بنفسها مضحية بكل غال لوقاية حريتها ، ولم يتغير منظر هذه القبائل ولا تاريخها منذ قرون ، فكانت كالمجتمعات الصغيرة المتماثلة في الطبائع والعادات والأخلاق ، المنفصل بعضها عن بعض في النظام السياسي ](٢) .

فهؤلاء القلائل ـ وإن كانوا يستبعدون في بحوثهم أن يكون للعرب دول في جزيرتهم ـ وإن كانت بحوثهم مقتصرة على عرب ما قبل الإسلام ـ فهم مع كل ذلك لم يسقطوا من بحوثهم ما فطر عليه العرب من صراحة وأنفة وانطلاقية ، ولم يحرموا العرب الذين ظلوا داخل جزيرتهم من التطلع إلى الاستقرار السياسي . وهم في بحوثهم المتأخرة متأثرون بما جاء في الآثار الآشورية وفي النصوص الرومانية والفارسية عند العرب الذين كانوا يناوئون كل نفوذ أجنبي ، والذين كانوا يطمحون لإعادة السلطان العربي إلى الهلال الخصيب . فما أشبه الدولة الآشورية بالدولة العباسية ، فكلتا الدولتين العربيتين وطدت دعائمها بسيوف غير عربية لعبت دورها في الكيد للعرب والحط من شأنهم ، ولم تكن دولة فارس أو إمبراطورية الرومانيين بأقل حقداً على العرب وطمعاً في أرضهم من الاستعمار الحديث . وهكذا مني العرب بالشعوبية والاستعمار قبل الإسلام وبعده .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ١ /٣٧ و ٣٨ طبعة النهضة .

(٢) التاريخ العربي العام ص ٣٤ و ٤٩ .

١٧ ـ وهؤلاء القلائل عندما يقولون : إن العرب متأهبون للإغارة على مجاوريهم ينسون الأسباب التي دعت الأمم العربية إلى خوض الحروب مع جاراتها منذ القدم ، فلقد اقتطع السوموريون العراق من الجسم العربي ، ثم لم يكفهم هذا حتى طمعوا في شمالي الجزيرة ومواردها ـ فكانت حملات العرب القديمة على العراق دفاعاً عن الوطن العربي وفي سبيل الذود عن خيراته . وكذلك عندما تجمعت قبائل إياد وقضاعة لإعادة الجزء الذي سلبته الدولة الفارسية ، اعتبر المستشرقون هذا النضال العربي غارات قبلية هدفها السلب والنهب .

وأغرب ما في الأمر : أن المستشرقين عندما يذكرون النضال العربي يصفونه بغارات بربرية ، وعندما يذكرون الغزو الآري من عهد الإسكندر الأول ومن بعده الروماني الذي استمر إلى الحروب الصليبية إلى حملات نابليون إلى الحروب الاستعمارية التي شنها الغرب على هذا الشرق العربي ، لا يذكرون البربرية السفاحة والوحشية المفترسة التي يمثلها الغزو الاستعماري بأبشع صورها المروعة .

أليس هذا مما يبعث الشك فيما يقوله المستشرقون عن العرب في هذه الناحية ، ولا سيما الذين عاصروا الاستعمار الغربي ووقفوا بجانب دعايته التي بذلت كل ما في وسعها لتغطية الحقيقة العربية ؟

والمهم الذي يعني البحث هنا : أن المستشرقون في مختلف العصور لم يستطيعوا أن ينكروا وجود الأسر الاجتماعية في مدن قلب الجزيرة العربية ، ولم يستطيعوا أن ينكروا انقياد العربي للزعامة التي لا يرى فيها غضاضة عليه . ولا يجد فيها ما يحرمه حريته وحقوقه إن هو سار خلفها .

وإذا كان المستشرقون الذين سبقوا الاستعمار الغربي أو الذين عاصروا اشتغال الغرب عن الشرق العربي بالدولة العثمانية وتحطيمها . قالوا بقدم الحضارة العربية وبقدم الأسر الاجتماعية وبقدم الدولة العربية ، فإن هؤلاء قلة ، والقليل منهم : هم الذين يمثلون الرأي المعتدل الذي تجنب حملات المستشرقين الذين تأثروا بالحروب الصليبية . وتجنب اتهامات الذين وقفوا في صف الاستعمار الغربي . فلذلك نرى الحقائق التي جاءت في أقوالهم يغشاها بعض ما أثاره التعصب المسيحي ضد الإسلام وأنصاره العرب ، وبعض ما أثارته الدعاية الاستعمارية .

وإذا كنت أنا هنا قد سبقت الخطة المرسومة لهذا الكتاب التي منها وضع بحث خاص بالمستشرقين وبما أفادوا به التاريخ العربي وبما جنوه عليه يأتي في الجزء الخاص بمصادر التاريخ العربي ، فإن عذري هو ضرورة البحث في موضوع المجتمع العربي وإذا كنت أنا هنا قد قسوت كما قد يظن فإنني قد قلت من قبل وقلت هنا وأقول فيما يأتي من أجزاء الكتاب : إن البحوث المستشرقة أفادت التاريخ العربي كثيراً وجنت عليه كثيراً ، وإن في بعض البحوث

المستشرقة تحقيقات معتدلة رصينة أنارت جوانب من التاريخ العربي لم تكن واضحة ، ومن تلك الجوانب : التاريخ العربي القديم .

١٨ ـ فالتحقيق المعتدل ـ وإن لم يؤكد لنا : أن دولة « عاد » و « ثمود » و « جرهم » و « العماليق » كانت على مستوى دولي كالذي كانت عليه دول اليمن والعراق ـ لم يستكثر على قلب الجزيرة إنشاء دولة مدبرة لأمرها متأهبة للإغارة على مجاوريها إذا ما أراد مجاوروها الاعتداء عليها .

والذي يستحوذ على اهتمام المؤرخين في العصر الحاضر هو تحقيق أسماء الدول والشعوب والأمكنة التي وردت في التوراة وفي المصادر البابلية والآشورية ، وتطبيقها على أسماء الدول والشعوب والأمكنة التي وردت في القرآن الكريم وفي الأدب العربي الجاهلي ، ثم تحديد أزمنتها وناحيتها ولو على وجه التقريب ـ وإنك لترى مدى الجهود التي بذلت في هذا السبيل ، والنتائج التي وصلت إليها ، في الأجزاء الخاصة بجغرافية البلاد العربية القديمة وشعوب الجزيرة ودولها .

فالتحقيق المعتدل لم يحكم ولن يحكم على العرب الذين توصلوا بمعارفهم إلى ما في بطن أرضهم من نحاس وذهب ، وتاجروا بإنتاجها المعدني والزراعي ، وبنوا ! والمصانع ، وجهزوا الجيوش ونظموها ـ بأنهم قبائل رحل لا يستقر بها المقام في أرض حتى تنزح إلى أخرى .

ومما لا مراء فيه : أن الجيوش العربية التي فتحت الهلال الخصيب إلى أعالي الفرات ووادي النيل إلى أقصى الضفة الشرقية . وركزت القومية العربية في كل جزء من أجزاء الجزيرة العربية بتشريعات دينية وإدارية واقتصادية ـ لم تكن قبائل متوحشة جل همها الإغارة والنهب والسلب .

١٩ ـ ولكن هذا كله لا ينفي الرأي القائل بأن للعرب في قلب الجزيرة نظامهم الخاص ، وتقاليدهم العريقة القريبة من النظام القبلي ـ فنحن نرى في كل عصر من عصور الشعوب وفي كل قطر من أقطار الأرض ـ فرقاً واضحاً بين حياة سكان العواصم المزدحمة بمختلف العناصر والأخلاق والأفكار واللغات ، وبين سكان المدن البعيدة عن مثل ذلك الازدحام .

وتبرز هذه الفوارق في الدولة الإسلامية بصورة واضحة ، فالخلفاء الراشدون في المدينة لم يقيموا وزناً للمظاهر التي كان يهتم بها معاوية وخلفاؤه الأمويون في دمشق ، والمنصور وخلفاؤه العباسيون في بغداد ـ وعندما انتقد الخليفة الراشدي « عمر بن الخطاب » وأنكر على قادة الجيش الإسلامي في فلسطين مظاهر الأبهة التي أضفوها على أنفسهم أقنعه معاوية بأنهم في بلد المظاهر فلا يكون للقيادة نفوذها ما لم تكن لها أبهتها .

على أن المدينة المنورة التي لم تقم وزناً لمظاهر الدولة وتقاليدها ، هي التي وضعت الأسس الإدارية للدولة الإسلامية العربية .

لا شك في أن هناك فوارق بين الحياة العربية في قلب الجزيرة وبين الحياة العربية في أطرافها التي اكتظت بعناصر لها تقاليدها وحضارتها ولغتها ، فها نحن في عصرنا لا نزال نرى الفوارق واضحة بين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها الإدارية والقضائية وتقاليدها الاجتماعية في داخل الجزيرة ، وبين أوضاع الدول العربية ومظاهرها ونظمها وتقاليدها الاجتماعية في أطراف الجزيرة .

فلئن كانت بلاد الأنهار ، وشواطىء البحار ، وجوانب الطرق التجارية شهدت مجتمعات تألفت من عناصر تقلبت بها الظروف غالبة وتارة مغلوبة ، ولئن كانت القاعدة العامة تؤكد : أن حضارة العنصر الغالب وتقاليده ولغته ونظمه تطغى على حضارة العناصر المغلوبة وتقاليدها ولغتها ونظمها ، فإن هذا ليس معناه أن العنصر المغلوب يتجرد من كل أخلاقه وعاداته وأفكاره ، أو أن العنصر الغالب لا تتأثر تقاليده وعاداته ولغته وأفكاره بشيء مما يفرضه عليه الاختلاط بالعناصر التي تعيش معه والتي غلبت على أمرها .

فلابد لدستور الدولة وتشريعاتها من مراعاة الأقليات مهما صغر شأنها ، ولابد لتقاليد المجتمع من أن تتألف من عادات العناصر التي يتكون منها المجتمع ، ولابد لأساليب حياتها من أن تتدخل في تطوير العرف الاجتماعي .

٢٠ ـ ولهذه الأسباب كان المجتمع المكي له تقاليد لم تخل من العادات والطباع التي تأثرت بها قريش من احتكاكها بحجاج البيت الحرام ، وبما عرفته من رحلاتها لسورية والعراق ومصر والحبشة . ولهذه الأسباب كان لزاماً على « قصي بن كلاب » أن ينظم الوضع الاجتماعي والإداري في مكة بما يتفق مع مركزها ، ويحدد واجبات الحج الضخمة التي على قريش أداؤها . فيعين المسئوليات ويقسمها بشكل قد نكون مبالغين إذا قلنا : إنه يشبه تشكيل الوزارات وتحديد مسئولياتها في الوقت الحاضر .

٢١ ـ فعلى كل باحث في التطور الاجتماعي ، وفي النظم السياسية في الشرق العربي ، أو في أية أرض تضم مجموعة من الدول ذات العنصر الواحد ، سواء أكانت تلك الأرض شرقية . أم كانت غربية ـ أن لا يغفل عن البيئة ، ومؤهلاتها ، وإمكانيتها ، والفرص التي تتخطى شعوباً لتصل إلى شعوب أخرى ، وأن لا يغفل عن أن هذه الفرص كالخطوط الفردية التي تهجر هذا لتحتضن ذلك ، فكثير من الأقطار العربية ، بل كثير من المدن في القطر الواحد ، دارت بها عجلة الزمن من شاهق المجد والثروة والنور إلى أسفل سافلين من الانطوائية والفقر والظلام .

فقليلة جدّاً الأقطار التي تملك من المؤهلات والإمكانيات ما يمكنها من الاحتفاظ بحضارتها ومستواها السياسي . ولكن مهما أقفرت الأقطار من أسباب الظهور على المسرح الدولي فإنها لا تعدم نظماً تحمي حقوق الأفراد ولا تعدم تقاليد تسير عليها حياة المجتمع .

فإذا كان الأقدمون قالوا من قبل : إن لكل زمان دولة ورجالاً ، فإنني أقول هنا : إن لكل

دولة ورجال أسباباً تهيىء لها ولهم البروز تحت الشمس . فمن أسباب بروز الدولة العربية في العصر الحاضر ونبوغ رجالاتها في المجال السياسي ، ومن بواعث التنظيم الذي يكفل تطور المجتمع : الثروة البترولية التي أعزت الشواطىء العربية على الخليج العربي وسلطت عليها الأضواء بعد أن انزوت في غياهب الفقر والجهل منذ أن أقفرت موانئها من السفن التجارية التي كانت تتهادى في بحارها كأنها الأعلام .

فهذه الشواطىء التي كانت إلى وقت قريب منزوية منطوية على نظمها وتقاليدها العتيقة ، أصبحت بقدرة قادر ذات دستور دولي ، وذات وزارات وأعضاء في المجالس العالمية لهم صوتهم ولهم مكانتهم المرموقة .

فليس شأن هذه السواحل اليوم بأكثر من شأن وادي القرى وعواصم الدول التي لمعت في الماضي العربي القديم ، وليس شأن هذه السواحل بالأمس ، كشأن مكة ذات السؤدد الخالد والمجد الذي لا يأفل مادام هذا البيت قائماً مثابة للناس وأمناً .

وليس من المنطق في شيء إن نحن حكمنا على دول قلب الجزيرة القديمة بأنها كانت على غير نظام ، وحكمنا على مجتمعاتها بأنها كانت على غير تقاليد توثق الروابط بين الجماعات ، بناء على الوضع الجاهلي الأخير ، فإذا كانت عجلة الزمن دارت بالأمم العربية فاختفت عظمتها وانزوى سؤددها وغشي أرضها ظلام جاهلية ما قبل الإسلام ، فإن هذه هي سنة الحياة وليس العرب وحدهم هم الذين تقلب بهم الزمن .

٢٢ ـ قد لا يكون وضع الشعوب العربية اليوم صورة طبق الأصل لوضع الشعوب العربية في أمسها البعيد ، ولكنه يعطينا فكرة قريبة في اعتقادي من الواقع ، عن ذلك الفرق الذي كان بين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده في قلب الجزيرة ، وبين نظام الدولة وبين حضارة المجتمع وتقاليده في الهلال الخصيب شمالا وفي بلاد السدود جنوباً .

ولست في حاجة هنا إلى أن أقول : إن المقارنة بين الحاضر والماضي ، تعني الماضي البعيد ، وإنما أنا في حاجة إلى التنويه بما كانت عليه دول العماليق والإرميين والسبئيين من بأس شديد وقوة دولية فعالة . فهي التي كانت سيدة الموقف في الشرق العربي . وهي التي رسمت الحدود السياسية للجزيرة العربية . وهي التي ثبتت القومية العربية في العراق وفي سورية ولبنان وفلسطين ، وفي صحراء سيناء ودلتا النيل والصحراء العربية في شرقي وادي النيل ، وفي الجنوب الغربي من الجزيرة العربية .

ولكن مع كل ذلك فإن التاريخ العربي لم ترتبط حلقاته إلا من بعد مطلع الألف الثانية قبل الميلاد .

* * *

# الفصل الثاني

من كتاب « التاريخ العربي ومصادرة »

## المسلمون لم يشعلوا النار في تراث القدامى

١ ـ لم يكن هذا الجزء في حاجة إلى نقاش بعض الآراء التي تعلقت بظاهر تلك النصوص التي مرت بنا في البحث المتقدم ( التأليف في التاريخ وكراهية التدوين ) ، ثم أخذت تبني عليها نتائج خاطئة ـ كما فعل ( نبيه أمين فارس ) ، وكما فعل ( جرجي زيدان ) ، لو لم يزعم أصحاب هذه الآراء : الاستقصاء والتعمق ولو لم يكن سمعة علمية لها أثرها على كثير من القراء نشأت عنها ثقة في كل ما يكتبون ، وجعلت من أقوالهم وآرائهم مصادر لبعض الباحثين في الثقافة العربية الإسلامية ومصادرها دون ما تؤكد من أصالتها وتثبّت من حقيقتها .

ولم يكن لي من حاجة إلى الوقوف طويلا عندما جاء في كلام ( جرجي زيدان ) عن أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية في عصر الفتح الإسلامي ـ لو لم يعد ( جرجي زيدان ) إلى هذه الأسطورة بأدلة لابد للبحث في التاريخ العربي ومصادره ـ من الوقوف عندها .

٢ ـ فلقد عاد جرجي زيدان ـ إلى أسطورة حريق مكتبة الإسكندرية بعد أن كان مقتنعاً بأنها خرافة تمخض عنها خيال ساذج [ كنا ممن جارى الذين طعنوا في الرواية التي تقول : إن مكتبة الإسكندرية أحرقها ( عمرو بن العاص ) بأمر ( عمر بن الخطاب ) في كتاب ( تاريخ مصر الحديث ) ـ ثم عرض لنا بمطالعتنا المتواصلة في تاريخ الإسلام والتمدن الإسلامي ـ ترجيح الرأي الأول ـ لأسباب نحن باسطوها ] ـ والأسباب التي بسطها جرجي زيدان وقال عنها : إنها أقنعته بترجيح الرأي الأول ـ وهي :

(١) رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن ـ استناداً إلى بعض الأحاديث النبوية وتصريحات مقدمي الصحابة .

(٢) أن ( أبا الفرج الملطي ) نقل خبر حريق مكتبة الاسكندرية من ( ابن القفطي ) ، وابن القفطي المعروف بالقاضي ـ عالم باللغة والحديث وعلوم القرآن ـ فإذا كان هناك من يشك في أبي الفرج الملطي ـ فإن القفطي بعيد عن الشك !!

(٣) أن المؤرخين الإسلاميين ـ في ظن جرجي زيدان ـ ذكروا هذه الرواية ثم حذفوها بعد نضج التمدن الإسلامي ـ واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب ـ فاستبعدوا حدوث ذلك فحذفوه !!

(٤) من رأي - جرجي زيدان - أن مما يؤكد أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية ما جاء في ( كشف الظنون ) عن علوم الأقدمين - فنقل عن كشف الظنون - : [ أن المسلمين لما فتحوا ( بلاد فارس ) وأصابوا من كتبهم - كتب ( سعد بن أبي وقاص ) إلى ( عمر بن الخطاب ) يستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب له ( عمر ) : أن اطرحوها في الماء فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه - وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله تعالى - فطرحوها في الماء والنار . فذهبت علوم فارس ] !! ويقول جرجي زيدان : لابد من أصل نقل عنه صاحب كشف الظنون - ويستشهد بقول أسنده إلى ( ابن خلدون ) وهو : [ أين علوم فارس التي أمر ( عمر ) بمحوها عند الفتح ؟ ] .

(٥) من الأسباب التي اعتمد عليها جرجي زيدان في تحقيقه الأخير . أن حرق الكتب كان في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه - فكان أهل كل شيعة أو ملة يحرقون كتب غيرهم كما فعل ( عبدالله بن طاهر ) بكتب فارسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣هـ من مؤلفات المجوس .

(٦) ومنها : أن أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدّون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي تأييداً للأديان الجديدة !!

(٧) استشهد جرجي زيدان - بما جاء في تاريخ جماعة من الأئمة المسلمين عن إعدامهم مؤلفاتهم من تلقاء أنفسهم ، مثل : ( أحمد بن أبي الحواي ) الذي محا مؤلفاته - وهو يبكي ويقول : نعم الدليل كنت لي على ربي ، فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال[1] .

٣ - ونحن قبل أن نحقق في هذا التحقيق ونصحح هذا التصحيح - علينا : أولاً أن نعرف حقيقة خبر حرق مكتبة الإسكندرية - من قاله ؟ ومتى قيل ؟ ومن هو المصدر ؟ ونتعرف على ناقلي هذا الخبر .

إن الخبر كما جاء في رواية الذين تناقلوه - ومنهم : جرجي زيدان - ورد على هذا النحو : تكلم ( يحيى النحوي ) عند ( عمرو بن العاص ) في شأن المكتبة التي أنشأها ( بطولاماوس فلادلفوس ) وطلب منه الإفراج عن كتب الحكمة في الخزائن الملوكية للحاجة إليها . فاستأذن ( عمرو بن العاص ) الخليفة في شأنها فجاء الأمر بإعدامها - فشرع ( عمرو بن العاص ) في تفريقها على حمامات الإسكندرية فاستغرق حرقها ستة شهور[2] .

٤ - فهذا الخبر كما يبدو - أبعد ما يكون عن الحقيقة وأقرب ما يكون إلى الأساطير التي كانت سائدة في أطراف البلاد الإسلامية في القرن السابع الهجري .

فأولاً - تدعي هذه الرواية أن : ( يحيى النحوي ) عاش إلى أن فتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية - معتمداً على ما جاء في كلام ( ابن النديم ) في فهرسته عن يحيى النحوي

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٤٤ إلى ٥١ .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٣/٤٨ .

وعصره وما جاء في كلام ( ابن العبري ) عن هذه الأسطورة : وعاش ( يحيى القراماطيقي ) إلى الفتح الإسلامي في حين أن تحقيقات المستشرق الإيطالي أثبتت : أن ( يحيى النحوي ) لم تكتحل عيناه بالفتح الإسلامي فقد أغمضهما الموت قبل وصول ( عمرو بن العاص ) إلى مصر بأكثر من ربع قرن [١] .

ثانياً - إن الإجراءات التي اتخذت في حرق مكتبة الإسكندرية كما جاء في هذه الأسطورة - لا يمكن أن يتخذها رجل عاقل حازم مثل عمرو بن العاص ، فهي إجراءات لا تؤمن الغرض الذي من أجله صدر أمر الخليفة بحرقها كما يزعم هذا الخبر - وهي إجراءات لا تصدر إلا من أحمق ساذج ، فأي منطق يصدق : أن عمرو بن العاص الذي أمر بإعدام هذه الكتب خوفاً مما يترتب على انتشارها - وزع هذه الكتب على حمامات مصر التي بلغت كما يقول المؤرخون أربعة آلاف حمام ، وأن حمامات مصر استمرت تحرق الكتب ستة شهور !! فمن الذي يضمن عدم تسلل الأيدي إلى حمامات مصر لتأخذ منها ما تريده ؟! فأين هذا الإجراء من ذكاء عمرو بن العاص وحزمه ودهائه ؟

أما متى روى هذا الخبر ؟ فهذا الخبر قد سمع في القرن السابع الهجري - وأما مصدر هذا الخبر - فمجهول - ولقد حاول جماعة من المؤرخين المتأخرين أن يرجعوه إلى ( إسحاق الراهب ) بيد أن ( ابن النديم ) تكلم عن إسحاق الراهب ونقل عنه خبر إنشاء مكتبة الاسكندرية في عهد ( بطولاماوس ) ولم ينقل عنه خبر حرقها[٢] . ومن بين الذين لم يجدهم البحث عن هذا المصدر - جرجي زيدان نفسه - فلقد قال بكل صراحة : [ بقي علينا البحث عن المصدر الذي نقل عنه ( ابن القفطي ) . والغالب أنه عين المصدر الذي نقل عنه ( عبداللطيف البغدادي ) ولكن لسوء الحظ قد ضاعت تلك المصادر في جملة ما ضاع من مؤلفات العرب ][٣] .

إذن ( ابن القفطي ) الذي عاش بين سنة ٥٦٨ وسنة ٦٤٦هـ[٤] و ( عبداللطيف البغدادي ) الذي عاش فيما بين سنة ٥٥٧ وسنة ٦٢٩هـ[٥] - هما أن من ذكر هذا الخبر . ويصر جرجي زيدان على أن ( ابن القفطي ) هو مصدر ( ابن العبري ) المتوفي سنة ٦٨٤ ليزيل الشبهة عن هذا الخبر حيث قال : [ وإن حكاية إحراق مكتبة الاسكندرية لم يختلقها ( أبو الفرج - ابن العبري ) لتعصب ديني - بل هو نقلها عن ابن القفطي ، وهو قاض من

---

(١) تاريخ عمرو بن العاص لحسن إبراهيم ص ١٤٧ .
(٢) فهرست ابن النديم ص ٣٣٤ و ٣٥٦ - وفيما جاء في الفهرست اضطراب يظهر في قول ابن النديم في تفسير يحيى النحوي لكتاب السماع الطبيعي وتاريخه بالنسبة لعصر يحيى النحوي .
(٣) التمدن الإسلامي ٣ / ٤٤ وما بعدها .
(٤) راجع ترجمة ابن القفطي في هذا الجزء .
(٥) راجع ترجمة عبداللطيف البغدادي في هذا الجزء .

قضاة المسلمين ] ، ويصر جرجي زيدان : على أن هذا الخبر الذي لم يرد في كتاب ( مختصر الدول ) في النسخة السريانية لم يدسه أحد في نسخة الكتاب العربية - حيث قال : [ فإغفال هذا الخبر في النسخة السريانية - لا يدل على أنه دخيل في النسخة العربية أو دسه فيها بعض المتأخرين كما توهم بعضهم ](١).

فجرجي زيدان - كما تراه ، في تحقيقه هذا - يعتمد على سمعته العلمية ، فكلما ضاق ذرعاً بخلو يده من نص يؤكد رأيه ، فرض ظنونه فرضاً - فهو يفرض : أن المؤرخين جميعهم اتفقوا على محو هذا الخبر ، ويفرض : وجود مصدر لهذا الخبر ضاع مع ما ضاع من مؤلفات العرب ، ويفرض : وجود نص غير مؤلف ( كشف الظنون ) عن إعدام كتب فارس ، ويفرض : أن ( ابن القفطي ) هو مصدر ( ابن العبري ) ويفرض أن : ( ابن العبري ) أغفل هذا الخبر في نسخة كتابه ( مختصر الدول ) السريانية عمداً وأنه ذكره في النسخة العربية عمداً !!

على أنه سواء كان ( ابن القفطي ) هو : مصدر ( ابن العبري )(٢) أم كان ( عبداللطيف البغدادي ) هو : المصدر - فإن الرجلين متعاصران . وإن كلا الرجلين لم يذكر لنا مصدراً غير تلك الشائعات التي كانت تذاع ضد العرب في القرن السابع - وفي القرن السابع تضعضع الموقف العربي واهتز إزاء حملات العناصر التي تألبت على العرب وسيطرت على مقدرات البلاد العربية .

هذا هو أساس تلك الأسطورة ومصدرها ، أما مكتبة الاسكندرية وتاريخها والأحداث التي حاقت بها قبل الفتح الإسلامي - وهل كانت مصر البيزنطية مورداً من موارد رواد الثقافة العربية والمؤلفين في التاريخ ؟ فلهذا الموضوع بحث خاص يأتي في هذا الجزء .

٥ - وأما الحيثيات التي بنى عليها الاعتقاد بأن العرب المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية فنقاشها ضروري للبحث لما في تلك الحيثيات من قضايا تاريخية تترتب على حقيقتها نتائج ذات شأن في بحث : التاريخ العربي ومصادره كما قلت من قبل .

أولاً : لقد حرص جرجي زيدان وغيره من مروجي هذه الأسطورة على أن يقدموا لها حيثيات ذات سمات علمية تبعث على الثقة فيها - ولذلك نراه : يستغل الصفات التي كان يتمتع بها القاضي الأكرم جمال الدين القفطي - ويحرص على إبرازها في سياق كلامه عن حرق مكتبة الإسكندرية - ونرى أيضاً : أن هذه الصفات لا تكفي لأن تكون دليلاً لا ريب فيه يؤكد : صحة كل ما وصل إلى مسامع ( ابن القفطي ) فسجله فيما سجله : فلابد للمؤرخ الذي يكتب عن قضية من قضايا الماضي من نص يعتمد عليه لا سيما أن هذا الخبر لم يتحدث عنه مؤرخ من قبل مطلع القرن السابع من الهجرة . والقرن السابع مليء بالفواجع ففيه انتهت الخلافة العباسية على أيدي التتاريين ، وفيه برزت العواقب الوخيمة للانقسام

(١) التمدن الإسلامي ٣/ ٤٩ .

(٢) راجع ترجمة ابن العبري في هذا الجزء .

العنصري والانفصال السياسي اللذين منيت بهما الامبراطورية العربية ، واستسلم آخر معقل للخلافة العباسية - فلا يستبعد عن أحداث هذا القرن أن تذاع في غمرتها الشائعات عن الدولة العربية ، وتؤلف ضدها الأساطير وتنسب إليها مثالب هي منها براء ، ولا يستبعد عن ابن القفطي - أنه سجل هذا الخبر ببراءة المؤرخين الذين كانوا حريصين على تسجيل كل ما يسمعونه على علاته - وما أكثر علات هذا الخبر !!

ولقد صدّر جرجي زيدان حيثيات اعتقاده في هذه الأسطورة - بالإشارة إلى ما سبق عن التدوين وتعلق الظنون بظاهر النصوص - وما سبق عن التدوين وضع الحقيقة تحت الشمس فليس فيما ورد عن التدوين ما يؤكد هذه الأسطورة ، فالمسلمون لم يحرقوا أسفار اليهود بل إنهم أخذوا عنها فيما يعود إلى التاريخ القديم .

ثانياً : ولم يقدم جرجي زيدان - نصّا يعتمد عليه في قوله : إن مؤرخي الفتح الإسلامي ذكروا خبر الحريق ثم حذفوه - وإنما قدم ظنا بدون دليل [ وبعد معرفة المسلمين قدر الكتب استبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ] - وهذا الظن لم يقنع جرجي زيدان نفسه حيث قال متحمساً متعصباً لظنه : [ وعلى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبي الفرج الملطي ][(1)]!!

فمن هم المؤرخون الذين حذفوا هذا الخبر ؟ وهل هم أولئك الذين ذكروا ما فعله ( أبوبكر الصديق ) بالأحاديث الخمسمائة ، وذكروا عدول ( عمر بن الخطاب ) عن تدوين السنن إلى غير ذلك مما تحدث به مؤرخو الثقافة الإسلامية ؟! إن هؤلاء المؤرخين الذين قدموا لنا النصوص الواردة في التدوين والمدونات لا يمكن أن توجه إليهم تهمة إخفاء حقيقة تاريخية كهذه ، فالذين لم يخفوا غضب رسول الله عليه الصلاة السلام من عمر بن الخطاب - عندما قال له : يارسول الله ؛ هذا كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا - حريّ بهم ألا يخفوا أمراً أصدره عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص .

وأي منطق يقنع بأن المؤرخين جميعهم تضامنوا طيلة هذه القرون الستة على حذف خبر بعيد عن السرية مثل حرق كتب في حمامات الإسكندرية دام ستة أشهر ؟! والمؤرخون كما عرفناهم من تراجمهم - منهم : المسلم ، واليهودي ، والمسيحي ، ومنهم العربي والعجمي والسني ، والشيعي والأموي والعباسي ، والعدناني والقحطاني ، ومنهم : من عاش في الشرق الإسلامي ومنهم من عاش في أقصى الغرب الإسلامي .

ثم ما هو السبب في « صهينة » المؤرخين المسيحيين - مثل البطريق ( أوتيخوس ) مؤرخ الإسكندرية - و ( يوحنا أسقف نقيوس ) المؤرخ الذي كتب عن فتح مصر في القرن السابع من الميلاد ؟ فهل كانا من المؤرخين المسيحيين الذين يفرض جرجي زيدان تضامنهم مع المؤرخين المسلمين في حذف هذا الخبر تستراً على التاريخ الإسلامي ؟

---

(١) التمدن الإسلامي ٣/٤٩ .

ثالثاً : ولما لم يجد جرجي زيدان : نصّاً يؤكد ما قاله ( حاجي خليفة ) المتوفى سنة ١١٤٠هـ[١] عن كتب فارس : قال : [ لابد لهذا الخبر من أصل نقل عنه صاحب ( كشف الظنون ) ] ثم استشهد بقول نسبه إلى ( ابن خلدون ) : [ فأين علوم الفرس التي أمر عمر بن الخطاب بمحوها ] ـ وعزاه إلى صحيفة ( اثنتين وثلاثين ) من الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ـ ولقد رجعت إلى النسخة التي في مكتبتي والتي علق عليها الأمير ( شكيب أرسلان ) طبع مطبعة النهضة ـ فلم أجد في الصحيفة التي تحمل هذا الرقم في الجزء الأول وفي الجزء الثاني ولا في الصفحات التي قبلها ولا التي بعدها في الجزأين أثراً لهذا القول !! بيد أني وجدت في تاريخ ( عمرو بن العاص ) نقلا عن مقال في مجلة ( الهلال ) كتبه ( شبلي أفندي النعمان ) ـ جاء في كلامه عن حرق مكتبة الإسكندرية : [ حتى قال بعضهم : إن ابن خلدون ذكر هذا أيضاً ـ يعني حريق مكتبة الإسكندرية ـ أما ابن خلدون فتاريخه متداول بيننا وكل من اطلع عليه يعلم : ألاَّ ذكر لهذه الحادثة على الإطلاق ][٢] ولسوف يأتي بحث خاص بكتب فارس .

فما أكثر ما تنسب التحقيقات السطحية إلى مصادرنا [ ما ليس فيها ـ اعتماداً على نظرة خاطفة لم تصل إلى حقيقة الموضوع . وما أكثر حاجة الباحث إلى التثبت ـ أما القارىء العادي ففي ذمة المؤلفين[٣]!!

رابعاً : ولقد اتخذ جرجي زيدان مما يقال عن أن ( عبدالله بن طاهر ) أعدم مؤلفات مجوسية كانت لا تزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣هـ ، ثم أصدر أمراً إلى الأطراف يقضي بإعدام كل ما وجد من كتب المجوس : دليلا على أن حرق الكتب كان شائعاً في تلك العصور تشفياً من عدو أو نكاية فيه .

وهذا الدليل ـ كما تراه ـ لا يؤكد خبر حرق مكتبة الإسكندرية ـ بل هو ينفيه ـ فلو أن ( عمر بن الخطاب ) أمر ( عمرو بن العاص ) أولا ، و ( سعد بن أبي وقاص ) ثانياً : بإعدام كتب البطالسة في مصر وكتب الفرس في العراق ـ لاتخذ المسلمون هذا الأمر قاعدة عامة ، ولما بقيت كتب المجوس إلى سنة ٢١٣هـ . فأفعال ( عمر بن الخطاب ) وأوامره مازالت حتى اليوم تشريعاً تسير عليه أحكام القضاة وتتقيد به الإدارة الإسلامية .

ثم إننا إذا ما سايرنا منطق هذا التحقيق الذي يفترض أن المسلمين حذفوا خبر حريق مكتبة الإسكندرية عندما نضجت العقلية الإسلامية ـ ثم أخذنا بهذا الدليل ـ فمعنى ذلك ـ أن العقلية الإسلامية لم تنضج إلا سنة ٢١٣هـ حيث إن المسلمين مازالوا يعدمون التراث القديم . وإن حذف خبر مكتبة الإسكندرية حدث بعد هذا التاريخ الذي أتلف فيه عبدالله بنٍ طاهر كتب المجوس ـ فأين هذا من حقائق التاريخ ؟!

(١) راجع ترجمة حاجي خليفة في هذا الجزء .
(٢) تاريخ عمرو بن العاص لمؤلفه حسن إبراهيم حسن ص ١٤٣ .
(٣) الإسلام والحضارة الإسلامية ١ / ٢٠ وما بعدها ، فقد جمع كرد علي أقوال كثير من المستشرقين الذين أثبتوا كذب هذا الخبر .

خامسا : ويقول جرجي زيدان : إن سياسة تلك العصور الدينية كانت تعدّ هدم المعابد ، وإحراق كتب أصحابها تأييداً للدين الجديد ، فبدافع هذه السياسة أعدم المسلمون كتب المسيحية والمجوسية في فارس ومصر . . وإن هذه السياسة صار عليها خلفاء المسلمين الذين كانوا إذا أرادوا اضطهاد المعتزلة وأهل الفلسفة أحرقوا كتبهم ، وإن من أشهر الحوادث من هذا القبيل ؛ ما فعله السلطان ( محمود الغزنوي ) سنة ٤٢٠هـ فإنه قتل الباطنية ونفى المعتزلة وأحرق كتب الفلسفة والنجامة - وما يقوله جرجي زيدان - لا تقره الحقائق التاريخية - فليس من سياسة الإسلام هدم المعابد ، فهذه وصية ( أبي بكر الصديق ) لقائد أول جيش يجهزه أول خليفة : جيش ( أسامة بن زيد ) -[ لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلّوا ولا تحتلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ] ، وهذا عهد ( عمر بن الخطاب ) ثاني الخلفاء الراشدين ، الذي تدور حوله أسطورة حرق مكتبة الإسكندرية ، لأهل ( إيلياء ) : [ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا يتنقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولايكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ] - هذا هو عهد ( عمر بن الخطاب ) الذي لم يرض : أن يؤدي الصلاة في كنيسة القدس خوفاً من أن يتخذ المسلمون مصلاه مسجداً ويتخذون من صلاته في الكنيسة قاعدة ، فلا يجدون الذميون في البلاد الإسلامية كنيسة يتعبدون فيها .

وهذه عهود قادة جيوش الفتوحات الإسلامية : ( حذيفة اليماني ) و ( سويد بن مقرن ) و ( عتيبة بن فرقد ) و ( بكير بن عبدالله ) وغيرهم في فارس وفي غير فارس ضمنت جميعها المحافظة على الأنفس والأموال والعقائد والمعابد .

وهذا عهد ( عمرو بن العاص ) لأهل ( مصر ) : [ هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم وملتهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم . لا يدخلون عليهم بشيء من ذلك ولا ينقص ] . ولقد كان من شروط تسليم الإسكندرية منح البيزنطيين - عشرة شهور ليبحروا بكل ما يملكون في غضون هذا الأجل ، ففي هذا الشرط فرصة لم يهمل - البيزنطيون - اغتنامها أو يهملوا تراثهم العلمي كما رجح ذلك بعض المستشرقين الذين تأتي أقوالهم في البحث القادم .

وليس من سياسة الإسلام : تأييد مبادئه بحرق التراث العلمي ، وليس ما فعله أمراء المقاطعات وسلاطين الدول الإسلامية مع الباطنية والمعتزلة والشيعة - هو انتقام دين من دين . فكتب هذه الفِرَق ليست كتب دين آخر تدين بها جالية تعيش في حماية الدولة الإسلامية . فإعدام المضلل من هذه الكتب ، وردع المنحرف من أبناء هذا الفرق لا يعدّ انتصاراً للإسلام على غيره - وإنما كان إعدام هذه الكتب لأنها تنشر آراء هدامة حررتها أقلام

مسلمة . وإنما كان ردع المنحرفين من المسلمين لخروجهم على المجتمع وعقائده ، ومبادئه - وهذا هو مصير الآراء الهدامة ودعاتها في الدول الإسلامية ، وفي غير الدول الإسلامية في الماضي وفي الحاضر . فحرية الرأي والقول والعمل : شرطها في كل زمان وفي كل مكان ، ألا تكون منحرفة ضارة تنحرف بالمجتمع وتضلله ، وألا تتعارض مع مبادىء الدولة وشعارها . وألا تسبب الانشقاق على الدولة والانقسام في المجتمع ، فالدستور الإسلامي الذي يحكم بإعدام المرتد يحافظ على حياة الذمي وحريته .

فما فعله السلطان ( محمود الغزنوي ) وما فعله ( عبدالله بن طاهر ) - تفعله دول العصر الحاضر مع كل من يحاول بلبلة العقائد وتضليل الجماهير والخروج على الدستور ، بمبادىء تدعو للانفصال العقائدي ، وتفعله أجهزة الإعلام والإرشاد القومي ، أما الجاليات غير المسلمة فقد اشترط لها المسلمون على أنفسهم كامل الحرية في أداء طقوسها التعبدية ودراسة علومها الدينية ، ولم يثبت على المسلمين أنهم نكثوا عهداً ألزموا به أنفسهم .

سادساً : ومن الأسباب التي أقنعت ( جرجي زيدان ) بصحة الخبر [ أن في تاريخ الإسلام جماعة من الأئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم . ومنهم ( أحمد بن أبي الحواري ) الذي محا مدوَّناته - وهو يبكي ويقول : نعم الدليل كنت لي على ربي فلما ظفرت بالمدلول فالاشتغال بالدليل محال ] .

إن ( ابن الحواري ) ليس هو أول من أحرق مدوَّنات خوفاً من مسئولية ما يترتب على بقائها ، فلقد سبق إلى ذلك ( أبو بكر الصديق ) حيث أحرق الأحاديث التي دونها خوفاً من مسئوليتها(١) - وإن النص الذي أورده جرجي زيدان نفسه - يشهد على أن ما فعله ( ابن الحواري ) شيء وإحراق الثقافات شيء آخر - فهو يدل صراحة على أن مدوّنات ابن الحواري كانت بحوثاً شائكة في حقيقة الله - والبحث في حقيقة الله خطر على عقيدة من لا يملك من المعرفة ما يملكه ابن الحواري - فلذلك لما ظفر ابن الحواري بالمدلول بادر بمحو الدليل الذي لا لزوم له ولا يؤمن خطره على غيره .

٦ - هذه هي الأسباب التي أقنعت جرجي زيدان بالرجوع عن عدم التصديق بأسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية - إلى التصديق بها ، وما كنت أوثر : أن أشغل هذا الحيز من هذا الجزء بتفنيد هذه الأسباب لو لم يكن فيها تشويه لحقائق التاريخ وإثارة الظنون حول مصادره ، فلجرجي زيدان مكانته العلمية ، وله آثار قيمة في التاريخ العربي قبل الإسلام ، مازالت مرجعاً يرجع إليها الباحثون في التاريخ .

فإذا كنا نجد جرجي زيدان المؤرخ الواسع الإطلاع ، يحقق موضوعاً بمثل هذه السطحية لسبب من الأسباب - فما حال تحقيقات دون مستوى جرجي زيدان العلمي ؟! وما هي حقيقة

---

(١) راجع البحث المتقدم : التأليف في التاريخ وكراهية التدوين، تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٥٠ و ٥١ .

التحقيقات التي هي أقل قيمة من هذا الموضوع الذي تترتب على نتيجة التحقيق فيه مسائل لها قيمتها في التاريخ العربي الإسلامي ؟

لذلك تراني أكرر القول بأن التحقيق لا يكون علميًّا ـ مالم يكن بعيداً عن الخيال وأعمق من الظنون ، ومالم يكن متواضعاً لا يعتمد على الشهرة الأدبية ولا يغالي في الثقة بالنفس والاعتماد على منطقه فيفرضه فرضاً كما فرض جرجي زيدان آراءه وظنونه في هذا التحقيق فرضاً ـ فلابد للنفي أو الإثبات : أن يعتمد على نص يؤكد : الشك أو اليقين .

وما كان بعيداً على جرجي زيدان ـ لو أنه تعمق في البحث : الوصول إلى حقائق تاريخ مكتبة الإسكندرية ومن اعتدى عليها قبل الإسلام بالحرق والنهب ؟ وماذا وجد العرب المسلمون فيها بعد أن نزح عن الإسكندرية الروم حاملين كل ماهو ثمين يعتزون به ـ في غضون عشرة أشهر بحسب شروط التسليم ؟ . . إلى غير ذلك مما سنتكلم عنه في البحث الآتي ـ هل كانت مصر البيزنطية ـ مورداً لرواد الثقافة العربية ؟

* * *

# الفصل الثالث

## من كتاب « التاريخ العربي وجغرافيته »

١ ـ لقد كان تقويم هذه الأرض التي تصدرت تاريخ الشرق الأدنى من المسائل التي شغلت الباحثين في التاريخ العربي . ولقد كان اكتشاف حدودها ، ومعرفة حقيقتها ـ هل هي : شبه جزيرة ؟ أو جزيرة ؟ مهمة صعبة لرواد ما قبل الميلاد ـ مثلما كان اكتشاف القطبين : الشمالي والجنوبي ـ مهمة خطرة للرواد الأوروبيين في القرن العشرين الميلادي ، فلقد سار الرواد الذين تصدوا لاكتشاف شواطىء بلاد العرب وحدودها يتبع بعضهم بعضاً ، ينتقلون من شاطىء إلى آخر ، ومن واد إلى ثان يبحثون عن الموانىء الصالحة لرسو السفن ، ويبحثون عن المسالك الصالحة لسير القوافل التي كان عليها أن تشق طريقها من موانىء الجزيرة الشرقية إلى موانيها الجنوبية والغربية وإلى موانيها المترامية في أقصى الشمال الغربي .

ومن أوائل الذين سمعنا عن اهتمامهم بمعرفة شواطىء الجزيرة الشرقية والجنوبية ـ من قبل الميلاد : « دارا الفارسي » و « الإسكندر المقدوني »[١] . ومن أوائل الذين سمعنا عن اهتمامهم بمعرفة شواطئها الغربية : « البطالسة »[٢]، ولكن عوامل لم يكن في قدرة إمكانيات تلك العصور التغلب عليها حدّت جهد ملاحي تلك العهود ، فلم يستطيعوا الوصول إلى أبعد مما وصلت إليه المحاولات التي قام بها ربابين دارا ، والإسكندر ، والبطالسة ، فليس من الجحود أن نقول : إن تلك المحاولات ـ على ما قدمته من فوائد جغرافية ، لا سيما النتائج التي وصل إليها ربابين البطالسة في « البحر الأحمر » ـ لم تكن غير بداية بالنسبة إلى ما وصلت إليه معارف اليوم من معلومات ألقت الضوء على كل خليج ورأس كانا في ذلك الماضي سرّاً من أسرار الطبيعة !

لذلك لم تذكر هذه الأرض باسم : جزيرة العرب ، أو شبه جزيرة العرب في الجغرافية العربية إلا في عصور متأخرة ـ حيث اكتشف جميع شواطئها ووضحت معالم حدودها .

أما قبل ذلك فلقد كان القدامى من « الكلدانيين » و « اليونانيين » لا يقولون : جزيرة العرب أو شبه جزيرة العرب ، وإنما كانوا يقولون : « بلاد العرب » وبلاد « الارميين » إلى غير ذلك من الأسماء الآتي ذكرها ـ ولعلهم كانوا لا يعلمون أجزيرة بلاد العرب التي يتحدثون عنها أم شبه جزيرة ؟ والإرميون ـ في الكتاب المقدس : شعب ينتسب إلى « إرم بن سام » من مواطنه « بادية الشام »[٣] .

---

(١) كتاب : الإسكندر الأكبر ، لمؤلفه عزيز خانكي ص ٩ ، وانتصار الحضارة .
(٢) تاريخ جواد علي ٢ / ٣٧٥ .
(٣) المنجد في الأدب والعلوم ص ١٢ .

٢ ـ وعندما بدأ العرب يدونون تاريخهم على الصورة التي بين أيدينا أخذوا يطلقون على مهد العروبة : اسم جزيرة العرب . وإطلاق اسم جزيرة العرب على هذا الجزء من الشرق الأدنى لا يقره بعض الجغرافيين في الوقت الحاضر ، فاسم الجزيرة في الاصطلاح الجغرافي لا يطلق على غير الأرض التي يحيط بها الماء من جميع أطرافها ـ لذلك فإن الاسم الجغرافي الجدير ببلاد العرب في رأيهم هو : شبه جزيرة العرب ، لأن حدها الشمالي كما يبدو غير مائي ، فالبحر جد بعيد عنها في الشمال .

ولكن القدامى من علماء تقويم البلدان مثل : « هشام الكلبي » و « الهمداني » و « ياقوت » وغيرهم ممن أطلق : اسم الجزيرة على بلاد العرب ـ لم تفتهم الشروط التي لابد من توافرها إذا ما أريد إطلاق اسم جزيرة على أرض ما . لذلك نراهم عندما أطلقوا اسم جزيرة على بلاد العرب أخذوا يؤكدون أن المياه تحيط بها من جميع جهاتها : جنوباً ، وشمالاً ، وشرقاً ، وغرباً ، فهم لإثبات هذه الصفة جعلوا نهر « الفرات » حدّاً شمالياً وشرقياً . وجعلوا نهر « النيل » يتم حدها الشمالي الغربي ، وعلى ذلك اعتبروا الضفة الشرقية الشمالية لنهر النيل من الجزيرة العربية ، وهم بهذا لم يبعدوا عما قاله « الفراعنة » و « الآشوريون » وغيرهم من أمم الماضي الذين جعلوا « النيل » حدّا غربياً لبلاد العرب وجعلوا « الفرات » حدّاً شرقياً ، مما ستراه في بحث حدود الجزيرة العربية ، ولكن ما ستراه من الأقوال التي تحدث بها قدماء الجغرافيين العرب ، والشواهد التي قدمها الذين سبقوهم ، لم يقتنع بها المتمسكون بأن بلاد العرب شبه جزيرة ، ولم يقتنع بها الذين يقولون : بلاد العرب هي « مكة » و « المدينة » وأعمالها .

ونحن لا نبخس وجهة نظر الذين يقولون إن بلاد العرب شبه جزيرة . كما أننا لا نخطىء الذين يقولون : إن بلاد العرب جزيرة ، فلكل من الرأيين حيثيات تسوغه ، سوف نتحدث عنها في البحث الخاص بشكل بلاد العرب ـ هل شكلها جزيرة ؟ أو شبه جزيرة ؟ وإنما الذي يستوقف الباحث هو الفارق بين البلاد العربية وبين الجزيرة ، أو شبه الجزيرة العربية . فالبلاد العربية ـ بعد الفتح الإسلامي ـ ترامت أطرافها عبر « مصر » إلى شواطىء المحيط الأطلسي متجاوزة الحدود التي بلغها التاريخ العربي القديم فيما وراء البحر الأحمر . وترامت أطرافها عبر العراق متجاوزة الحدود التي بلغها التاريخ العربي القديم فيما حول « الفرات » ، فالتاريخ العربي في عهوده السحيقة قبل الإسلام ، وفي عهوده الوضاءة بعد الإسلام امتد بعيداً عن حدود الجزيرة العربية الطبيعية .

٣ ـ وحدود البلاد العربية قبل الإسلام وبعده تستدعي الباحث أن ينقب عن أصل هذا الاسم : « عرب » الذي عرفت به هذه الجزيرة ، أو شبه الجزيرة ، وعرف به سكانها ، ويبحث عن تاريخه ، متى ظهر هذا الاسم في وجود التاريخ العربي ؟

٤ ـ لقد أخذ الكثيرون يتساءلون عن هذا الاسم : عرب . مم اشتق إذا كان مشتقاً ؟ ومتى ارتجل إذا كان مرتجلاً ؟ لذلك فإن البحث في هذا الاسم : عرب ليس بجديد على

القارىء ، فلقد كان موضوع بحث الكثيرين في الماضي ، ولقد تجدد البحث فيه في الحاضر . فبعض الذين جددوا البحث في هذا الاسم ـ رجع إلى المؤلفات في الأنساب ومعاجم القبائل العربية ، فوجد أصحابها مقتنعين بأن كل اسم من أسماء شعوب الجزيرة هو اسم جدها الأعلى . فالقبائل « الإرمية » يرجع اسمها في اعتقادهم إلى « إرم بن سام » ، وقد تقدم ما نقله « فردينان توتل » في منجد الأدب والعلوم عن الكتاب المقدس في تفسيره الآراميين ، وأنهم شعب ينسب لإرم بن سام . والقبائل « العمليقية » ـ في رأيهم ـ سميت باسم « عمليق » حفيد « سام » أو ابنه ، و « الآشوريون » سموا باسم جدهم « آشور بن سام » ، إلى غير هذه الشعوب من القبائل التي عاصرتها والتي جاءت بعدها . و « سام » في اعتقاد هؤلاء : ابن « نوح » وإليه ينتسب العرب .

بيد أن الذين رجعوا إلى المؤلفات التي وضعت في الأنساب وإلى معاجم القبائل لم يجدوا نساباً واحداً ذكر ابناً لسام بن نوح اسمه : عرب ، بل وجدوا جماعة منهم يقولون : إن الشعوب العربية القديمة التي عرفت في التاريخ العربي بالعرب العاربة : « عاد » و « ثمود » و « العماليق » و « طسم » و « جديس » . . إلخ ، سموا عرباً لأنهم كانوا يتكلمون بهذا اللسان المضري بطلاقة . واستشهدت هذه الجماعة على صحة رأيها بأن « الإعراب » في اللغة حسن التعبير ، ووجدوا بعضاً آخر قد فطن لخروج أصحاب هذا القول على القاعدة التي بنيت عليها بحوث النسابين فاستدرك قائلاً : إن أول من انطلق لسانه بلغة العرب هو : « عمليق ـ عريب » ، وفي رواية أخرى هو : « يعرب بن قحطان » . وإنه من هنا أطلق هذا الاسم : العرب العاربة ـ على الذين تكلموا بهذه اللغة من سكان الجزيرة العربية القدامى ، فلما استعجمت لغتهم سموا : العرب المستعجمة[1] .

٥ ـ ووجدوا بجانب هذه الجماعة : فريقاً رجع إلى أسماء المدن والأمكنة ، فعثر على مكان اسمه : « عربة » ، فجزم بأن هذا الاسم « عرب » مشتق من « عربة » ، وأن العرب ـ في رأي أصحاب هذا القول ـ سموا باسم بلدهم « عربة » باحة أبي الفصاحة « إسماعيل بن إبراهيم » ، فإصرار هذا الفريق على أن العرب سموا باسم « عربة » دفع مجددي البحوث التاريخية للبحث عن « عربة » هذه التي سمي باسمها العرب . فوجدوا أن « عربة » اسم أطلق على مواضع منها موضع في أرض « فلسطين » ، ومنها موضع في « تهامة » ، وكل من الموضعين يمت لإسماعيل بن إبراهيم بصلة ، فمسقط رأس « إسماعيل » في عربة فلسطين . وفي « عربة تهامة » عند البيت الحرام نشأ « إسماعيل » يرفع مع أبيه قواعد من البيت ، ويتزعم القبائل التي جاورته والتي نسبها المؤرخون إليه وإلى حفدته : « عدنان » و « نزار » و « مضر » . ويستشهد المؤرخون بشعر نسبوه إلى « أبي طالب بن عبدالمطلب » منه :

---

(١) تاريخ ابن جرير الطبري ١ / ٢٠٧ طبع دار المعارف . ولسان العرب مادة ( عـرب ) .

وعـــربـــة دار لا يحـــل حـــرامهـــا      من النـــاس إلا اللوذعى الحـــلاحـــل

ويقول « هشام بن محمد بن السائب » : جزيرة العرب تدعى « عربة » ، ومن هنا سمي العربي عربياً ، كما قيل للهندي : هنديّ ، وللفارسي : فارسي"[١] .

٦ ـ فعلى هذا النحو تشعبت طرق البحث أمام المحققين ، فانصرف بعضهم إلى ما جاء في تحقيقات المستشرقين ، فمما جاء في تحقيقات المستشرقين : أن لفظة « عرب » أصلها السامي ـ معناه : « البادية » ـ وهي لا تعين قومية صاحبها . وأن هذا المعنى هو الذي أدته الكلمة عينها في اللغة العبرانية ، واستشهد بأن كلمة « الأعراب » في القرآن تعني : البدو[٢] .

وآراء المستشرقين ـ وإن كانت لها قيمتها لأنها في الغالب تعتمد على نصوص ذات شأن ـ لا يمكننا أن نتخذها حجة في تفسير القرآن . فتفسير القرآن يحتاج إلى الإحاطة بلغة العرب ولهجاتها ، وهذا مما لم يصل إليه المستشرقون الذين بحثوا في اسم العرب في القرآن .

إن العرب أنفسهم كثيراً ما عمت عليهم بعض ألفاظ القرآن فأخذوا يبحثون عن معناها في لغات القبائل ومصطلحاتها مثل : « التخوف » ، فالتخوف من لغة « هذيل » ، وفي بعض روايات المؤرخين أن هذلياً فسرها لـ « عمر بن الخطاب » .

فالقرآن الكريم ذكر كلمة « أعراب » في موضع ، وذكر كلمة « عرب » في موضع آخر ، ولقد أوضح « ابن منظور » الفرق بين العرب والأعراب ، فقال : ( والذي يجمع بين العرب والأعراب ، ربما تحامل على العرب بما يتأوله في الآية : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ ـ فكلمة « الأعراب » تعني البدو ـ سواء كانوا من العرب أو من مواليهم )[٣] .

ومن المتأخرين من بحث في اسم جزيرة العرب على ضوء النصوص التي عثر عليها في تراث الغابرين من الأمم غير العربية ، ومن هؤلاء « جرجي زيدان » ، فقد بحث في كلمة « عرب » وفيما كانت تعنيه في الماضي ـ فقال : إن لفظ « عرب » في التاريخ القديم يرادف لفظ « بدو » و « بادية » في التاريخ الحديث ، وهو معنى هذا اللفظ في اللغات السامية .

وقال : والبادية في اللغة العبرانية ـ يقابلها في اللغة العربية « العرابة » في « وادي موسى » .

والأعراب : سكان البادية خاصة . ولقد تقدم ـ الفرق بين الأعرابي والعربي في « لسان العرب » ـ ويقول جرجي استناداً إلى « هيرودوتس » : ( إن « الفراعنة » و « الآشوريين » و « الفينيقيين » كانوا يريدون بالعرب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرقي وادي النيل في البقعة الممتدة بين « الفرات » شرقاً ، و « النيل » غرباً ، وتدخل فيها

---

(١) مادة عرب ـ اللسان ومعجم البلدان لياقوت ٦/١٣٨ .
(٢) تاريخ العرب لحتى ١/٥٣ .
(٣) لسان العرب مادة عرب .

بادية العراق والشام وشبه جزيرة سيناء ، وما يتصل بها من شرقي الدلتا ، والبادية الشرقية بمصر بين النيل والبحر الأحمر ، وكان وادي النيل هو الفاصل الطبيعي بين « ليبيا » في الغرب وبلاد العرب في الشرق » .

أما جنوبي جزيرة العرب ـ بين الخليج الإسلامي[1] والبحر الأحمر ـ فبينما نحن نرى قدامى اليونانيين يعدونه من « إثيوبيا » ـ الحبشة ـ فيجعلون الحبشة ، واليمن ، وعمان من جنوبي الجزيرة العربية إقليماً واحداً ، أسموه : « إثيوبيا ـ آسية » ـ نجد في الوقت نفسه أن سكان جنوبي الجزيرة العربية أممٌ وقبائل كانت تعرف بأسماء خاصة بها أطلقت على شعوبها ودولها وأرضها مثل : « المعينيين » و « السبئيّين » و « الحميريين » . ونجد اليونانيين في مكان آخر يطلقون على سكان الجزيرة العربية جمعاء لفظ « سراسين » وهو اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة ـ يظن بعضهم أنها منحوتة من « الشرقيين » لأن تلك القبيلة كانت تقيم في شرقي « جبل السراة » ثم لم يلبث اليونانيون أن أطلقوا اسم العرب على بلاد العرب ، وقسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام « الصخرية » و « الصحراوية » و « السعيدة » .

وكان العرب عند « السريانيين » يعرفون باسم « طاية » نسبة إلى « طيىء » القبيلة المعروفة . وكان سكان المدن السامية يسمون سكان بادية الشام الممتدة من العراق إلى سورية ـ « آراميين » أي أهل الجبال . وكان أهل « مابين النهرين » يسمونهم « عمورو » أي أهل الغرب ، لأن بلادهم واقعة غربي « الفرات » . وهذا هو اسمهم القديم في « بابل » . وقد يراد بالعمورو أهل غربي الفرات من بدو وحضر إلى « البحر المتوسط » . ثم سموهم « عريبي » أي عرباً ، كما سمى اليونانيون على عهد « البطالسة » الجزيرة كلها بلاد العرب ، واسم عرب معناه في اللغة السامية الأصيلة « الغربيون » وأيضاً يطلق على البدو . فالعرب هم الغربيون ، وهم سكان البادية في اعتقاد السومريين ، وقدامى اليونانيين .

وكان المصريون القدامى يطلقون هذا الاسم « شاسو » أو « الهكسوس » على البادية العربية ، ففي لغتهم « هيك » تعني الملك ، وشاسو تعني البادية ، وأخيراً عرفوا باسم العرب ـ عماليق مصر . على أن البلاد العربية لم تكن جميعها بادية في عهد قدماء العرب الذين عرفوا باسم « العرب العاربة » . فلقد كانت بلاداً حافلة بالمزارع والقصور قبل عهد الجفاف ، فمن لم يصدق بما جاء في القرآن الكريم ، فلينظر إلى صحاري شرقي الجزيرة كيف تبدل صمتها وظلامها إلى ضجيج ونور ، ليعلم أن أرض قدماء العرب تبدل حالها من زراعة وعمران إلى خلاء قفر ثم إلى حركة ونور .

وأول من قال إن : « الشاسو » عرب هو المؤرخ الإسرائيلي « يوسف » نقلاً عن المؤرخ الإسكندري « مانشون » المتوفى في أواسط القرن الثالث قبل الميلاد .

---

(١) سبق في حلقة « التاريخ العربي ومصادره » أن بينت ـ أن ذلك الخليج الذي أطلق عليه الفرس : اسم الخليج الفارسي وأطلق عليه العرب : اسم الخليج العربي ، هو في الواقع خليج إسلامي . ولقد لفت النظر إلى ذلك في كل مناسبة طرأت .

فالذي ظهر من كلام « جرجي زيدان » الذي وجدناه منثوراً في كتابه « العرب قبل الإسلام »[1] أن اسم « العرب » يعني البادية ، ويعني الغرب في اللغة السامية ، وأن اسم « العرب » عرف من عهود ما قبل الميلاد ، ولكنه لم يكن علماً بمثل هذا الشيوع ، فلقد شاركت هذا الاسم « العرب » فيما يعنيه أسماء أخرى أطلقتها الأمم المجاورة لهم على أرض الجزيرة وسكانها ، مثل « سراسين » و « طاية » و « إرميين » و « عماليق » .

وجاء بعد جرجي زيدان « جواد علي » و « فيليب حتى » يبحثان من جديد في لفظ « عربي » فعلى كلمة « عرب » كما يقول « جواد علي » يتوقف البحث في جزيرتهم . والنتائج التي وصل إليها الاثنان تعتبر شرحاً لما جاء - مجملاً - في كلام « جرجي زيدان » ، فلقد جاء بحث « جواد علي » على النحو الآتي :

أولاً : إن أقدم نص ورد فيه اسم « عرب » هو نص آشوري يعود إلى أيام الملك « سلمنصر - الثاني ملك آشور سنة ٨٥٤ ق . م . . وإن نص سلمنصر يقصد مشيخة عربية كانت على صلات سيئة بالآشوريين . ونقل عن « فيليب حتى » : ( أن « تغلث بلاصر » الثالث ذكر العرب : « أربى » سنة ٧٤٥ - سنة ٧٢٧ ق . م )[2] .

ثانياً : وردت في الكتابات البابلية جملة « ماتوأريبي » . وكلمة « ماتو » في الآشورية والبابلية تعني الأرض ، فماتوأريبي معناها أرض العرب .

ثالثاً : إن اسم العرب الذي عرفته فارس من عهد « دارا » الكبير سنة ٥٢١ - ٤٨٥ ق . م[3] ، ففي النص الفارسي المكتوب باللغة «الأخمينية » وردت كلمة « أربابة » .

رابعاً : وردت كلمة « عربي » بعد ذكر « بابل » و « آشور » . وقبل ذكر مصر - وهذا مما يدل على أن مفهوم « العربية » في ذلك الوقت كان يشمل : منطقة واسعة تمتد من إقليم « آشور » و « بابل » حتى حدود « مصر » .

خامساً : وتدل لفظة « عربي » في العبرانية على البداوة ، وهي لا تعين قومية صاحبها ، وهذا هو المعنى الأصلي لهذه الكلمة في جميع فروع اللغات السامية ، ولم تخصص كلمة عربي عند العبرانيين إلا في العهود المتأخرة .

سادساً : أول من ذكر العرب في آداب اليونانيين هو « إسكيلوس » سنة ٥٢٥ - ٤٥٦ ق . م. عندما أشار إلى ضابط عربي اشتهر في جيش « أحشويرش » . وفي تحقيق « جواد علي » أن « إسكيلوس » لم يكن يعرف شيئاً عن بلاد العرب ، فتصورها على مقربة من « القفقاس » . ثم تلاه « هيرودوتس » سنة ٤٨٤ - ٤٢٥ ق . م. وقد قصد بالعرب شبه الجزيرة كلها . وقد أدخل فيها جزءاً من الأرض المصرية التي هي في شرقي وادي النيل .

---

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٣٩ وما بعدها و ص ٦٩ وما بعدها .
(٢) تاريخ العرب لحتى ٤٥/١ .
(٣) ذكر جواد علي : « دارا » باسم - « داريوس » وداريوس هو : دارا الكبير .

وعلق « جواد علي » على « إسكيلوس » بقوله : إنه يقصد الأرض التي تتصل بامبراطورية البارثيين(١) .

سابعاً : ثم ذكر « جواد علي » بعض الأسماء المرادفة لاسم عربي في الزمن القديم ـ مثل « سازاسين » وقال : إن المعْنيَّ بهذا الاسم هم قبائل كانت تقيم في بادية الشام وفي سيناء . ومثل اسم « طاية ـ طيىء » الذي أطلقه الإيرانيون على قبيلة « طيىء » التي تسكن على مقربة منهم . ( وأول إشارة إلى هذه القبيلة تعود إلى القرن الثالث للميلاد ) ، فلا يبعد أن تكون طيىء التي ورد ذكرها في التاريخ القديم : شعباً منازله تمتد إلى الحدود الإيرانية ، فهضبة نجد تمتد من « بلاد طيىء » إلى العراق ، وأن تكون نجد عند قدماء الإيرانيين ـ هي طيىء .

ثامناً : لم ترد كلمة « عرب » في النصوص الجنوبية بمعنى العرب ، أي القومية الخاصة ، وإنما وردت في النصوص الجنوبية كلمة « أعرب » أو « أعراب » ، وورد « أعراب ـ ملك حضرموت » و « أعراب ـ ملك سبأ » ، أما أهل المدن فكانوا يعرفون بمدنهم وقبائلهم .

تاسعاً : أقدم نص شمالي ذكر العرب هو نص « امرىء القيس بن عمرو » سنة ٣٢٨م وهو الكتابة التي وجدت على قبر امرىء القيس في النمارة .

عاشراً : لا يجزم أحد بتعيين الوقت الذي استعمل فيه العرب أنفسهم كلمة العرب علماً عليهم بدوهم وحضرهم . فالنص الوحيد الذي لا يمكن الشك أن يصل إليه هو : القرآن الكريم ، ولذا رأى « د. هـ. ملر » : ( أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أول من خصص الكلمة وجعلها علماً لقومية سكان الجزيرة )(٢) . و « جواد علي » للوصول إلى هذه النتائج استعان بالمستشرقين ، وبالدكتور « فيليب حتى »(٣) .

بيد أن « فيليب حتى » انتقل إلى آفاق غير التي حصر « جواد علي » بحثه فيها . فحتى أشرك في بحثه اسم « سامي » مع اسم عربي ، و « حتى » ذهب إلى العصور الغارقة في القدم ، إلى العصور التي وصل فيها الساميون إلى « النيل » وإلى سورية وإلى العراق . وفي رأي جواد علي أن اسم « سامي » مرادف لاسم عربي .

٨ ـ ونحن إذا أردنا أن نخرج بنتيجة تجلو لنا حقيقة هذين الاسمين : عربي وسامي ، وتاريخها وهل هما اسمان مترادفان ؟ أو لا ؟ نجد البحث عن حقيقة الاسمين يلزمنا بتلخيص ما قيل عنهما وعن تاريخهما ، ونحن إذا رجعنا إلى ما قيل عنهما نجد اسم « سام » ـ في مؤلفات المؤرخين العرب القدامى ـ أطلق على أحب أبناء « نوح » إلى نوح ، ونجدهم ينسبون العرب إلى « سام بن نوح » . ونجد في مؤلفات المستشرقين السامية اصطلاحاً حديث العهد

---

(١) البارثيون : شعب عاش بين بحر « قزوين » و « إيران ـ خراسان » لم تقو الدول الكبرى في الماضي على إخضاعه . المنجد ص ٥٨ من قسم العلوم ، مؤلفه ( فردينان توتل ) في كلام « جرجي زيدان » الذي مر : أن « السارسين » كانوا يعيشون في أعالي الجزيرة وفي شرقي « جبل السراة » . فعليه أن اسم ساراسين قد كان مرادفاً لاسم العرب .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١ من ص ١٦٩ إلى ص ١٨٤ الطبعة الأولى .

(٣) تاريخ العرب لحتى من ١ إلى ص ٣٩ وما بعدها ، طبع دار الكشاف .

جدّاً بالنسبة لتاريخ الأمم التي يعنيها هذا الاسم : سامي ، أطلقه « شلاستر » سنة ١٧٨١م[١]، ونجد السامية في رأي أكثرهم لا تشير إلى جنس ، بل إلى جماعة من الناس يتكلمون اللغات السامية ، كما يقول مؤلف « موسوعة تاريخ العالم »[٢] . وتقول « دائرة المعارف الإسلامية » : ( وكثيراً ما يضاف إلى الساميين : الفرس والرومان واليهود )[٣]، وقد تعني « دائرة المعارف الإسلامية » بإضافة هذه الأمم إلى الساميين اشتراك الفرس وبعض الروم ، واليهود الذين هم من غير أبناء يعقوب في أصل اللغات السامية .

٩ ـ ونجد اسم عربي الذي سبق الكلام عنه يدل على قوم ترجع أنسابهم إلى أرومة واحدة ، اختلطت بهم عناصر أصبحت عربية بلغتها وتقاليدها ، ولكنه لم يكن في يوم من الأيام علماً على جنسية سياسية . فكما كانت الدول العربية تنسب إلى الأرض التي قامت عليها الدولة أو إلى الجد الذي ينسب إليه مؤسسها مثل الآشوريين والحمورابيين في الماضي القديم ، ومثل اللخميين والغساسنة في جاهلية ما قبل الإسلام ، ومثل الأمويين والعباسيين فيما بعد الإسلام ، كذلك أصبحت الجنسية في الزمن الحاضر إما أن تكون يمنية أو سورية أو سعودية ، ولقد حاولت « جمهورية مصر العربية » أن تختصر اسمها وجنسية شعبها على هذا الاسم « عرب » فأعلنت أن اسمها هو الجمهورية العربية المتحدة ، وأشارت إلى جنسية كل فرد في جمهورها باسم « عربي » ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فسرعان ما تبدل اسمها فأصبح رسميّاً « جمهورية مصر العربية » .

١٠ ـ ونحن إذا ما رجعنا إلى تاريخ الاسمين : عربي وسامي لنرى هل ذكر نسابة أو مؤرخ اسم عربي على أنه علم على أبناء « سام » الذين يقال عنهم : إنهم في فجر تاريخهم سكنوا ما بين « الكوفة » و « الشام » فإنا لا نجدُ ـ فيما وصل إليه البحث ـ نساباً أو مؤرخاً من العرب ذكر السامية والساميين . وكذلك لا نجدُ فيما وصل إليه البحث نصّاً غير عربي يشير إلى أن مؤرخاً من مؤرخي الكلدان أو اليونان ذكر اسم « الساميين » فالسامية اصطلاح حديث يرجع تاريخه إلى سنة ١٧٨١م ، كما تقدم ، فليس أمام البحث غير ظنون تقول : قد يكون العرب نسبوا إلى « سام بن نوح » ففقدان مثل هذا النص يثبت أن اسم « عربي » أقدم من اسم « سامي » فلقد ذكر « اسم عربي » في نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد بقرون ، أما ما قيل عن الساميين وإنهم أبناء سام فهو مثل ما قيل عن حام وإنه أبو السود ـ الحاميين .

---

(١) تاريخ اللغات السامية لمؤلفه ولفنسون ص ٢ .
(٢) موسوعة تاريخ العالم ٥٣/١ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية حرف (س) .

وإذا نحن رجعنا إلى معاجم اللغة نجد أن اسم سامي له معان تسوغ تسمية العرب به . فالسامي المرتفع ، والعربي مرتفع بأخلاقه ؛ فهو أبيّ النفس ، فقيراً كان أم غنياً . والسامي : الذي يلبس جوربي شعر ويعدو خلف الصيد ، والعربي هو الذي ينتعل حذاء من جلد شعر ويعدو خلف ماشيته وصيده .

والسماوة هي بادية العراق ، أما بادية الشام فتسمى « الحماد »[1] ، والسماوة « ماءة » بالبادية كانت « أم النعمان » سميت بها ، فسمتها العرب « ماء السماء » وأسمت ابنها « ابن ماء السماء » . وفي حديث هاجر « تلك أمكم يابني ماء السماء » . وفي تفسير هذا الحديث ـ قيل : إنه يقصد العرب لأنهم يعيشون بماء المطر . ولكن مع هذا لا يمكننا أن نقول : إن اسم سامي بمعناه اللغوي أطلق على العرب . أو نفترض أن اسم السامي منحوت من السماوة . فالسامية جاءت بها اعتبارات غير هذه .

فالنتيجة التي سعى وراءها البحث وصلت به إلى تاريخ هذين الاسمين « عربي » و « سامي » . وبالرجوع إلى تاريخها ظهر لنا : أن كلمة « عربي » نعتاً لأمة متقدم تاريخها بكثير على تاريخ كلمة « سامي » بذلك المدلول ، وأن اسم « سامي » أعم من اسم عربي ، فالحبش ، والإسرائيليون ساميون ، ولكنهم ليسوا بعرب . فاسم عربي يعني أمة من الأمم السامية . فعليه لابد للبحث هنا أن يعلق على قول « ابن منظور » : ( إن كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ، ونطق بلسان أهلها ، فهم عرب[2] يمنهم ومعدهم ) . فاسم عربي ـ في كلام ابن منظور ـ شمل كل من سكن الجزيرة العربية ، وليس كل من سكن الجزيرة العربية جنساً واحداً ، فأجناس مختلفة الدماء عاشت في الجزيرة وتكلمت بلسان أهلها فأصبحت عربية بطول الإقامة وبالتوالد ، ولكن التاريخ لم يعترف بعروبتها مثل الفرس والروم وغيرهم في التاريخ العربي . فالكلمتان : كلمة سامي وكلمة عربي في مدلولها وفي حقيقتها متشابهتان . فكل من الاسمين أصبح علماً لأمم ليست جميعها من أرومة واحدة . فإن كانت السامية ـ في الأصل ـ اصطلاحاً حديثاً له معناه الذي تقدم الكلام عنه . فإن العرب الخلص هم بقايا العرب العاربة ، والعرب العاربة هم الذين ذكرناهم في بحوث هذا المؤلف باسم قدماء العرب .

ولقد تقدم أن اسم عرب ـ وإن كان قد ظهر في نصوص يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد ـ لم يكن علماً لقومية سكان الجزيرة إلا بعد نزول القرآن . أما قبل ذلك فلقد كانت شعوب الجزيرة تحمل مع اسم عربي أسماء أخرى كانت تعرف بها ، ولقد جاء في تاريخ الطبري : ( وكان يقال لعاد في دهرهم « عاد إرم » . فلما هلكت عاد قيل لثمود : « ثمود إرم » . فلما هلكت ثمود قيل لسائر « بني إرم » : « إرمان » فهم النبط )[3] .

---

( ١ ) تاريخ العرب المطول ١ /١٧ لحتى .

( ٢ ) لسان العرب مادة عرب .

(٣) تاريخ الطبرى ١ /١٤٣ .

## مهد الساميين

١ ـ تتفق الرواية المنسوبة لـ « ابن عباس » والتي ذكرها « الطبري » في كتابه « تاريخ الأمم والملوك » مع رواية « وهب بن منبه » التي ذكرها « ابن قتيبة » في كتابه « عيون الأخبار » على أن « سوق ثمانين » بالعراق هو أول بلد سكنه ولد « نوح » ، فلما ضاقت بهم تحولوا منها إلى « بابل »[١] . وجاء في تاريخ « اليعقوبي » : ( أن « ماش بن إرم بن سام » - صار إلى أرض « بابل » فولد « نمرود الجبار » و « نبيط » وهو أبو النبط . وأن أبناء « نوح » تقسموا الأرض ، فصار لولد سام « الحجاز » و « اليمن » وبقية الأرض )[٢] .

وجاء في تاريخ الطبري : ونزل بنو سام « المجدل » سرة الأرض وهي ما بين « ساتيدما » إلى البحر وما بين « اليمن » إلى « الشام »[٣] .

وما جاء في رواية « ابن عباس » ورواية « ابن منبه » عن « سوق ثمانين » و « بابل » يتفق مع ما يقوله أصحاب التوراة عن مهد الإنسان وأنه في « العراق » ، ما بين النهرين ، فاشتق من الساميين : « الآشوريون » و « البابليون » في « العراق » ، و « الآراميون » في « الشام » و « الفينيقيون » في « لبنان » وعلى شواطىء « سورية » و « العبرانيون » في « فلسطين » والعرب في جزيرة العرب[٤] . ولقد تقدم الكلام على السامية والساميين .

٢ ـ وقد اقتنع بعض المستشرقين ، منهم : « فون كريمر » و « جمويدي » و « هومل » ، بأقوال العرب والإسرائيليين ، فقال هذا البعض : إن إقليم « بابل » هو وطن الساميين الأول . وذهب آخرون إلى أن قلب الجزيرة هو مهد الساميين ، فمن هؤلاء : « سبرنجر » و « إيلينو جاردنر » و « سميث » وكثير غيرهم من المستشرقين الذين بحثوا في عناصر الشرق الأوسط . فقال فريق من هؤلاء : إن أواسط بلاد العرب ولا سيما منطقة « نجد » هي المكان الذي يجب أن يكون وطن الساميين . وقال آخرون : إن « العروض » ولا سيما « البحرين » ـ أي منطقة « الأحساء » ـ هو مهد الساميين[٥] . وقال آخرون : إن جنوبي الجزيرة العربية هو مهد الساميين .

فهذه المناطق التي افترضها المستشرقون مهداً للساميين هي المناطق التي تحدث عنها « صاعد » في طبقاته وغيره من المؤرخين العرب .

---

(١) تاريخ الطبري ١ / ١٤٠ طبع القومية ، وعيون الأخبار ٢ / ٢١٤ .

(٢) اليعقوبي ١ /٢٢ ، ٢٣ .

(٣) تاريخ الطبري ١ / ١٤٤ ـ والمجدل : اسم بلد في «الخابور» والخابور : اسم نهر في «رأس عين» و «الفرات» نسبت إليه عدة مدن . و «ساتيدما» : اسم جبل وردت فيه أقوال في «معجم ياقوت» أقربها إلى الموضع الذي نبحث عنه هو قرب «الموصل» . معجم ياقوت . باب (س) و٣/٣٨٣ و٧/٣٨٧ و٥/٦ ، وراجع باب الخاء والجيم .

(٤) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٤١ ، والدولة العربية الكبرى لمحمود كامل المحامي ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٥) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٤٠ وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١ /١٤٨ وما بعدها .

وفي رأي بعض المستشرقين أن الحبشة هي مهد الساميين . وإخال أن الذين يرون الحبشة مهداً للساميين اشتبه عليهم الأمر ، لأن الحبشة عرفت عند اليونانيين بإثيوبيا ، ولأن « إثيوبيا » في مؤلفات بعض اليونانيين منطقة تمتد من منابع « النيل » في أفريقية إلى « عُمان » في جزيرة العرب . ولأن أقواماً ساميين هاجروا من اليمن إلى الحبشة من أقدم عصور الجزيرة عرباً ، فتأقلموا هناك في أفريقية ، ولأن أقواماً من الحاميين هاجروا إلى جنوبي الجزيرة من أقدم عصورهم حبشاً فتأقلموا هنا في جزيرة العرب . فأقام أولئك في الحبشة وتركوا آثاراً عربية ، كما أقام هؤلاء في اليمن وتركوا آثاراً حبشية ، حتى خيل لبعض الذين اكتشفوا آثاراً عربية في الحبشة أن الحبشة هي مهد الساميين ، وخيل لبعض الذين اكتشفوا آثاراً حبشية في اليمن أن « الحاميين » سبقوا الساميين إلى جنوبي الجزيرة كما جاء في هامش كتاب « تاريخ العرب المطول »[1]: ( أن « توماس » يذكر ثلاث قبائل قد تكون من أصل « حام » في قلب الجزيرة الجنوبية . وأن « ارتجانس » يرتئي أن نواحي الجزيرة الجنوبية ربما كان يسكنها في الألف الثالث والثاني ق.م. شعب حامي ثم قدم الساميون ) .

٣ ـ فمن بواعث الشك عند بعض الباحثين في مهد الساميين : هجرات شعوب الجزيرة وتنقلهم بين العراق وسورية ومصر والحبشة . فهجرات الشعوب العربية فرقت ظنون الباحثين في مهد الساميين ، فانتقلت مع المهاجرين هنا وهناك . ومن بواعث الشك أيضاً اختلاف أسماء الأمكنة التي وردت في المصادر ، واختلاف أسماء القبائل بالنسبة لما في المؤلفات العربية إذا ما قوبلت بما في النصوص الأثرية . فهناك أسماء في « التوراة » ، وهناك أسماء في مؤلفات اليونانيين ، وهناك أسماء ظهرت على الآثار ، وهناك أسماء وردت في الشعر الجاهلي ، وهناك أسماء وردت في تحقيقات المستشرقين بعيد نطقها عن نطق الأسماء التي وردت في المؤلفات العربية ، فكل هذا جعل الباحث الذي يكتب اليوم عن مكان أو قبيلة دفنها الزمن تحت سنيه يلف ويدور مع العديد من التخمينات والظنون ، فكيف بمن يبحث عن مهد الساميين ؟!

ومما زاد في بلبلة الباحثين اختفاء معالم الكثير من الأمكنة التي ذكرت في النصوص الأثرية وفي تراث الغابرين ، واختفاء أسماء الشعوب القديمة حيث حلت موضعها أسماء جديدة غطت عليها ، أضف إلى ذلك تقادم العهود الذي أرغم البعض على أن يفضل التريث لعل التنقيب عن الآثار يظهر نصوصاً أكثر إيضاحاً يمكن الاعتماد عليها في المسائل المشكوك فيها . فلو لم يكشف التنقيب عن آثار « الآشوريين » و « الحمورابيين » لما عرفنا عنهم أكثر مما نعرف عن « طسم » و « جديس » .

(١) تاريخ العرب لحتى ص ٩ . والهامش على تاريخ العرب لجرجي زيدان . بقلم حسين مؤنس ص ١٢٥ .

٤ ـ على أنه مهما تكاثفت الشكوك ، ومهما اختلطت المساكن ، فإن تحقيقات الباحثين في مهد الساميين تكاد تجمع على أن جزيرة العرب هي مسقط رأس الساميين ومهد أم اللغات السامية ، وعلى أن الجزيرة عرفت باسم العربية قبل أن يولد اصطلاح السامية بمئات السنين ، وعلى أن العرب العاربة هم قدماء العرب ، وهم أجداد الذين عمروا أطراف الجزيرة العربية : العراق وسورية الكبرى ومصر العمليقية ، وعلى أن حفدة قدماء العرب مع من خالطهم فاستعرب بالإقامة والتوالد واللغة والتقاليد ـ عرفوا جميعاً بالعرب المستعربة . أما الجاليات مثل اليهود من غير العرب والحبش والفرس والروم فهذه مثلها مثل الجاليات التي تعيش في أقاليم الجزيرة بين ظهراني العرب في العصر الراهن .

* * *

# الفصل الرابع

## من كتاب « الاستثمار المصرفي وشركات المساهمة في التشريع الاسلامي »

## التشريع : نشأته وتاريخه :

أ ـ لم يعرف في تاريخ ما قبل الإسلام ـ تشريع نظم المجتمع في نطاق واجبات وحقوق أقدم من قانون ( حمورابي ) الملك السامي البابلي الذي يرجع تاريخ دولته إلى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد[1]، فقانون حمورابي هو أقدم قانون وصل إلينا ، فأبرز صاحبه تحت الشمس ، فحموراني لم يكن المؤسس لتلك الدولة العربية التي عرفت باسمه ، ولكنه كان عبقرياً ملهماً في قانونه ، فاشتهر بقانونه واشتهرت الدولة باسم صاحب ذلك القانون ، ووضعه المؤرخون في القمة مع نوادر الأفذاذ ، وغالى بعضهم فظن : أن التوراة مأخوذة من قانون حمورابي[2] فإذا صح ما اتفقت عليه أكثرية المؤرخين وغالبية الأثريين[3] الذين أكدوا لنا : أن دولة حمورابي عربية[4] ـ يكون العرب القدامى هم أول من وضع تشريعاً بعيداً عن التقاليد السفاكة التي سيطرت في الزمن البعيد ، وتكون أرض ( الحيرة ) الجاهلية و ( بغداد ) الإسلامية ـ هي : الأرض التي أقام عليها الحمورابيون عاصمتهم ( بابل ) العربية ، وهي الأرض التي أشرقت منها حضارة الشرق العربي فيما قبل الميلاد بآلاف السنين .

ولأن حمورابي لم يكن نبياً كما يتخيل بعض المستشرقين ، فإن قانونه ليس سماوياً ، وكل تشريع غير منزل يزول مع دولته ، وإن قانون حمورابي لم يسلم من هنات أخلاقية لا يرضى بها ضمير الأبي ، فكل قانون من صنع الإنسان لا يخلو من الشوائب . أما قوانين الآشوريين المعاصرين للبابليين فلم تكن غير أعراف تشف عن طباع الأمة المحاربة .

ب ـ والأمة التي اتجهت إلى العلم والتنظيم بعد الكلدانيين ـ هي : الأمة اليونانية ، ولكن اليونانيين لم يعنوا بالنظم الاجتماعية عنايتهم بالفلسفة لذلك وضع المؤرخون : الرومانيين

(١) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٥٦ .
(٢) الوحي المحمدي للسيد رشيد رضا ص ٥١ .
(٣) العرب في أحقاب التاريخ الحلقة الأولى التي صدرت بعنوان : التاريخ العربي وبدايته .
(٤) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص ٦٤ .

في المرتبة الثانية بعد الحمورابيين ؛ فهم المصلون[1] بعد البابليين بالنسبة لقانون حمورابي ، وأول من نظم المجتمع في نطاق قانون رسمي من الرومانيين ـ هو : ( جستنيان ) كما يسميه جرجي زيدان أو ( يوستيانوس ) كما يسميه ـ أسد رستم ـ وباسم جستنيان سمى القانون الروماني الذي يرجع تاريخه إلى سنة ٥٣٣م[2].

وقانون جستنيان مزيج من عادات واعتبارات وعقائد توارثتها الأجيال الرومانية بضعة عشر قرناً فاختلطت بها تقاليد وأعراف الشعب اللاتيني والأمم الصابنية الإيطالية وغيرها من الأمم التي دانت للروم ، وقانون جستنيان لم تصل شهرته إلى ما وصلت إليه شهرة قانون حمورابي ، ولم يحظ بالبقاء أكثر مما حظي به تشريع الحمورابيين ، فكما انطوى الأول بانطواء دولة البابليين انطوى الثاني بانطواء دولة الرومانيين .

جـ ـ وليس عجباً : أن لا يعرف الناس حقيقة شريعة موسى الإدارية . فاليهود مزجوا كتب أنبياء بني إسرائيل بتفاسيرهم وغموا الكثير من أحكام التوراة خوفاً من أن يلزمهم بها خصومهم فتحول بينهم وبين حقدهم وما يبيتون . فهم بقدر ما أخفوا شريعة موسى الإدارية وأحكامها ـ بالغوا في الناحية التاريخية ، واتخذوا من رواية التاريخ عن التوراة : مطية لإعلامهم . ولقد قال ( غوستاف لوبون ) : وما كانت الكتب العبرية المقدسة وحدها هي التي حاكت نسيج هذه السير ، فإن التواتر والأساطير وغيرها أيضاً نقلتها إلينا[3] . فكل ما في مؤلفات المؤرخين العرب من مبالغة وخرافة ـ مصدره اليهود الذين وثق بهم قدامى المؤرخين الإسلاميين . ويقول ( المطران الدبس ) عن الأنساب : [ فمن أي أصل تفرع نسب الشعوب الذين لم يذكر ( موسى ) : أنسابهم ؟ فهذا مبحث آخر لا يعتاص علينا الاهتداء إلى وجهه ؟ ][4] . فأحبار اليهود خلطوا التوراة بخيالهم وادعاءاتهم ـ فهذا ( كعب الأحبار ) في قصة مدينة ( إرم ذات العماد ) وإسناد ما قاله عنها إلى التوراة[5] ـ إذا صحت الرواية التي تناقلها القصاصون العرب عنه ـ نسب خياله ومعلوماته إلى التوراة .

د ـ أما المسيحية ، فكما استغلها البيزنطيون قبل الإسلام استغلتها الكنيسة في عصور أوروبا ( الميكافلليه ) بدوافع يهودية ، تلك العصور التي أثارت زوابع الخلاف في تطبيق القوانين الوضعية على ماكانوا يسمونه : القانون الطبيعي[6] .

---

(١) المصلي الذي يأتي الثاني في السبق .
(٢) التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٣/٧٨ وفي كتاب الروم وصلاتهم بالعرب لأسد رستم : تفصيل عن الذين نظموا قانون يوستيانوس ١/٧٨ وما بعدها .
(٣) بابل وآشور ص ٩١ .
(٤) تاريخ سورية للمطران الدبس ١/٩٩ .
(٥) قصص الأنبياء للنيسابوري ص ١٤٢ والعرب في أحقاب التاريخ الحلقة الأولى : التاريخ العربي وبدايته ١/٣٠٠ .
(٦) كتاب المذاهب السياسية ص ٧ .

ونحن إذا رجعنا إلى تاريخ المسيحية ـ نجد اليهود قد كفروا بالمسيح والمسيحية من البداية وحاربوها واضطهدوا المسيحيين في كل مكان مني بنفوذ اليهود . فمما قاله المستشرقون : [ إن يهود اليمن تمكنوا بما كان لهم من مال وخبرة في جمعه ، وفي أعمال الصيرفة والاحتكار ـ من تولي الوظائف المالية في حكومة حمير ، فسيطروا بذلك على المواضع الحساسة في جسم الدولة ][1] ـ كما هو حالهم اليوم في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . فلقد تمخض نفوذهم في اليمن عن حادثة الأخدود ﴿قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود﴾[2] ـ كما تمخض نفوذهم في أوروبا وأمريكا عن تشريد الفلسطينيين واحتلال أرضهم . ونحن هنا ننقل عن ( جواد علي ) : حديث ( بروكوبيوس ) المؤرخ المتحمس لنصرانيته [ إن نصارى حمير كانوا مضطهدين في بلادهم معذبين يعذبهم اليهود ][3]، والله يعلم ماذا يكن اليهود الذين سيطروا على المواضع الحساسة في الدول الغربية ـ للمسيحيين في أوروبا وفي أمريكا ؟؟ وماذا يبيتون ؟؟

فاليهود هم الذين حاولوا قتل المسيح ، واليهود هم الذين أشعلوا النار في الأخدود وقذفوا مسيحيي اليمن في لهيبها ، واليهود هم الذين شوهوا المسيحية بأطماعهم وأغروا رجال الكنيسة بالاستهتار والاستغلال ، وعندما برزت الرأسمالية الأوروبية تقمصها اليهود وساروا بها في طرق ملتوية إلى المكاسب غير المشروعة . واليهود هم الذين صنعوا الماركسية وصدروها لروسيا لتكون خصماً للرأسمالية الغربية ـ فيتاح لهم بذلك اللعب على الحبال ، وها هم اليوم يدفعون المسيحية والشيوعية معاً ـ وراء مصالحهم ، فلقد تسابق الأمريكان والروس للاعتراف بإسرائيل في مجلس الأمن !!

فليت المكر اليهودي ينقلب نبلاً ؛ وليت كذبهم ينقلب صدقاً ؛ ولؤمهم ينقلب طيبة ؛ وحقدهم ينقلب تسامحاً ؛ وجشعهم ينقلب قناعة . فإن من الأفضل لهم وللعالم أن يكونوا أمة صالحة ـ كما ظنهم المسلمون من قبل ، ومواطنين مخلصين كما يتوهم المسيحيون اليوم ، ولكن المعوج لا يستقيم !!

هـ ـ والقانون عند العرب الجاهليين ـ هو : العرف القبلي ؛ ومن أعراف العرب ما يرجع أصله إلى ملة إبراهيم عليه السلام . فملة إبراهيم في جزيرة العرب حرفتها الوثنية التي نقلها ( عمرو بن لحي ) من ( مؤاب ) إلى مكة ، فتسلطت عليه العقلية العربية .

وقضاة العرب الجاهليين ـ هم : الكهان والعرافون وشيوخ القبائل . ويقول جواد علي عن الفقه الجاهلي : [ إن الإسلام قد أقر : عرفاً وعادات جاهلية ، وإن أسماء البيوع والعقود من الأسماء الجاهلية التي استخدمها المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين ، وإن

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٣/١٧٣ .

(٢) سورة البروج .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٣/١٨٣ .

إقرار الإسلام بعض الأعراف الجاهلية ـ دليل على وجود عرف فقهي قديم ، فالعرب كانوا يحللون أموراً ؛ ويحرمون أموراً ؛ والتحليل والتحريم لا يكونان إلا بوجود شريعة تنهى وتبيح ] .

والذي يغلب على الظن : أن العرف الفقهي القديم الذي يشير إليه جواد علي ـ هو : ملة إبراهيم التي كان العرب في قديم عهودهم يعتنقونها ؛ فلما تسلطت عليهم الوثنية حرفوا ملة أبيهم إبراهيم الحنيف . فما كان له أصل في ملة إبراهيم ـ مثل الحج أقره الإسلام وشذبه ـ مما دخل عليه من طقوس الوثنية . فمما شجبه الإسلام طواف العرايا . وفي ( بلوغ الأرب ) للألوسي فصل مطول في شريعة العرب(١) .

وقد كان أهل مكة ومن يفد إلى مكة يختارون قضاتهم من شيوخ ( بني سهم ) وقد كان الحكام يحكمون بما تعارف عليه العرب ؛ وما تعارف عليه العرب الجاهليون ـ لا يستند إلى مقاييس قانونية .

وإذا ما تركنا شمالي الجزيرة إلى جنوبيها ـ نجد : تاريخ بلاد قحطان عميقاً ـ يرجع في بحوث المستشرقين إلى ما قبل الميلاد بألف وخمسمائة عام . وفي بحوث المؤرخين العرب يرتبط تاريخ ( اليمن ) بتاريخ ( هود ) وفي عصر هود اختلف المؤرخون(٢) .

وسكان اليمن في كل عصوره ـ أخلاط أكثرهم ساميون ـ انحدروا من الشمال إلى الجنوب ومن سواحل ( الخليج الإسلامي ) إلى سفوح السراة وتهائمها ـ في غابر القرون ـ فاستقر بعضهم في ربوع اليمن وتجاوزها بعضهم إلى سواحل أفريقيا وشواطىء النيل ومنابعه .

ولقد انتقلت ( المسيحية ) إلى اليمن من الحبشة . كما وصلت إليه ( المجوسية ) مع الفرس ومع المهاجرين الهنود ، ولقد حمل ( تبع ) اليهودية من المدينة إلى اليمن ، ويؤكد تاريخ الوثنية العربية : أن هناك تشابهاً وفوارق بين وثنية الجنوب ووثنية الشمال في بعض الطقوس وأسماء الآلهة . على أن الوثنيتين ترجعان إلى أصل واحد(٣) .

ولقد نقل ( جواد علي ) في أجزاء كتابه ( العرب قبل الإسلام ) بعض المراسيم الملكية التي أصدرها ملوك ( معين ) و ( قتبان ) و ( أوسان ) و ( سبأ ) و ( حمير ) لفلاحي الأرض وتجارها ـ اعتبرت قوانين للزراعة والتجارة ، ولارتباط العاهل بالدولة وبرجال الأعمال . ولكن هذه القوانين لم تكن في عدالة الشرائع السماوية ، ولم يمتد عمر بعضها إلى ما بعد دولة العاهل الذي أصدرها .

---

(١) بلوغ الأرب ٢/٢٨٨ و ٢٨٩ وكتاب العرب في أحقاب التاريخ الحلقة الأولى . التاريخ العربي وبدايته وغيرهما من المؤلفات التي وضعت في التاريخ العربي قبل الإسلام .

(٢) التاريخ العربي وبدايته ـ وهو الجزء الأول من موسوعة العرب في أحقاب التاريخ .

(٣) المرجع السابق هامش ٢ .

و ـ لذلك اعتبر التشريع الإسلامي منقذاً للإنسانية التي بلبلتها المزاعم اليهودية ، وأثخنتها العنجهية المجوسية الفارسية ؛ وكبلتها مطامع الروم البيزنطيين ؛ وضيعتها في جزيرة العرب وثنية مؤاب .

ولذلك نرى الكثير من أبناء الشعوب غير العربية الذين تجرع أجدادهم مر الطبقية الفارسية ؛ والاستعباد الروماني ؛ في مقدمة الذين عنوا بدراسة الفقه الإسلامي . فالفقه الإسلامي شرع الحقوق والواجبات على ما قضى به العدل الإلهي ، والفقه الإسلامي بني على ما نزل به القرآن وعلى ما سنه النبي ( ﷺ ) : قولاً أو فعلا ، وعلى ما تواضع عليه الفقهاء من صحابة ـ رسول الله ( ﷺ ) ، وفي طليعتهم الخلفاء الراشدون ، ومن في مستواهم تفقهاً في الدين ـ مثل ( عبدالله بن مسعود ) و ( أبي موسى الأشعري ) و ( عبدالرحمن بن عوف ) و ( أبيّ بن كعب ) و ( زيد بن ثابت ) و ( أبي الدرداء ) وغيرهم ممن ذكرهم ( ابن سعد ) في طبقاته(١) .

ز ـ ولقد ورث ذلك السلف من الصحابة خلف قام بواجب الإفتاء ، ولقد كان في مقدمة هذه الطبقة الثانية ؛ ( سعد بن المسيب ) و ( أبو بكر بن عبدالرحمن ) و ( أبو محمد القاسم حفيد أبي بكر الصديق )(٢) و ( عبيدالله حفيد ابن مسعود ) و ( عروة بن الزبير ) و ( سليمان بن يسار ) و ( خارجة بن محمد بن أبي بكر ) . وغيرهم ممن ذكرهم ( ابن سعد ) في طبقاته .

ولقد ولد مع الفقه الإسلامي في القرن الأول الهجري : اصطلاحان أطلقا على القواعد التي انبنت عليها الفتاوى والأحكام : الأول ـ العلم ـ ويعني : القرآن الكريم والحديث وعمل الصحابة . والثاني ـ الرأي ـ وتنبثق منه هذه المصطلحات ؛ الاجتهاد والقياس ، والاستحسان والاستنباط ـ إلى غيرها من المصطلحات الفقهية . ورأي الرجال المسؤولين عن عقيدة المجتمع ـ قل أن يكون ارتجالاً . فلابد لرجال الفقه : أن يجتهدوا ويقيسوا ويستدلوا ويستنبطوا ويستحسنوا قبل أن يبدوا رأياً أو يصدروا حكماً فيما لم يوجد له حكم قرآني أو تشريع نبوي أو أثر صحابي .

والرأي في قضية من القضايا التي لم تنزل في مثلها آية ، ولم يرد فيها حديث نبوي أو يسنها عمل صحابي ـ قل أن ينال الإجماع . وفي تاريخ الفقه الإسلامي : أمثلة كثيرة على ذلك ـ منها : قصة الأعمى الذي كان يقوده بصير ـ فوقعا في بئر ، فخر البصير ، ووقع الأعمى فوقه فقتله ، فقضى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعقل البصير على الأعمى ، فاختلف الفقهاء فيما قضى به عمر : رأياً مبنياً على الاجتهاد(٣) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٥٠ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٥٠٦ .

(٣) أعلام الموقعين ٢ / ١٧ ، وعقل : عقلت القتيل أعطيته ديته .

ويقول ( الحجوي ) في كتابه ـ الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ـ [ غير خفي أن الإجماع غير متيسر في الطور الأول للفقه ، وينقل عن الشافعي : ولا يكون عن قياس أو اجتهاد ـ لأنهم لو اجتهدوا لم يتفقوا ـ يعني : غالباً ][1]، ويقول آخرون : إن كثيراً من المسائل الفقهية حصلت على الإجماع ، والإجماع ليس معناه ـ أن تتفق أقوال جميع الفقهاء من الصحابة أو من سلفهم في مسألة ، فقد يكون هناك صحابي في بلد إسلامي حفظ حديثاً لم يحفظه غيره وهو من أولى الفقه والإفتاء . فلقد كان ( أبو هريرة ) يرى : أن من أصبح جنباً لا صوم له ، فاخبرته زوج من أزواج النبي ﷺ خلاف مذهبه فرجع عنه[2]. ولقد خفيت مسائل على عمر بن الخطاب فدله على حقيقتها الصحابة مثل : ذمة المجوسي ، وتوريث الزوج من دية زوجها [3] ـ إلى غير ذلك مثل الأحاديث التي يحفظ نصفها صحابي ويحفظ نصفها الآخر صحابي غير الأول ـ وقد يكون عجز الحديث يفسره صدره ، وقد يكون صدر الحديث مرتبطاً بعجزه فبه يتم معناه !!

ولقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل قوله : [ من ادعى الإجماع فهو كاذب ] ولقد اختلفت الفهوم في قول ابن حنبل .

وفي رأي الكثيرين : إن الإجماع لا يتأثر بانفراد فرد أو أفراد ـ إلا في حالة أن يكون الإجماع اجتهاداً ، وأن يكون المخالف ممن يؤخذ برأيه . وفي تحقيقات علماء الحديث : مسائل وأمثلة على الإجماع ـ ما يؤثر عليه ، وما لا يؤثر عليه .

ح ـ ولقد صحب الخلاف : الفقه الإسلامي من فجر تاريخه . فحرية الاجتهاد التي هي من حق المجتهد ـ هي من مميزات التشريع الإسلامي ، فلقد كان لعمر بن الخطاب مطلق الحرية في قضية الأنفال ، ولقد نزل عمر على رأي المرأة في الصداق ، ولقد كان ( سعد بن معاذ ) صريحاً عندما قال للنبي ( ﷺ ) قتل المشركين أحب إليَّ من أسرهم ، ولقد أيد القرآن رأي سعد ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ .

والرأي المنبثق عن القياس ـ يعارضه بعض المتأخرين ـ مثل : ( ابن القيم ) الذي جمع الكثير من الأحاديث وأقوال الصحابة الواردة في النهي عن القياس . فمما استشهد به ابن القيم قصة الحلتين اللتين أرسلها النبي ( ﷺ ) إلى ( عمر بن الخطاب ) و ( أسامة بن زيد ) فحرم عمر لبسها قياساً ، وحلل أسامة لبسها قياساً ، فأبطل رسول الله ( ﷺ ) : القياسين[4]. وهذه القصة في رأي آخرين لا يستشف منها النهي عن القياس ، فلعل القصد فيها : أن التحريم والتحليل ليسا من صلاحية الصحابة بوجود النبي ( ﷺ ) بين

---

(١) الفكر السامي ١/٦٣ .
(٢) البخاري ٣/٤٨ .
(٣) الفكر السامي ٢/٢٣٩ عن مصادره .
(٤) أعلام الموقعين ١/٢١٧ .

ظهرانيهم ، فالنبي ( ﷺ ) هو الذي أرسل الحلتين فكان عليهما وقد اشتبه عليهم أمرهما : أن يسألا النبي ( ﷺ ) .

واستشهد بما ورد عن ( أبي إسحاق الشيباني ) قال سمعت ( عبدالله بن أوفى ) يقول : [ نهى رسول الله ( ﷺ ) عن نبيذ الجر الأخضر(1) ـ قلت فالأبيض ؟ قال لا أدري ! ولم يقل وأي فرق بين الأخضر والأبيض كما يبادر إليه القياسيون(2)؟ ] ! ولا يرى آخرون : مكاناً لمثل هذا التقيد وعدم ثقة المرء في عقله وفهمه . فالقرآن الكريم حث الناس على أن يتفكروا ويعرفوا حقائق الأشياء ـ ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ ؟ فليس ثمة ما يمنع من قياس الأبيض بالأخضر . فهل يجوز شرب النبيذ المخمر في الجرار البيض ؟! .

وأورد ابن القيم : النقاش الذي دار بين ( جعفر حفيد الحسين ) وبين ( أبي حنيفة ) ـ يقول ( ابن شبرمة ) : إن جعفر سأل أبا حنيفة النعمان ! أخبرني عن كلمة أولها شرك وآخرها إيمان !؟ فأجاب أبو حنيفة ـ لا أدري . قال جعفر : هي ـ لا إله إلا الله . فلو قال لا إله ثم سكت كان مشركاً ـ فهذه كلمة أولها شرك وآخرها إيمان ! ثم قال له : ويحك ! أيهما أعظم عند الله ـ قتل النفس التي حرم الله ؟ أو الزنا ؟ قال : بل قتل النفس ، فقال له جعفر : إن الله قد قبل في قتل النفس شاهدين ، ولم يقبل في الزنا إلا أربعة ، فكيف يقوم لك قياس ؟! ] إلى آخر القصة (3).

فهذه القصة كما تراها لا يستشف منها ما فهمه البعض من أن الغرض من النقاش هو النهي عن القياس وإبداء الرأي ـ فأولاً : ما دخل السؤال الأول الذي يشبه الأحجية ـ في القياس ؟! ثانياً : إن كل جواب أبي حنيفة في الفرق بين القتل والزنا مبنياً على القياس ـ كذلك كان جواب جعفر مبنياً على القياس . فالقضايا التي تترتب عليها حقوق الناس : أرواحهم وأموالهم ـ ليست كمثل القضايا الخاصة ، فمثلاً شاهد القتل ـ لا تطلب منه : التفاصيل التي تطلب من شاهد الزنا ، ولا يعزر الشهود إن اختلفت شهادة أحدهم عن الثاني ، ولا تعطى للقاتل الفرصة التي تعطى للزاني ـ لعلك ولعلك . فالقتل وقطع الطريق والسرقة جرائم عامة تمس أمن المجتمع . أما الزنا والسكر والإفطار في رمضان ـ فهذه جرائم خاصة بمرتكبيها ، ومن القواعد المرعية في القضاء : ادرؤوا الحدود بالشبهات . فموقف النبي ( ﷺ ) من إقامة حد السرقة على النبيلة القرشية ، غير موقفه في إقامة حد الزنا على واحد من عامة المسلمين . ثم هناك بواعث تقيم الفوارق في الشهادات ، فشهر رمضان يثبت برؤية واحد ، أما شوال فلا يثبت إلا بشاهدين !! فهل الإفطار أعظم من الصيام لأنه لا يثبت إلا بشاهدين ؟! إن رمضان سيد الشهور !! (4).

---

(1) الجر الأخضر يعني الجرار غير المدهونة فهي أسرع تخميراً من الجرار المدهونة .

(2) أعلام الموقعين ١/ ٢٢٠ .

(3) أعلام الموقعين ١/٢٢٢ .

(4) كشف الخطأ ١/٤٥٩ .

فخبر ابن شبرمة لا يصلح أن يكون دليلاً على أن جعفر يعارض القياس ، فجعفر في هذا الخبر مجتهد يقيس ، فالذي يفهم من هذا الخبر : أن جعفر يستكثر القياس على أبي حنيفة كما يستدل من قوله [ كيف يقوم لك قياس ][(١)]. والمعروف : أن لابن شبرمة مواقف مع أبي حنيفة تحدث عنها مترجمو فقهاء العراق الذين صوروا مواقف بعضهم من بعض .

فقصة أبي حنيفة مع جعفر - مثل قصة ( أبي عبيدة معمر بن المثنى ) مع ( أبي سعيد عبدالملك الأصمعي ) فلقد كان الأصمعي يمتنع عن تفسير القرآن ، ويعيب على أبي عبيدة : كتاب المجاز . ويقول : إن أبا عبيدة يتكلم في كتاب الله برأيه ، فذهب أبو عبيدة إلى مجلس الأصمعي - وسأله ! يا أبا سعيد - ماذا تقول في الخبز ؟ أي شيء هو ؟ قال : هو الذي نخبزه ونأكله ، قال أبو عبيدة قد فسرت كلام الله برأيك - فإن الله قال حكاية عن صاحبي يوسف في السجن : [ أحمل فوق رأسي خبزاً ] !! فقال الأصمعي : هذا شيء بان لي فقلته ولم أفسره برأي : قال أبو عبيدة : والذي تعيبه علينا - كله شيء بان لنا فقلناه ، ولم نفسره برأينا ][(٢)] .

فالاجتهاد وإبداء الرأي في التشريع : أمر لابد منه ، وأمر أجازه ما ثبت عن النبي ( ﷺ ) وخلفائه وفقهاء صحابته وتابعيهم . ولقد أكده ( القرطبي ) في كتابه ( جامع بيان العلم ) وأورد على ذلك شواهد وأمثلة ، فلقد كان النبي ( ﷺ ) يجتهد فيما لم ينزل عليه فيه وحي ، ويقر الاجتهاد ويشجع المجتهدين من صحابته - فهو قد اجتهد في الأنفال ، وهو قد وافق على رأي ( الحباب بن المنذر الجموح ) عندما أشار عليه ( يوم بدر ) بالانتقال من الموضع غير الاستراتيجي إلى الموضع الاستراتيجي . ولقد أخذ برأي سلمان الفارسي - فحفر الخندق في غزوة الأحزاب[(٣)] . ولقد قبل ( ﷺ ) حكم ( سعد بن معاذ ) في ( بني قريظة ) ، ولقد كان حكم سعد مبنياً على القياس فهو كما يقولون : استنبط حكمه من قوله تعالى ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا ﴾[(٤)] . ولا يزال هذا الحكم نافذاً دولياً ، فخيانة الوطن جزاؤها الإعدام . فهل هناك فساد أكبر من خيانة بني قريظة للمسلمين ، فاليهود كانوا جالية مواطنة في المدينة ، فتآمرهم مع الأحزاب والمدينة في حالة حرب - هو لا شك خيانة عظمى .

ولقد أقر النبي ( ﷺ ) الاجتهاد في كل ما لم يبت في أمره وحي ، وفي كل ما لم يقره ( ﷺ ) . ولقد سره ( ﷺ ) أن يكون من صحابته مثل ( معاذ بن جبل ) متفقهاً في الدين مجتهداً[(٥)] . وفيما يروى عن ( ميمون بن مهران ) : أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - كان إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى ، فإن وجد فيها يقضي به قضى به ، وإن لم يجد

---

(١) أعلام الموقعين ١ / ٢٢٢ .

(٢) العرب في أحقاب التاريخ الحلقة الثانية التي صدرت بعنوان التاريخ العربي ومصادره ٢ / ٥٣٦ .

(٣) سيرة ابن هشام .

(٤) سورة التوبة .

(٥) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٤٧ .

في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ( ﷺ ) فإن وجد ما يقضي به قضى به ، فإن أعياه ذلك سأل الناس ! هل علمتم أن رسول الله ( ﷺ ) قضى فيه بقضاء ؟ فإن لم يجد سنة سنها النبي ( ﷺ ) جمع رؤساء الناس فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به ] . فهذه الطريقة في حل المشكلات : اجتهاد من أبي بكر .

ولقد أمر عمر بن الخطاب : قضاته بالاجتهاد والقياس - في كتابه المشهور لأبي موسى : [ اعرف الأشباه والنظائر وقس الأمور ] . ويروى : أن عمر بن الخطاب لقي رجلاً فقال له ما صنعت بمسألتك ؟ فقال الرجل قضى علي ( زيد ) بكذا ، قال لو كنت أنا لقضيت بكذا ، قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ؟ فقال : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو سنة نبيه ( ﷺ ) لفعلت ، ولكنني أردك إلى الرأي والرأي مشترك ! ! ][1] .

فمن عهد النبي ( ﷺ ) تقرر القياس وأصوله ، ولم ينته القرن الأول من الهجرة إلا بعد أن تقررت قواعد الفقه ، وبدأ تدوينه . ويعتبر مؤرخو الفقه الإسلامي ؛ كتابة ( ابن شهاب الزهري ) ما جاء عن الصحابة - هي : بداية تدوين الفقه - قال ( أبو زناد ) : [ كنا لا نكتب إلا السنة وكان الزهري يكتب كل شيء فلما احتيج إليه عرفت أنه أوعى الناس ][2] .

ط - وفيما قبل العصر الأموي كان الكثير من الصحابة ، وكان الكثير من التابعين متفقهين - في صلاتهم في صيامهم في زكاتهم في حجهم في بيوعهم في كل ما تطالبهم به آخرتهم وتطالبهم به دنياهم - يفتي بعضهم فيما أشكل على بعضهم . ولقد كان القرآن أول ما شغل به المسلمون : حفظاً وفهماً وكتابة . ثم الحديث : جمعه ونقد رواته ومعرفة المناسبات التي تحدث عنها النبي ( ﷺ ) ، والقضايا التي حكم فيها ، والأسئلة التي أجاب عليها ، والناسخ والمنسوخ إلى غير ذلك من التحقيقات التي جاءت في المؤلفات التي وضعت في علم الحديث .

وأكثر ما كان يشغل فكر الأمة : الجهاد في سبيل الله ، فالفرس الذين استعمروا العراق وصل نفوذهم إلى اليمن : والروم الذين استعمروا سورية مازالوا يتربصون بالعرب بعد فشل ( اليوس غاليوس ) قائد قيصر الروم ( أغسطس ) في غزو جزيرة العرب ، ولم تكن حروب الروم - مع الأنباط - إلا جزءاً من مخططهم الاستعماري ، فإذا لم يذب المسلمون عن إسلامهم وقعوا في كماشة [3] الامبراطوريتين المستعمرتين . فالفرس أخذوا يهددون كعبة المسلمين من الجنوب ، والروم أخذوا يعدون نصارى العرب لغزو المدينة عاصمة الإسلام الأولى - من الشمال .

---

(١) كتاب أصول الفقه الإسلامي ص ٨ نقلاً عن مصادره .

(٢) العرب في أحقاب التاريخ الحلقة الثانية : التاريخ العربي ومصادره ترجمة الزهري ٢/٤١٢ .

(٣) كماشة صحح استعمال كماشة بهذا المعنى مجمع دار العلوم بمصر .

ي ـ وأعظم المشكلات التي شغلت بال المشرعين : الاختلاف على قراءة القرآن وأكبر مهمة قام بها المسؤولون عن الإسلام وتشريعه : جمع القرآن ـ كما نزل . ثم ظهرت مشكلة تدوين الحديث وجمعه ، فالقرآن والحديث ـ هما : دعامتا التشريع .

ومن نعم الله : أن انتهت قضية جمع القرآن وتوحيد المصاحف ـ قبل أن تتجمع سحب الفتنة الكبرى التي جمَّعتها أسباب من أهمها تصرف المروانيين في الإدارة وفي بيت مال المسلمين ، فمع الخارجين على ( عثمان بن عفان ) ـ أقبلت الأحداث تباعاً فشغلت بها الأمة الإسلامية ، شغلت بالحكم على قتلة عثمان ، وشغلت بخروج ( عائشة ) على ( علي بن أبي طالب ) وشغلت بالتحكيم بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان ، وشغلت بالخوارج الذين يكفرون أنصار علي وأنصار معاوية ، وشغلت ببيعة ( يزيد بن معاوية ) ، وشغلت بإباحة المدينة حرم رسول الله ( ﷺ ) ، وشغلت بمقتل الحسين وابن الزبير ورمي الكعبة بالمنجنيق ـ إلى غير ذلك من الحوادث التي لم تترك للمسائل الفقهية مكاناً كبيراً في تفكير رجال العلم والرأي[١] . فالمسألة الفقهية التي برزت في تلك الأحداث ـ هي مسألة حصة ذوي القربى التي فرقت بين علي بن أبي طالب وعبدالله بن عباس .

ولقد نقل الحجوي عن ( المحلي ) من شرح جوامع الكلم قولاً منسوباً إلى الإمام الشافعي : [ إن أقوال الخلفاء حجة إلا علياً ـ لأنه لما آل إليه الأمر خرج إلى الكوفة ، ومات الكثير من الصحابة الذين كان الثلاثة يستشيروهم ][٢] .

والذي يبدو مما نقل عن الشافعي في أقوال الخلفاء الراشدين : إن قول علي بن أبي طالب ليس بحجة ـ لا يقصد به الشافعي : عدم الثقة فيما يرويه علي بن أبي طالب ، فعلي حجة فيما يتحدث به عن النبي ( ﷺ ) ، وفيما يفسره من القرآن الكريم ، وقد كان أبو بكر وعمر يأخذان بقول علي ـ فلعل الشافعي ـ إن صحت هذه الرواية ـ قصد : الشؤون الإدارية والسياسية ، فلقد كان الذين سبقوا علياً يسألون كبار الصحابة إذا ما استعصت عليهم قضية من قضايا المسلمين ، فعلي لم يكن بجانبه في الكوفة ـ كبار الصحابة الذين كانوا في المدينة بجانب الخلفاء الذين سبقوه . فلقد كان الشافعي يكبر علي بن أبي طالب ، ولقد كان علي بن أبي طالب مصدر الشافعي في تصنيفه ـ قتال أهل البغي .

ك ـ وما ورد في تحقيقات مؤرخي التشريع الإسلامي ـ عن رجوع ( عمر بن الخطاب ) في بعض المسائل الفقهية ـ ليس معناه جهل عمر بأوجه المسائل وأفضل الحلول ، وإنما هو الخلق الإسلامي وطبيعة المشرع فمادام عمر لم يذكر الحديث الذى ذكره به بعض الصحابة لأنه قد يكون غير حاضر عندما تحدث به النبي ( ﷺ ) أو نسيه ـ كموقفه يوم مات رسول الله ( ﷺ ) ـ فماذا يمنعه أن يرجع إلى الأصح ؟! .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢/٣٤٧ .
(٢) الفكر السامي ٢/٣٤٣ .

وعمر عندما أعلن أمام الجماهير : عدوله عن تحديد المهور ، ونزوله على رأي المرأة التي وقفت محتجة بقوله تعالى ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ ـ وهو عمر بن الخطاب المشرع الذي يشرع للمسلمين قاعدة : من حفظ حجة على من لا يحفظ ـ فالتشريع لا يرضخ لخليفة أو أمير أو ذي رأي مهما بلغت منزلته ، فالحجة الثابتة تنصر صاحبها ـ لأنها فوق كل اعتبار شخصي ، فلقد نزل عمر على رأي المرأة عندما أتته بحجة من القرآن ، ولقد نزل على رأي أعرابي من أهل البادية عندما أثبت له : أن النبي ( ﷺ ) أمره أن يورث المرأة من دية زوجها[1] .

ل ـ وباستقرار الأمر لبني أمية بعد الخلفاء الراشدين ـ رجع الفقهاء لواجبهم في تفسير القرآن وتدوين الحديث والأثر والاجتهاد . وإلى وضع تشريع للقضاء على ضوء ما ورد عن النبي ( ﷺ ) : قولاً وحكماً ، وعما ثبت عن أبي بكر وعمر ، وقياساً على ما جاء في كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري . كما نشط رجال العلم والاقتصاد لتنظيم الإدارة المالية وتركيز معاملاتها في دواوين إدارية ، وتنظيم طرق الجباية . ونهض بجانبهم رجال الفتوى يشرعون المعاملات التجارية والبيوع والشركات .

م ـ ففي عهد الأمويين نظم المختصون الدواوين التي وضع أساسها عمر بن الخطاب وزادوا عليها ، فشكلوا ديوان الخراج ، وديوان المستغلات والإيرادات المتنوعة ، وديوان الرسائل وديوان الخاتم ، وفي عهد عبدالملك عربت الدواوين .

ومن بعد الفتوح الإسلامية جدت موارد جبتها الدولة ـ مثل : الخراج ، والخراج يؤخذ عن الأرض التي فتحها المسلمون عنوة ، وعلى الأرض التي صالح المسلمون أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال ، والجزية التي تؤخذ من الذميين ـ تقابلها الزكاة التي تؤخذ من المسلمين . وقد اشترع الخراج عمر بن الخطاب ، كما فرض العثور ، والعثور : ضريبة سنها عمر بن الخطاب على البضائع التي يقدم بها غير المسلمين من دار الحرب إلى دار الإسلام .

ومن العهد الأموي أخذ نظام الواردات يتسع باتساع الدولة الإسلامية ، وأخذت جباية الواردات تتطور بتطور الأوضاع .

وأول من وضع نظاماً للقضاء ـ هو عمر بن الخطاب عندما انتشر الإسلام وكثرت مشكلات التعامل بين أفراد المجتمع الخليط ، وينقل مؤلفو كتاب النظم الإسلامية عن مصادرهم : إن القضاة كانوا يحكمون بما يصل إليه اجتهادهم[2] ـ إذا لم يكن هناك دليل قرآني أو حديث نبوي أو معاملة أظهر الصحابة : الصحيح فيها والخطأ ، ولقد تطور القضاء والإفتاء بتطور نظام الحكم في العهد الأموي ، ولكن التشريع لم يجد عليه غير مسائل لا تكاد تذكر بالنسبة للمسائل التي درستها المذاهب فيما بعد .

---

(١) الفكر السامي ٢ / ٢٤١ ـ نقلاً عن الترمذي في المرأة ، ونقلاً عن الخطيب .
(٢) النظم الإسلامية ص ٣٣٤ .

ن ـ وبعد نشوء المذاهب تضاءلت حاجة القاضي للاجتهاد ، فلقد نظم أئمة المذاهب الأحكام راجعين إلى كتاب الله وسنة نبيه وما تواضع عليه الصحابة والتابعون . ففيما بين سنة ١٣٢ ـ وسنة ٦٥٦هـ وضع أئمة المذاهب : أصول الفقه ، ولقد انشطروا إلى قسمين : أهل الحديث ـ وأهل الرأي . فمالك بن أنس الحميري ( ٦٣ ـ ١٧٦ ) يعتمد على الحديث ولا يلجأ إلى الرأي إلا في الحالة القصوى من الضرورة ـ على طريقة ( سعيد بن المسيب ) أحد الفقهاء السبعة المعترف بفتواهم ولقد تابع الإمام ( مالك بن أنس ) تلميذه ( محمد بن إدريس القرشي إمام الشافعية ـ ١٥٠ ـ ٢٠٤ ) ووافقهما في كثير من المسائل ( أحمد بن حنبل الشيباني ـ ١٦٤ ـ ٢٤٢هـ ) صديق الشافعي الذي لازمه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر[1] .

على أن الشافعي كان ـ كما يقولون ـ في وضعه أصول الفقه ـ متوسط النهج بين الرأي والتقليد . ويزيد على أبي حنيفة وصاحبيه ( محمد الشيباني ) و ( أبي يوسف الأنصاري ) بوضع قواعد مقررة للقياس ، ولقد سوغ بعض المتأخرين من الشوافع : الاستحسان ، الذي تحرج منه الشافعي فالشوافع بالاستحسان قربوا من الأحناف . ولأئمة الشافعية ـ مؤلفات قيمة عالجت الكثير من المسائل ، ومن أئمة الشافعية البارزين : النسائي ـ أحمد بن علي ، والماردي ـ علي بن محمد الفقيه السياسي ، والغزالي ـ أبو حامد محمد ، والنووي ـ يحيى بن شرف وغيرهم . والنسائي والغزالي والنووي : ألقاب عرف بها غير واحد من رجال العلوم الإسلامية ، وفي ( مرآة الجنان ) لليافعي ـ تراجم وافية لهؤلاء ولكثير من الأعلام ، وفي وفيات الأعيان) لابن خلكان ـ ترجمة لشقيق أبي حامد الغزالي ـ جاء فيها : الغزالي نسبة إلى الغزال . بتشديد الزاي ـ وإلى ( غزالة ) قرية بطوس .

وقد عرف رجال من نوابغ الفقهاء بالتحفظ إلى حد التشديد ـ ولا سيما الحنابلة ومن بعدهم الموالك ، فالشوافع ـ وأخيراً يأتي الأحناف .

فلقد سار ( أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي ـ بالولاء ـ ٨٠ ـ ١٥٠هـ ) على أثر ( إبراهيم النخعي ) مؤسس حزب الرأي ـ فجوز لنفسه الاجتهاد وإبداء الرأي ، وبظهور الإمام أبي حنيفة كثر الذين يميلون إلى الرأي ، وقد عرف العراق في تاريخ الفقه بأنه مهد الرأي ، وعرف العراقيون بأنهم أصحاب الرأي .

ولكن ليس معنى هذا : أن الأحناف تركوا الحديث والسنة ، أو أن الموالك والشوافع والحنابل ـ لا يرون ولا يقيسون ، فالأحناف جميعهم لا يختلفون مع غيرهم في إلغاء الرأي ـ إذا وجد نص من القرآن أو دليل من السنة : حديثاً كان أو أثراً لصحابي في مستوى الإفتاء . ومن الأحناف رجال عزوفون عن الرأي والقياس .

فإذا كانت المدينة ـ هي قاعدة أهل الحديث ، وإذا كان المدنيون متشددين في القياس ليس ذلك معناه أنهم لا يجتهدون ولا يقيسون ، فإن من المدنيين رجالاً لا يحجمون عن الرأي مثل

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١ /٤٧ والأعلام للزركلي .

( ربيعة بن عبدالرحمن ) شيخ مالك بن أنس - فهو من الذين يقيسون ، ويبدون الرأي ، ويقال : إنه لذلك سمي ربيعة الرأي ، ويقال : إن ( عطاء بن رباح ) إذا أفتى في أمر سأله الناس : بماذا أفتى ؟ فيجيب : إنها علم ، ويقصد : القرآن والحديث وعمل الصحابة ، أو يقول : إنها رأي ويقصد : الاستنباط[1] ومما يروى عن ( الشعبي ) : [ أن مروان أجلس لزيد بن ثابت - رجالاً وراء الستر ثم دعاه فجلس يسأله ، وجلس الرجال يكتبون ، فنظر إليهم ( زيد ) فقال : يا مروان عذراً - إنما أقول برأي ][2] . [ وروي عن الترمذي أن عبدالله بن مسعود سئل عن امرأة مات زوجها ولم يفرض لها صداقها ؟ فقال : لم أر رسول الله ﷺ - يقضي في ذلك ، فاختلف السائلون إليه شهراً وألحوا ، فاجتهد برأيه فقضى بأن لها مهر مثيلاتها - لا وكس ، ولاشطط وعليها العدة ولها الميراث ، فقام ( معقل بن يسار ) فشهد بأنه ( ﷺ ) قضى بمثل ذلك ، ففرح عبدالله فرحة لم يفرحها قط ][3] وقد خالفه علي بن أبي طالب في الصداق كما جاء في ( نيل الأوطار ) ، وقد قاس علي بن أبي طالب : الموت على الطلاق في قوله تعالى ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾[4] .

س - ويرى بعضهم : أن رأي الصحابي لم يكن في عهود الإسلام الأولى - فوق النقض إذا ثبتت صحة ما يخالفه . ويستند هذا البعض إلى ما روي : أن عمر بن الخطاب كان يرى التيمم بدلا من الوضوء لا الغسل ، فالجنب لا يتيمم في رأيه ، فروى عنه ( عمار بن ياسر ) : أنه كان في سفر فأصابته جنابة ولم يجد ماء فتمعك في التراب ، فذكر ذلك لرسول الله ( ﷺ ) - فقال له : [ كان يكفيك أن تفعل هكذا وضرب بيده الأرض فمسح وجهه ويديه ] فلم يقتنع عمر ، ولم يعتبر ما رواه ابن ياسر : حجة ؛ ولكن المجتهدين من الطبقة الثانية رجعوا إلى المسألة ، وأقروا : ما اتفقت عليه الأغلبية في الجنب ][5] . وهذه المسألة من مسائل وردت في الصحاح وفي المؤلفات الموضوعة في الاجتهاد وضرورته ، والقياس وشرعيته - استشهد بها الذين حققوا أصول التشريع وأثر الاجتهاد فيه .

ويسأل الكثيرون ! هل كان الصحابة كلهم مجتهدين ؟ ويأتيهم الجواب حيناً بلا وحيناً بنعم !!! ولقد اقتنعت الأغلبية برأي من يقول : ليس كل صحابي بمجتهد ، وليس كل صحابي في مستوى الإفتاء .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٨٦ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢ / ٣٦٣ .

(٣) راجع البخاري ١ / ٨٩ ومسلم ١ / ١٩٣ والخبر منقول عن الفكر السامي .

(٤) الفكر السامي ٢ / ٢٦٢ ويقول الحجوي وأخرجه كذلك النسائي وابن ماجه .

(٥) نيل الأوطار ٦ / ١٧٢ .

فإذا كان الاجتهاد له حكمه في المسائل التعبدية ؛ وإذا كان الصحابة والتابعون تواضعوا عليه ـ بالأحرى أن يكون له حكمه في المسائل الاقتصادية والمعاملات التجارية وأرباح الاستثمار . والذي جاز في عهد مالك وأبي حنيفة وصاحبيه والشافعي وصديقه الإمام أحمد بن حنبل ، وفي عهود أعلام مذاهبهم ـ يجوز لأعلام الفقه الإسلامي في الوقت الحاضر . فليس هناك آية أو حديث أو أثر ـ يمنع رجال الفقه في القرن الرابع عشر من الاجتهاد ووضع تشريع للمسائل التي استجدت مع تطور الحياة .

ع ـ ومدارس الفقه الإسلامي في العصر الأموي ـ هي : التي هيأت لأئمة المذاهب : تأليف مذاهبهم ، ومدارس الفقه الإسلامي في العصر الأموي ـ هي مدارس : المدينة ، ومكة ، ودمشق ، والكوفة ، والبصرة ، والقاهرة . ومثلما تعتز مدارس الحجاز بأعلامها من كبار الصحابة المتفقهين ـ تعتز مدارس العراق بمن انتقل إلى الكوفة وإلى البصرة من الصحابة الذين أحصاهم البعض فزاد عددهم في العراق ـ على الثلاثمائة صحابي وتابعي ـ منهم : عبدالله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري ، وعبدالله بن عباس ، وعطاء بن رباح ، والمغيرة بن شعبة ، وأنس بن مالك ، وعمران بن الحصين ، وتعتز دمشق عاصمة الأمويين بالصحابة الذين شجعهم الخلفاء الأمويون على سكنى الشام ، والواقع : أن علم الصحابي حق مشاع ، فعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وغيرهما ـ هم أساتذة مدرسة المدينة ومدرسة مكة ومدارس العراق والشام ومصر .

والمذاهب الفقهية في إحصاء بعضهم بلغت ثلاثة عشر مذهباً ذكرها المؤرخون بأسمائها ـ مثل : ( الأوزاعية ) و ( الثورية ) و ( الظاهرية ) ومن تلك المذاهب : مذاهب قبرت قبل أن تحبو ـ مثل : ( الجريرية ) نسبة لابن جرير الطبري . والمذاهب التي انتشرت وحافظت على البقاء ـ هي : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، وفي فارس وبين الجاليات الشيعية وفي غير فارس ـ انتشرت مذاهب الشيعة . ولقد اعترفت الجماهير الإسلامية بقدرة أصحاب المذاهب الثلاثة عشر على الاجتهاد .

ف ـ ومن الغرائب التي استرعت انتباه المؤرخين : أن الأمويين الذين حاربوا المدنيين وأباحوا المدينة ، والذين حاربوا المكيين ورموا الكعبة بالمنجنيق ـ كانوا من الناحية التشريعية أنصار الفتيا الحجازية !! لا سيما فتاوى المدنيين ، فلقد رحب بلاط الأمويين بفقهاء الحجاز ، ولقد كان ( عمر بن عبدالعزيز ) يكتب إلى أهل الأمصار ـ يعلمهم السنة والفقه ، ويكتب إلى أهل المدينة ـ مدرسة الإسلام الأولى ـ يسألهم عما يعلمون . ولقد كتب إلى ( أبي بكر بن حزم )[1] : أن يجمع السنن ويكتبها إليه .

ويرى بعض عامة المؤرخين : أن العباسيين ، وأبا جعفر المنصور بالذات كانوا خصوماً للمدينة التي رحبت بدولتهم بادىء الأمر ، وأن العباسيين وأبا جعفر المنصور بالذات كانوا

---

(١) التاريخ العربي ومصادره ٥٦٢ .

متحزبين لشيعتهم من الفرس . وأنهم لذلك ناصروا الرأي العراقي على القول المدني ، وأنه لذلك استقدم المنصور : أبا حنيفة إلى بلاطه وفعل الكثير لبروز مذهبه وانتشاره ، وأن أبا جعفر المنصور اندفع مع الشعوبية فبنى : ما أسماه القبة الخضراء[1]- على قصره الفخم .

ص.. ويقول ( جرجي زيدان ) : إن المنصور أراد بقبته الخضراء : تحويل نظر المسلمين عن المدينة ، وأراد من قطع الميرة عن المدنيين : إضعافهم وامتهان مكانتهم - مما جعل المدنيين يتمسكون بفتوى الإمام مالك ، فيخلعون عنه بيعة العباسيين ، ويبايعون ( محمد بن عبدالله العلوي ) . وإن المنصور أنزل بمالك عذابه ؛ وخلع كتفه - انتقاماً من إصرار مالك على التنكر لبيعة العباسيين .

أما المحققون الذين كتبوا عن مالك بن أنس ، وتحدثوا عما أصابه من المنصور ، فهؤلاء - لا يقرون : ما فهمه العامة من المؤرخين عن أبي جعفر المنصور ، وأنه فعل ما فعله مع مالك مجاملة لأنصاره الفرس ، وأنه ناصر الرأي العراقي على القول المدني ، واستقدم أبا حنيفة الأعجمي ، وفعل الكثير لبروز مذهبه وانتشاره - وإرضاء لشيعته ، وأنه بنى قبته الخضراء لتحويل نظر المسلمين عن المدينة . فلقد ذكروا أسباباً لمحنة مالك مع أبي جعفر المنصور غير الانتصار للشيعة - فهم عندما ذكروا : أساتذة مالك - ذكروا معهم : جعفر الصادق ، ولجعفر الصادق مكانته عند الشيعة فلابد وأن يكون لتلميذ جعفر عند الشيعة شيء من الارتياح . وذكروا : أن الخلفاء العباسيين عادوا إلى مالك وأعادوا له مكانته بزيارة بعضهم منزله ، وبرواية بعضهم الموطأ - وقالوا أكثر من هذا ، وقالوا : إن المنصور هو الذي اقترح على مالك : أن يضع للناس كتاباً في السنة والفقه يتجنب فيه رخص ( ابن عباس ) وتشدد ( ابن عمر ) وشطط ( ابن مسعود ) - عندما اجتمع به في الحج ، فوضع مالك : موطأه . ثم إن علاقة أبي حنيفة مع المنصور لم تستمر على أحسن حال .

لذلك ولأسباب أخرى لا محل لذكرها هنا - استبعد المحققون : الكثير مما تخيله ( جرجي زيدان ) فكتب ما كتبه عن الشعوبية والمذاهب الإسلامية ، وأكدوا : ان انتشار المذهب الحنفي - لا يرجع سببه إلى مجاملة المنصور لشيعة أهل البيت من الفرس الذين تولوا مناصب القيادة في أول عهد الخلافة العباسية ، وأن الشيعة ليسوا هم الذين نشروا مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الأعجمي العنصر ، فللشيعة مذاهبهم .

إن ما حدث لمالك بن أنس من المنصور : حقيقة تاريخية ، ولكن ما هي أسبابها ؟؟! فالذي يبدو على ما ذكره المحققون من المؤرخين لا يتفق مع ما قاله جرجي زيدان ، فأولاً إن قبة المسجد النبوي لم تبن قبل حريق المسجد الأول كما جاء في ( وفاء الوفاء ) : [ إنه لم يكن قبل حريق المسجد الشريف الأول وما بعده على الحجرة الشريفة قبة بل كان حظير مقدار

(١) التمدن الإسلامي ٣/ ٧٩ .

نصف قامة مبنياً بالآجر تمييزاً للحجرة الشريفة عن باقي سطح المسجد واستمر ذلك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة في أيام ( قلاوون الصالحي ) ثم بعد حريق المسجد الثاني أسست القبة البيضاء[1] [ ثم لونت باللون الأزرق فسميت : القبة الزرقاء . ثم تم إبدالها باللون الأخضر ، فسميت : القبة الخضراء ][2] .

ثانياً ـ إن المذهب الحنفي بلغ ذروة انتشاره في عهد الدولة العثمانية التركية ، ففي عهدها انتشر المذهب الحنفي في كثير من أنحاء العالم الإسلامي ـ لا سيما في المدينة التي كان إمامها ( مالك بن أنس ) فلقد قلدت أكثرية المدنيين : أبا حنيفة . والأتراك ليسوا من العنصر الفارسي ، والأتراك لا يفضلون علياً والعباس على أبي بكر وعمر . ولقد كانت سياستهم على غير ما يرام مع السياسة الفارسية .

ثالثاً ـ إن ما حدث لمالك بن أنس حدث مثله لأبي حنيفة مع المنصور لأسباب اختلفت الآراء حولها ، وحدث مثله للإمام أحمد بن حنبل مع حفيد المنصور ( المأمون بن هارون الرشيد ) فتاريخ العباسيين مليء بالنكبات التي أصابت بعض الذين قربهم الخلفاء العباسيون .

إن المسلمين الذين أكبروا ( ابن شهاب الزهري ) و ( مالك بن أنس الحميري ) العربيين ـ هم الذين أكبروا ( البخاري )[3] و ( أبا حنيفة ) الأعجميين . فالأمويون ـ وإن لم يطمئنوا لغير العرب ، والعباسيون وإن لم يطمئنوا للعرب ـ إنهم لم يكبروا العالم العربي لعروبته ونصرته ، ولم يكبروا العالم العجمي لأعجميته وتشيعه ، بل أكبروا العلم والإنتاج ، فكل مشرع شرع للدولة والمجتمع وأنار طريق المسيرة الإسلامية : جدير بالإكبار والتكرم والاحترام .

ولقد برز في مذهب أبي حنيفة رجال أعلام لا تأخذهم فيما اقتنعوا به : لومة لائم ـ مثل ( محمد بن الحسن الشيباني ) ومحمد بن الحسن من رواة موطأ مالك بن أنس ، و ( أبو يوسف يعقوب الأنصاري ) و ( زفر بن ذهيل ) وهؤلاء الثلاثة من أصل عربي ـ فلم تمنعهم عروبتهم من أن يتتلمذوا لأبي حنيفة ، ولم تمنعهم أستاذية أبي حنيفة من أن يخالفوه في بعض المسائل . ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة أقل من أبي حنيفة تمسكاً بالرأي .

فالحقيقة التي أثبتها المؤرخون المحققون ـ تشير إلى أسباب غير العنصرية كانت الباعث لانتشار المذهب الحنفي في العهد العباسي وفي خلافة آل عثمان ، ومن الأسباب التي تشير إليها الحقائق التي وصل إليها المؤرخون : اجتهاد الأحناف وبذلهم قصارى الجهد في حل العقد التي كانت تتعب الحكام ، فلقد كانوا أكثر تيسيراً وجهداً لحل القضايا التي كان من الضروري للعالم الإسلامي المتطور ، تشريع أحكام لها ، وإيجاد حلول لمشكلاتها .

---

(١و٢) كتاب وفاء الوفاء ٢ / ٢٠٦ وما بعدها .

(٣) البخاري الجعفي بالولاء مرآة الجنان ٢ / ١٦٦ وأبوحنيفة تيمي بالولاء . مرآة الجنان ١ / ٣١٠ .

ق ـ فمن الثابت في تاريخ الفقه الإسلامي : أن مالك بن أنس سبق أئمة المذاهب بتأليفه الموطأ ، وأن الموطأ وإن اعتبره الكثيرون من أوائل المؤلفات في الحديث ، فقد دار في محيطه فقهاء المالكية ، ولكنهم لم يتوسعوا في وضع الحلول لمشاكل الدولة والمجتمع بعد الفتوح كما فعل الأحناف . وإذا كان مالك بن أنس ـ السابق بموطئه ، فإن الأحناف سبقوا إلى التأليف في الفقه وأصوله . فلقد ألف أبو حنيفة كتابه الشهير ( الفقه الكبير ) ولاتساع كتاب الفقه الكبير شك البعض في قدرة أبي حنيفة على تحقيق ستين ألف مسألة[1] ، ولقد كان أبو يوسف أول من ألف في أصول الفقه الحنفي ، ولعل كتابه : ( الخراج ) الأول من نوعه ـ كما ألف محمد كتاب ( الجامع الصغير ) . وعن أبي حنيفة قال الشافعي : الناس عالة في الفقه على أبي حنيفة فهو الذي نسقه كما يقول ( النضر بن شميل ) .

فأبو حنيفة وأئمة مذهبه استنبطوا فروعاً في التشريع ، وافترضوا مسائل كان العالم الإسلامي في حاجة إلى معرفة أحكامها ، ووضعوا لها حلولا ـ إما بالقياس على ما سبق في مثيلاتها أو استناداً إلى حكم عام . أو برأيهم فيما لا يضر المجتمع ، ولا يخل بأمن الدولة ، ولا يمس فريضة ، بما يخل الحكم فيها أو يؤثر على جوهرها أو يتعارض مع سر تشريعها . فأمدوا الدولة والمجتمع بما يحل لهم معضلات لابد من حلها ، فلقد وضع أبو يوسف كتاب ( الخراج ) ولقد تحدث ( محمود مطلوب ) في مؤلفه ( أبو يوسف ) عن كتاب ( الخراج ) فقال[2] عنه : إنه بين موارد الدولة ونفقاتها على اختلاف أنواعها وأوجهها حسبما جاءت به الشريعة : واردات ومنصرفات ، وخطط طرقاً لجبايتها ، ووضع واجبات لجباتها ولخزانة أموال الدولة .

فالإنتاج الذي قدمه الأحناف في عهد الامبراطورية الإسلامية من أوائل عهد العباسيين وفي عهد آل عثمان الأتراك ـ هو : السبب في انتشار المذهب الحنفي .

ولم يخرج أبو حنيفة عن القاعدة التي سار عليها ( معاذ بن جبل ) والتي أقرها النبي ( ﷺ ) وارتاح لها ، فأبو حنيفة يحدد قواعد مذهبه على النحو الآتي :ـ أولاً : كتاب الله . ثانياً : سنة رسول الله ( ﷺ ) . ثالثاً : الأثر الثابت . رابعاً : الأخذ بمن يقتنع بهم من الصحابة وعدم الخروج عن قولهم إلى قول غيرهم . خامساً : أما إذا كان الأمر قد انتهى إلى التابعين ؛ فأبو حنيفة يجعل من حقه أن يجتهد كما يجتهدون[3] .

---

(١) يقول الحجوي في الفكر السامي ٢ /٣٣٨ : إن مؤلف كشف الظنون لم يذكر لأبي حنيفة ( الفقه الكبير في أصول الفقه ) بل ذكر له ( الفقه الكبير الموضوع في علم الكلام ) .

(٢) كتاب «أبو يوسف» ص ١٠٣ ، وراجع محاضرات الخضري : العهد العباسي .

(٣) الفكر السامي ١ /٣٥٤ .

فأبو حنيفة لم يخرج عن قاعدة مالك فالمواد الثلاث الأولى ـ هي : طريقة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، ويتفق أبو حنيفة مع مالك في حرية الأخذ بمن يقتنع بهم ، فكما صرح بذلك أبو حنيفة ـ صرح بمثله مالك فقال : لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله عند هذه الأساطين فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال المسلمين لكان أميناً ـ إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[1] .

فموضوع الأخذ بمن يقتنع به الآخذون ـ اتسع النقاش فيه فلقد جاء في ( الجامع الصغير ) قول ( مجاهد ) وغيره : ليس أحد بعد رسول الله ( ﷺ ) ـ إلا وهو يؤخذ من قوله ويترك ، والمعروف : أن شرف الصحبة ناله كل من شهد النبي ( ﷺ ) ، ومن المعروف : أن الصحابة الذين ذكرهم مؤلفو ( الإصابة ) ، و ( أسد الغابة ) وغيرهما بلغوا آلافاً ، ومن المعروف : أن ليس كل واحد من الصحابة بلغ مستوى الإفتاء[2] . ولقد قال مالك ـ كما تقدم ـ : إنه لم يأخذ من سبعين صحابياً كانوا يروون عن رسول الله ( ﷺ ) ـ لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن . وجاء عن النبي ( ﷺ ) أنه قال لعدي بن حاتم ـ عندما جعل الخيطين في وسادته ليتبين : الخيط الأسود من الخيط الأبيض : [ إنك لعريض القفاء ـ إنما هو الفجر والليل ] !!

ومن المعروف : أن الذين دونوا الحديث وحفظوا ما دونوه في مؤلفات وصل إلينا بعضها ـ لم يكونوا جميعهم في مستوى مالك بن أنس ولم يكونوا جميعهم على رأي مالك ، فمالك كان يعرف مكانة الراوي عن رسول الله ( ﷺ ) العلمية ومبلغ فهمه ، وكان الكثيرون يدونون كل ما ينسب إلى رسول الله ( ﷺ ) بدون تحقيق فامتلأت الكتب بالأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة ، فالمسائل التي لم تنزل في مثلها آية ، ولم يبينها حديث صحيح أو إجماع من الصحابة والتابعين فإنها على رأي الأحناف وغير الأحناف هي من الأمور التي يحق لرجال الفقه أن يجتهدوا فيها .

فمالك وأبو حنيفة والشافعي لا يعارضون : الرأي ـ إجمالاً ، وإنما اختلفوا في بعض التفاصيل .

ر ـ وكذلك الحنابلة على تشددهم ـ وفي مقدمتهم : الإمام المجاهد الذي وقف في وجه ( المأمون ) يعارضه في القول بخلق القرآن ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ لم يخرجوا عن القاعدة التي سبقهم إليها مالك وأبو حنيفة ، فلقد كان الإمام أحمد لا يفتي إلا مستدلاً بآية قرآنية ، فإذا وجدها لا يلتفت إلى غيرها ، وإن لم يجدها بحث عن الحديث الصحيح ، فإن وجده لا يلتفت إلى عمل أو رأي أو قياس أو قول صحابي ، فإذا لم يجده بحث في فتاوى الصحابة التي لا خلاف فيها فإذا لم يجد فتوى ، ووجد اختلافاً بين الصحابة اختار من يقتنع بقوله ، وإذا لم

---

(١) مقدمة طبع الموطأ دار الإحياء نقلا عن الديباج ص ٢١ .

(٢) ويقول ابن قيم الجوزيه : ٣/١٠٤ في إعلام الموقعين في بحثه عن الجديد : إن قول الصحابي في الجديد ليس بحجة : وأن هناك من الأئمة من يحكي للصحابة في الجديد ثم يخالفها .

يجد فيها تقدم شيئاً ـ رجح الحديث المرسل والضعيف على القياس ، فالقياس عنده للضرورة[1] فمن مرحلة اختيار من يقتنع بقوله بدأ الاجتهاد ، فالحنابلة وإن كانوا لا يبدون رأياً بالسهولة التي كان عليها الآخرون فإنهم في آخر الطريق يصلون إلى الاجتهاد والقياس ، فالقياس أمر لابد عنه . وإنما القياس على مراتب ، فهو عند الأحناف في مرتبة لم يصل إليها عند المالكية والشافعية ، وهو في المرتبة الأخيرة عند الحنابلة .

ولقد سار على طريق الإمام أحمد ـ شيوخ مذهبه مثل : ( عبدالعزيز بن جعفر البغدادي ) مؤلف كتاب ( المقنع والشافي ) و ( موفق الدين بن قدامة ) مؤلف كتاب ( المغني ) وشيخ الإسلام ( أحمد تقي الدين بن تيمية الدمشقي ) المشهور بكثرة التأليف و ( محمد بن قيم الجوزيه ) مؤلف كتابه الشهير ( إعلام الموقعين ) .

ولقد مني بعض أعلام الحنابلة بمثل ما مني به إمامهم ـ فكما اضطهد الإمام أحمد بن حنبل ـ اضطهد الإمام ( تقي الدين بن تيمية ) ومات مسجوناً بدمشق . وكما يوجد في بعض المذاهب المتساهلون إلى حد التطرف ـ يوجد كذلك بين رجال الحنابلة متطرفون مثل ( الطوفي ) وأتباعه .

ش ـ فالتشريع الإسلامي في تاريخه الطويل يؤيد العدل ولا يجيز الاستغلال والكسب غير المشروع ولا تأخذ رجاله المعتدلين ـ الخيلاء ، ولا يصل إليهم التعصب . والتشريع الإسلامي لم يقف في وجه التطور ، ولم يكن عقبة في طريق التقدم في كل العصور الإسلامية !! فلقد صهر كل جديد في بوتقته ثم شكله على الصورة التي تتفق مع الشريعة الإسلامية ، والتشريع الإسلامي منذ عصور الفتوح الإسلامية أخذ يقنن للأشياء بما يفيد المجتمع ، والمشرعون في كل جيل يختارون الأسهل إذا لم يكن فيه ضرر على الصالح العام ، ولا يتأخرون عن حل قيود من الممكن حلها .

ت ـ ومن الجدير بالذكر : ما جاء في مقال ( جريشة ) الذي نشرته مجلة الجامعة الإسلامية في عددها الثالث من السنة العاشرة عدد ذي الحجة سنة ١٣٩٧ والذي يقول فيه ـ نقلاً عن مصادره : [ وقد سبق لدى العلماء من تتبع أحكام الشرع واستقرائها أنها تحقق مصالح خمساً ، وتحافظ عليها . والمصالح الخمس هي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل ، والمال . والمصلحة : إما أن تكون معتبرة ـ وهي التي يؤكدها نص شرعي ، وإما أن تكون ملغاة ـ وتلك التي يلغيها نص شرعي . والثالثة : المصلحة المرسلة ـ أخذ بها الإمام مالك والإمام أحمد والإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي . والمصلحة المرسلة تقيدها شروط ـ منها : أولاً ـ أن لا تصادم نصوصاً ولا إجماعاً ، فالنص والإجماع يلغيانها . ثانياً ـ أن تحقق أحد المصالح الخمس . ثالثاً ـ أن تكون المصلحة عامة لأن الأحكام الشرعية لا توضع لفرد أو لبعض ، وإنما هي للناس عامة ] .

---

(١) إعلام الموقعين ١ /٢٢ و ٣ /٥٠ .

وعلق جريشة على حجج الذين رفضوا المصلحة ـ بقوله : إن المصلحة لون من القياس على روح النصوص في مقاصدها ومعناها وليس في عبارتها ومبناها ـ عبارة وحرفاً . وعلق على القول الذي نسب إلى الإمام مالك : إن المصلحة تخصص عام القرآن وتقيد مطلقه ـ كما جاء في أصول الفقه للاستاذ ( محمد أبي زهرة ) الذي علق بقوله : ليس في أصول الإمام وفقهه ما يؤيد ذلك .

ويقول عن الذين أطلقوا للمصلحة العنان ـ ويضع في مقدمة هؤلاء ( نجم الدين الطوفي الحنبلي ) ـ [ وهؤلاء يعتقدون : أن الصحابة قدموا المصلحة على النص ، وهذا الاعتقاد يحتاج إلى دليل لا وجود له إلا في مخيلة الطوفي والذين اتبعوه ] .

إن من يتتبع تاريخ التشريع الإسلامي وآراء المشرعين في مختلف العصور الإسلامية ـ لا يجد واحداً يترك اليسر إلى العسر ، ولا يجد واحداً يبطل مصلحة على أساس تجنب الشبهات ، فالشبهات لها حدود ، فالذي يوجب عدم التحول عن النص مطابقته المسألة ، وكذلك من الضروري للتقيد بالإجماع : أن ينطبق حكمه على غيره فهل لواحد من المشرعين أن يبطل حكماً شرعياً حكم به عمر بن الخطاب بغير نص يعتمد عليه . فلقد اعتبر عمر بن الخطاب : القرض قراضاً في قصة ابنيه مع أبي موسى الأشعري ـ لأن أبا موسى اقترح على ابني عمر : أن يتاجرا بالمال فبذلك تحررت السلفة من شروط القرض التي تنص على أن لا يزيد القرض ولا ينقص .

إن البحث بعد أن استعرض تاريخ التشريع ومراحله ، ونوه بالمذاهب وأئمتها ، وبالاجتهاد وضرورته ـ تساءل عما يستفاد من حكم ابن الخطاب في قضية قرض ابنيه !! وعلق على هذا التساؤل وعلى كل ما استعرضه في الفصول الآتية ، وترك الجواب للمختصين ممن هم في مستوى الاجتهاد والإفتاء داخل المؤتمر وخارجه .

❋ ❋ ❋

# الفصل الخامس

## من كتاب « الثقافة العربية وحواضرها »

## نهاية المطاف

إن الثقافة موضوع واسع : سعة التاريخ ، ومتنوع : تنوع الفنون التي تعلمها الإنسان ، لذلك من النادر جداً أن تجد بحثاً وفي الثقافة حقها ، مع أن الكثيرين ممن كتبوا في الثقافة بصورة عامة أو الذين اقتصروا على جانب من جوانبها ـ يظنون أنهم استوعبوا كل ما تعنيه كلمة الثقافة أصلاً وفروعا ، ولعلي أنا واحد من هذا الكثير ، فأنا عندما انتقلت من البحث في الثقافة في مراكزها ظننت أنني استوعبت موضوع الثقافة في كل جانب من جوانبه ولكن هيهات ، إني عندما أعدت النظر فيما كتبته وجدت ما ينقص بحث الثقافة شيء كثير ، وأن ما كتبته يعتبر عجالة مقل .

إن الثقافة تعني كل ما علمه الله للإنسان ، وما أكثر ما علمه الإنسان وما أكثر الذي على الإنسان أن يعلمه ، ما أكثر ما علمه الإنسان في آلاف السنين التي عاشها . وما أكثر الذي ضاع مما علمه الإنسان في تلك السنين ، وما أكثر الذي دفن في ظلام الأركان التي عشعش عليها النسيان .

فللثقافة تاريخ يكاد يكون من المستحيل الوصول إلى جميع أبعاده ، فالقريب من أبعاد الدهور التي مرت على الأجيال تراكمت عليه الآلاف من السنين ، فأقرب الأبعاد التي تعتبر بداية التاريخ الثقافي تتمثل في قيام المجتمع الإنساني . وما أبعد المسافة بيننا وبين بداية تاريخ الإنسان .

والحياة الاجتماعية فرضها حب البقاء ، وفي سبيل البقاء قام صراع بين الخير والشر ، ولم ينتصر الخير على الشر في المجتمع إلا بمعرفة الله المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، فالخوف من الله التفاني في رضاه هو الذي يعصم الكثير في خلواتهم عن الآثام والشرور ويدفعهم للبر والإحسان ، فمعرفة الله هي أساس الأديان التي نادى بها الرسل ، والأديان التي دعا إليها الرسل فرضت الشرائع ، والشرائع دفعت الإنسان إلى أن يفكر في سر تشريعها وفلسفة أحكامها ، وعندما بدأ الإنسان يفكر تحركت عجلة الثقافة في الطريق الطويل .

وعدد الأديان التي رفعت الشعلة يساوي عدد الرسل ، وعدد الرسل يساوي عدد الأمم التي خلقها الله ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ فكم أمة خلقها الله على سطح هذه الأرض ؟؟

والذي وصل إلينا من شرائع الأديان ـ وصل محرفا بفلسفة تعلقت بها بعض العقليات التي تفرقت بالأمة الإسلامية فرقا وطرقا ، ومن تلاحم الشرائع وفلسفاتها أخذ المجال الثقافي يتسع ، والبحث عندما تعرض للثقافة العربية في الجاهلية اقتنع أولا بوجود ثقافة عربية في عصور ما قبل الإسلام ـ واقتنع ثانيا بفقد تلك الثقافة التي أضاعها العرب في عصورهم المظلمة التي سبقت الإسلام ـ مع صحف إبراهيم ونظم إسماعيل وشريعة هود وصالح .

ولذا كان الإسلام مصباح ثقافة عربية إسلامية ؛ دعاماتها القرآن الذي بدىء بالأمر الإلهي : ﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ ـ فلتثقيف العقل الذي بلغ أشده ، أمر الله الناس أن يقرأوا وأن يتدبروا وأن يسيروا في الأرض ليزدادوا علما وحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا .

فالقرآن لم يستجب للسذج الذين لا يقتنعون إلا بالخوارق بل خاطب العقول وتحداها بما تقتنع به العقول ـ تحداها أن تعبث بالقرآن الذي وعد الله بحفظه ، وتحداها أن تأتي بسورة من مثله مؤكدا : أن بلاغة القرآن وبيانه شيء فوق قدرة مواهب الإنسان مهما تألقت .

فالقرآن هو آية الإسلام وأصل ثقافته ، فما زخرت به الثقافة الإسلامية من حديث نبوي وأثر صحابي ، وما انبثق منهما من تشريع بين العبادات وخطط التفاصيل ، كل ذلك فروع لأصل واحد ـ هو القرآن الكريم ، وكل فرع من هذه الفروع صار أرومة لبحوث عقائدية ومذاهب فقهية أسسها الرواد .

والريادة الثقافية من أخطر المسئوليات «والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، فواحدة في الجنة ، ـ وفي رواية ـ الهالك منها واحدة» ، ويقول المحققون في الثقافة الإسلامية : إن كل طائفة من الفرق انقسمت إلى عديد من الطرق ، ولكل فرقة وجهة ومنتحى نشأت منها المتناقضات من المعضلات الفكرية ، فمن العقليات : عقليات متصلبة قبعت في أقصى اليمين منصرفة عن الأسهل اليسير ، وتبعة هذا التصلب ملقاة على الذين أوكلت لهم الدولة ـ وأوكل لهم المجتمع تقويم الفكر الناشىء باعتدال واتزان ومرونة لينطلق معتدلا إلى العمل الخيّر البناء ، ومن العقليات عقول متطرفة في أقصى اليسار لا تعترف بالواجبات والحقوق التي تضع كل إنسان رجلاً كان أو امرأة فقيرا كان أم غنيا في إطار يحميه من غيره ويحمي غيره منه ـ وهذا التطرف ملقاة تبعته على المسئولين عن العقل الاجتماعي .

إن عقيدة الإسلام قامت على قاعدة وسط لا يمينية مترهبنة ولا يسارية غير مقيدة ، فلِكَمْ أثار شطط الجامدين المشددين وجموح المتطرفين والمستهترين : بلبلة لم تكن حجر عثرة في طريق المسيرة الثقافية فحسب بل كانت معولا أزال في كثير من الأرض الإسلامية : معالم الطريق المستقيم .

ومن القضايا التي خططها القرآن : سياسة الدولة الإسلامية ، وماجاء في القرآن عن السياسة والإدارة يدحض زعم القائلين : إن الدين الإسلامي لا دخل له في السياسة . فالأصوات التي تنادي بفصل الدين عن السياسة ماهي إلا ترجيع لمزاعم أعداء الإسلام ، حقاً إن للسياسة رجالها في الدولة الإسلامية ، وللقضاء رجاله ، ولكن كل من رجال السياسة والقضاء يستمد تشريعه من القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع الصحابي .

فالكيان الإسلامي قام على قاعدة القرآن ، والقرآن هو التنزيل الوحيد المحفوظ الذي شرّع للعبادة وخطط للسياسة ، أما المشرع سواء كان نبيا مرسلا أو مصلحا ملهما فليس بخالد ، ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم﴾ ـ فالقرآن هو وحده الباقي للمسلمين ، تعهد الله بحفظه ، فهو وحده الخالد الصالح لكل عصر وجيل .

ولقد وجد أعداء الإسلام منفذا واسعا لمطاعنهم من خلال الأحاديث الموضوعة التي عبثت بالعقلية الثقافية والسياسية ، وأكثر الأحاديث الموضوعة هي الأحاديث السياسية التي وضعها أنصار العلويين والتي وضعها أنصار الأمويين ، ثم الأحاديث التي يضعها شيوخ الطرق ، ولعل كثرة ما رواه بعض الصحابة عن النبي ﷺ مثل : أبي هريرة ـ هو الذي أتاح للواضعين : وضع الأحاديث وإسنادها إلى الصحابة المكثرين من رواية الحديث .

ومن حسن حظ العقلية الإسلامية : أن غالبية المسلمين اقتنعت بالمذاهب الأربعة ـ المالكي والحنفي والشافعي والحنبلي ، ولو لم تقتنع الأكثرية بأئمة هذه المذاهب ـ لحدث للجمهور ماحدث للشيعة من كثرة الفرق ، وما ترتب على تلك الكثرة .

والمؤلفات التي وضعت في المذاهب الإسلامية والتشريعات هي ولا شك ثروة ثقافية ملأت المكتبة الإسلامية . فبحوث المؤلفات الفقهية وما فيها من اختلاف المذاهب في بعض المسائل ليس موضوع اختلافها على نحو ما اختلف عليه القدرية مع الاختيارية ، فاختلاف الفرق شائك وخطر ، أما اختلاف المذاهب الفقهية فهو تسهيل ورحمة كما جاء في المثل العام «اختلافهم رحمة» !

وتشريع المذاهب التعاملي يحتاج اليوم إلى من يضيف إليه تشريعات لما استجد في القرن الرابع عشر ، فإذا كان الأحناف بالأمس عالجوا في (الفقه الكبير) ستين ألف مسألة لمجتمع مابعد الفتوح الإسلامية ، فإن على المسئولين اليوم عن التشريع أن يعالجوا مئة ألف مسألة ومسألة لمجتمع ما بعد التضخم ، وإذا كان لرواد اليوم أن يضيفوا للتراث الثقافي جديدا ، فإن من أهم ما يجب أن يضاف إليه ـ تشريعا يعالج مشكلات التحليل والتحريم اللذين تكيلهما ؛ المجلات والندوات الإذاعية جزافا ، فإذا لم تجد العامة تشريعا إسلاميا دقيقا عميقا ومتزنا فيما يحله وفيما يحرمه فلسوف تأخذ الأجيال بالقوانين المستوردة تخلصا من تضارب الفتاوى التي يحرم بعضها ما يحلله البعض الآخر وفي هذا مافيه .

فللريادة الثقافية مسئوليات ضخمة ، وعليها تبعات خطيرة ، ففي مكتبة اليوم مئات المؤلفات التي تصادمت فيها إزاء الفرق الإسلامية ، فنشأ عن صدامها : الجمود والتطرف اللذان نكتشفهما اليوم فيما نقرأه ونسمعه ونشاهده ، فمن العقليات الثقافية عقليات متصلبة تحارب كل جديد على أنه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار ، ومنها عقليات متوثبة لا تستقر تحاول البعد عن كل قديم لأنه قديم .

فمسئولية الرواد اليوم القضاء على المتناقضات بالحرص على تقديم ثقافة إسلامية أصيلة مبرأة من الجمود والتطرف ، يقتنع بها القرّاء والمستمعون والمشاهدون الذين ضاقوا ذرعا بالجمود كما ضاقوا ذرعاً بالتطرف ، فإذا لم يتدارك الرواد الذين ألقت الدول والمجتمعات على عاتقهم عبء التوجيه الفكري ، فإن النتيجة التي لا مفر منها سوف تكون انصراف الجماهير عن الثقافة الإسلامية باعتبارها متناقضات لا أول لها ولا آخر .

فمن الصواب والخطأ تألف التراث الثقافي ، فالحياة لا يمكن أن تكون على ماهي عليه لو تساوت المدارك والفهوم ، فلو لم يكن فيها صواب وخطأ وعمق وسطحية وأناة وتسرع ، وقوة وضعف ، وعدل وظلم ، وسلم وحرب ، إلى آخر المتناقضات التي تزدحم بها الحياة - لما احتاج الناس إلى دولة ولا إلى تشريع ولا إلى ثقافة يستفيد بها الذي لا يدري من الذي يدري .

فمن بين متناقضات الحياة ارتفع مشعل الاعتدال ، وإن كان المعتدلون الذين لا يخضعون ضميرهم لإرضاء من يطمعون في نوالهم فيحرمون في مكان ما يحللونه في مكان آخر . إن كان هؤلاء المعتدلون قليلين جداً في كل زمان ومكان إلا أن لكلمة الواحد منهم أثرها الكبير في العقلية الثقافية ، فالكثير من الجماهير يميز الغث من السمين .

فللثقافة الإسلامية أصل واحد هو القرآن الكريم ومن القرآن تفرع الحديث والإجماع فشرعت الفروض والواجبات والسنن ، فلقد قال النبي ﷺ : تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنة نبيه .

وفروع الثقافة التي نمت حول الأصل صارت أصولا لفروع ترويها روافد أقبلت من الشرق ومن الشمال ، وهذه الفروع والرافد هي ماتحصل عليه الرواد من المد السياسي ، فلقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية وكثرت العناصر التي اختلط بعضها ببعض تحت راية الإسلام ، اختلطت بثقافتها ومفاهيمها وتقاليدها ، ولقد رفع المسئولون عن الإسلام والمسلمين الحظر عن الاطلاع على ثقافات أمم الماضي وعن تدوين المعارف بعد أن رسخت العقيدة في صدور المسلمين فكما تلاقت الأعراف والطباع تلاقت العقول والمفاهيم ، فللعرب ثقافتهم اللغوية والأدبية وما احتفظوا به من ثقافتهم المفقودة من علوم الجغرافيا وتربية المواشي والطب وعلم الفلك وغير ذلك مما تكلم عنه (الالوسي) في كتابه بلوغ الأرب ، ولغير العرب ثقافات تاريخية وجغرافية وطبية وغير ذلك مما عربه رواد الثقافة وما زالوا ينقلونه إلى العربية .

فمما يظهر لكل باحث : التداخل الثقافي ، فلكل أمة ثقافة اختلطت بغيرها من الثقافات التي سبقتها أو عاصرتها أو أتت بعدها ، فلئن أزال الساميون العرب : دولة السومور يين من بلاد ما بين النهرين ، فالثقافة السومورية التي استوطنت العراق لم تمح من على أرض العراق . فلقد اختلطت بها معارف الكلدانيين فكان لها أثرها في العقلية الكلدانية كما وجدت الثقافة الكلدانية الطريق إلى العقلية اليهودية التي هاجرت إلى العراق وهكذا دواليك .

ولم تكن الروافد التي خالطت نبع الثقافة الإسلامية كلها عذبة نقية ، فلقد حملت بعض الروافد معها شوائب وزبدا شغلا أقلام الرواد تحقيقا وتفنيدا وما أكثر ما حمله فيضان اليوم الثقافي إلى المشرق الإسلامي .

فمن مغالطة الواقع : إن ذهب البحث مع القائلين بأن الثقافة الإسلامية في العصر الحاضر تفوق المعارف الغربية ، ومن مغالطة الحقائق أيضا إن قال البحث مع القائلين : إن العقلية الغربية فيما وراء المادة أفضل من العقلية الإسلامية ، فالغربيون أنفسهم يشعرون بعدم التوازن الفكري عندما يرتفعون عن المادة .

ومع هذه الحقيقة التي يرددها الكثيرون ، نرى آراء غربية تغزو اليوم العقلية الإسلامية من الشرق ومن الغرب ، ومن أخطر هذه الآراء الغازية : التشكيك في أصول الثقافة الإسلامية وفي بناتها على مختلف مستوياتهم ، فلقد أخذت هذه الآراء تصعد التشكيك إلى الرسل ورسالاتهم كما رأيناه واضحا فيما كتبه طه حسين وغير طه حسين من الذين شغفوا بالفكر المستشرقي . ، فما أحوج ثقافتنا لرعاية رواد معتدلين في قدرتهم تصفية ما يحمله الطوفان إلى أرضنا الإسلامية .

لقد أعطى الرواد وأخذوا من قافلة الثقافة عندما وصلت إلى أرضهم في العصر الإسلامي ، ولقد كان للأخذ والعطاء منافعه ومضاره ، واليوم وقد عادت القافلة من الغرب محملة بمعارف الحضارة الحديثة ـ ماهو الذي نأخذه منها ؟؟ وماهو الذي نعطيه لها ؟؟ .

حتى الأدب والشعر ـ ماذا نأخذه من القافلة ـ وماذا نعطيه لها ؟؟ لا يجهل البحث أن المواهب الأدبية شعراً ونثراً لا تكتسب من المدرسة ، ففي صحراء شبه الجزيرة العربية الجرداء وبين جبالها السود الصامتة انبعثت مواهب أدبية رائعة ، فامرؤ القيس ، والنابغة ـ لم يتعلما الشعر في مدارس وجامعات كالتي نعرفها اليوم ، وقس بن ساعدة ، وسحبان وائل لم يتعلما الفلسفة والخطابة في أكاديميات اليونان .

إننا أخذنا من القافلة أفكار وأساليب شكسبير الانجليزي وفولتير الفرنسي ، وتمركس فكرنا الاقتصادي في بعض البلاد ، وحافظ في بعضها على شريعتنا الاقتصادية ، لقد انتقل إلينا من المهجر الشعر المنثور الذي أصبح في صراع مع القصيدة العامودية المقفاة العربية

الأصيلة في عروبتها ، فهل أعطينا قافلة اليوم شيئا ؟؟ لقد قلبنا ظهر المجن لأكثر التراث حتى الشعر فقد أدار الكثيرون ظهورهم للقصيدة العربية متوجهين الى الشعر المنثور .

كذلك اللغة ماذا أعطينا منها ؟ . إننا أخذنا الكثير من اللغات الغربية لا سيما اللغة الانجليزية حتى لتوشك أن تكون هي اللغة التي يتخاطب بها المثقفون ، وأقصد بالمثقفين خريجي الجامعات ، وأكثر هؤلاء تمسكا بالانجليزية هم الذين درسوا في أمريكا وبريطانيا لأنهم لم يجدوا في اللغة العربية البديل لكثير من الأسماء والمصطلحات .

صحيح لقد أصبحت المحافظة على اللغة العربية وتعريب الكثير من الأسماء والمصطلحات في كل نوع من أنواع الثقافة ـ السياسية والأدبية والطبية والهندسية بكل فروعها يستدعي : جهدا جماعيا تدعمه الدول بأكثر مما تدعم به المجامع اللغوية القائمة في بعض الحواضر العربية ، ولكن هل يكفي هذا الجهد قصير الأبعاد لسد حاجة اللغة العربية ؟؟

إن مما يعيرنا به المستشرقون : العقلية التاريخية التي تأثرت بأهل الكتاب ، فلقد كان للقدامى ثقة كبيرة فيما يسمعونه منهم لاسيما المفسرون عندما يفسرون قصص الأنبياء ، فالخرافة التي دخلت على الثقافة التاريخية عن طريق أهل الكتاب فتحت للمستشرقين باب النقد الذي لا يمكننا أن نقفله .

فهل يوفق الذين يؤرخون القرن الرابع عشر الهجري إلى تأليف تاريخ صحيح يضع الأحداث في مواضعها وعلى حقيقتها ؟؟ انه سؤال لا يجيب عليه إلا أبناء القرون المقبلة .

ولقد وفق العرب في الجغرافيا كما يشهد بذلك (سيديو) الذي يقول : ويعني العرب في عهد الخلفاء الراشدين العباسيين الأولين بدراسة العلوم الصحيحة وهم إن أخذوا عن بطليموس بعض نظرياته ، ولا يرتضون مبادئه من غير تمحيص .

والريادة في أصول الثقافة وفروعها لم تكن في وقت من الأوقات وقفاً على العرب وعلى اللغة العربية فالعرب وإن كانوا هم واضعي أسس الثقافة الإسلامية ـ فإنهم لم يكونوا وحدهم : البناة ، واللغة العربية وإن كانت أساسا للثقافة الإسلامية ـ فإنها ليست هي وحدها اللغة التي درست بها الثقافة الإسلامية فليست جميعها عربية لغة وعنصرا ، فمثلما امتلأت المكتبات الإسلامية بمؤلفات عربية ، امتلأت كذلك بمؤلفات غير عربية وضعت في أصول الثقافة وفروعها .

ومن الثقافة الحية في البلاد الإسلامية فنون اختلفت وجهات الرأي فيها ومن هذه الفنون الغناء : ففريق يرفضه وفريق يرحب به ، والذين يرفضونه يكرهونه عن حسن نية والذين يرحبون به يميلون إليه عن حسن نية أيضاً . وفن الغناء جاهلي لم يشجبه الإسلام ، فلقد تحدثت كتب السيرة النبوية عن النساء المغنيات المسلمات اللائي خرجن يستقبلن رسول الله ﷺ بدفوفهن ويغنين : طلع البدر علينا . .

ولقد استمع إلى غناء جواري المدينة بعض الصحابة ، ولقد زار : عزة الميلاء (النعمان بن بشير الأنصاري) ، وسمعها ـ (حسان بن ثابت) ، ولقد بلغ الغناء في العهد العباسي أن احترفه أبناء الأسر المعروفة في مجتمع بغداد ، واستهوى إبراهيم المهدي ابن الخليفة وأخا الخليفة وعم الخليفة .

في مقدمة هذه الكلمة اعترفت أن هذا المؤلف : الثقافة الإسلامية وحواضرها ـ لم يذكر من تاريخ الثقافة وجوانبها غير قليل من كثير ، ولا أخال الشطر الثاني من البحث ـ ألا وهو حواضر الثقافة : يتسع للحديث عن كل حاضرة ثقافية ـ ويتسع لأن يستوعب تاريخ أمهات الحواضر الثقافية الجاهلي والإسلامي مثل المدينة المنورة ومكة المكرمة في الحجاز ، والبصرة والكوفة وبغداد في العراق ، ونيسابور وبخارى في المشرق الإسلامي ، والقسطنطينية وصقلية في الشمال الإسلامي ، والقاهرة والقيروان والزيتونة والقرويين وتلمسان وغرناطة في المغرب الإسلامي ـ لاسيما في هذه الخلاصة التي حررت تحت عنوان نهاية المطاف .

إن المركز الثقافي في العالم الإسلامي : هو ـ الجامع . فكل مدينة من المدن الإسلامية فيها جوامع منها ما يعرف بالجامع الكبير وهو الذي تقام فيه الجمع ويتلقى الناس في أروقته العلم والإرشاد ، فالجامع مصلى وجامعة ولكن ليس كل جامع يعتبر جامعة فالجوامع التي اشتهرت بنشر الثقافة كثيرة ـ بيد أن التي تعني البحث منها هي الجوامع التي جعلت من مدنها : حواضر ثقافية .

وأول جامع في الإسلام هو المسجد النبوي ـ وإن كان جامع قبا وجامع الجمعة في المدينة سبقاه حيث صلى فيهما النبي ﷺ قبل أن يصل إلى مسجده ، فإن المسجد النبوي هو مدرسة الإسلام الأولى فمنه انطلقت الثقافة الإسلامية إلى مكة المكرمة ، وإلى مساجد الكوفة ومربد البصرة وإلى جامع عمرو بن العاص والقيروان ، وإلى فارس ونيسابور وبخارى .

فهذه الجوامع هي المدارس الأولى ثم يأتي بعدها جامع بغداد والزيتونة والقرويين وتلمسان وجامع غرناطة ومدارس الأندلس وتأتي في المشرق جوامع نيسابور ومدارسها وجامع بخارى ومدارسها ، فلقد سبق الشرق إلى المدارس كما سبق بلاط ملوكه وأمرائه بلاط ملوك الغرب وأمرائه .

ومن تكرار مالا لزوم لتكراره إعادة ما تحدثنا به مفصلا في بحوث هذا الكتاب عن حواضر الثقافة الإسلامية الكبرى : المدينة المنورة ، مكة المكرمة ، البصرة ، الكوفة ، بغداد ، القاهرة ، القيروان ، الزيتونة ، القرويين ، تلمسان ، في شمال أفريقيا ، والأندلس في جنوب أوروبا ، ونيسابور في خراسان ، وبخارى فيما وراء النهر .

وكل حاضرة من هذه الحواضر لم ترق لمستوى حاضرة الإسلام الأولى ـ المدينة المنورة في حياة النبي ﷺ وأيام أبي بكر وعمر إلى نهاية العهد الأموي والعباسي ـ فدمشق لم تزاحم المدينة المنورة كما زاحمت بغداد : دمشق ، ولقد برزت مبكرة مدارس مكة المكرمة حيث انتقل

إليها الكثيرون من أعلام المدينة الذين نبغوا فيها ، كما برزت البصرة والكوفة في العهد الأموي ، فالمدنيون هم الذين وضعوا أساس الثقافة الإسلامية بلا مراء ـ ولقد اختلف كثيرا أساتذة مدرسة الحجاز وفي مقدمتهم المدنيون مع أساتذة العراق وفي مقدمتهم البغداديون ، في الاتجاه الذي يسير فيه التشريع الإسلامي ، فالحجازيون تمسكوا بالعلم ، والعلم اصطلاح يعني : القرآن والحديث وعمل الصحابة . وأهل العراق أعطوا أنفسهم حق الرأي ، والرأي اصطلاح يرمز إلى كثير من الاصطلاحات : الاجتهاد والقياس والاستحسان والاستنباط ـ وفي موضوع العلم ـ لقد تحدث جم غفير من المحققين في التشريع الإسلامي في هاتين الوجهتين ، وفي المسائل المختلف فيها .

ومما لا مراء فيه أن البصريين والكوفيين خدموا اللغة العربية قواعدها وأدبها وكلماتها ـ كما خدم الخراسانيون وأعلام ما وراء النهر : الحديث ، فأصح كتب الحديث الصحيحان : البخاري ومسلم ـ وإذا كان لبغداد ما تفخر به فيكفيها فخرا أنها المدرسة التي أخرجت الإمامين الشافعي والحنبلي .

ومع أن الإمام مالك إمام دار الهجرة فإن الذين خدموا مذهبه ليسوا هم سكان دار الهجرة ، بل إن الذين خدموا المذهب المالكي هم أساتذة القيروان والقرويين ـ والأندلس .

والحواضر التي احتفظت بمكانتها العلمية إلى اليوم هي : المدينة المنورة ، مكة المكرمة ، القاهرة : فلقد خلف جامع الأزهر : جامع عمرو بن العاص حفظ لمصر موقفها في المسيرة الثقافية مع الزيتونة ، والقرويين والقيروان .

ونحن عندما نكبر لهذه الحواضر : إنتاجها الثقافي ـ نجحد غيرها من الحواضر الإسلامية التي أنتجت للثقافة رجالا وأفكارا يعتد بهم وبها . ولكن الذي لا خلاف فيه وجود تلك الفوارق التي حدثت بين الحرم المدني والحرم المكي ، وبين جامع عمرو وجامع الزيتونة والقرويين وبين الجامع الأموي في دمشق وجامع المنصور وغيرهما ، وإن تلك الفوارق ظهرت واضحة في القرن الرابع عشر من الهجرة بيد أن تبيانها يخرج البحث عن المخطط المرسوم له . ولقد سبق الحديث فيما تقدم من فصول ـ عن الحواضر التي لا تزال مراكز للثقافة ، وعن الحواضر التي دكتها أحداث اجتاحت مراكز الثقافة .

والآن يمكننا أن نقول : إن أمهات حواضر الثقافة في التاريخ الإسلامي هي : المدينة المنورة ومكة المكرمة في الحجاز ثم الكوفة والبصرة وبغداد في العراق ونيسابور وبخارى في المشرق ، والقاهرة والقيروان والزيتونة والقرويين في أفريقيا ـ والأندلس في أوروبا . وإن التي لا تزال محافظة على ريادتها ـ هي : المدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد ودمشق والقاهرة والزيتونة والقيروان والقرويين .

وإن بعض أمهات الحواضر الثقافية التي تحدثنا عنها وعن ماضيها الذي أضاء تاريخ الثقافة الإسلامية : حواضر برزت في عالم الثقافة بروزا نادر المثيل ، وفي طليعة هاته

الحواضر ـ الرياض التي تفخر اليوم بجامعاتها وكلياتها : بجامعة الإمام محمد بن سعود ، وبالكليات الشرعية بجامعة الرياض وبكلياتها المتفرعة عنها والقائمة بذاتها وبمعاهدها الصناعية والمدارس الثانوية ، وتعتز اليوم الرياض بمكتبات علمية نادرة المثيل ، وبمجلات أغدقت عليها الدولة أكثر من الكثير .

وهناك حواضر بعثت ما دفنته مئات القرون ـ مثل : الظهـران وحواضر الخليـج الإسلامي .

وفي مقدمة الذي يحمده المسلمون للدولة السعودية عنايتها بالثقافة الإسلامية في مهدها الأول ـ المدينة المنورة ومكة المكرمة ـ ففي المدينة الجامعة الإسلامية وعدد من الكليات الشرعية ، وفي مكة المكرمة رابطة العالم الإسلامي وعدد من الكليات الشرعية وقد بدىء بتأسيس جامعة إسلامية في مكة ـ هذا عدا جامعة الملك عبدالعزيز في جدة وعدا المعاهد الصناعية والمدارس الثانوية والمدارس التي تمد المداس الثانوية بالطلبة : المدارس الابتدائية والإعدادية .

وإنه لجدير بهذه الخلاصة : أن نختمها بلمحة نلقيها على النهضة الثقافية في المملكة العربية السعودية .

مع العلم بأن اللمحة لا تكفي لاكتشاف أبعاد النهضة الثقافية في المملكة العربية السعودية الواسعة المدى ، فمما لا يشك فيه البحث : أن المملكة العربية تعيش نهضة ثقافية لم يسبق للشرق الأوسط أن شهد مثلها في جزيرة العرب فيها بعد القرن الخامس الهجري ، ومن الواضح أن تقصي النهوض الثقافي الراهن في قلب الجزيرة العربية . لا يمكن أن يطالب به بحث مختصر ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

* * *

# الباب الرابع

## معلومات بيبلوجرافية

- الاسم الرباعي : أمين عبدالله حمزة مدني
- لقب العائلة : مدني
- تاريخ الميلاد : ١٣٢٩هـ
- جهة الميلاد : المدينة المنورة
- عدد الأبناء : خمسة أبناء

## ● حياته العلمية :

تلقى أمين مدني دروسه الابتدائية في مدارس المدينة المنورة ، ثم انتقل إلى الحرم النبوي حيث تلقى العلوم على أساتذة أفاضل ؛ منهم : الشيخ محمد الطيب الأنصاري ، والسيد أحمد فيضبادي ، والشيخ إبراهيم بري . وبعد ذلك أصبحت القراءة والبحث والتحقيق والسفر والتثقيف الذاتي طريقه ومؤهله العلمي ، شأنه في ذلك شأن ذلك الرعيل من الرواد المؤسسين لنهضة الجزيرة العربية الثقافية في عصرها الحديث .

## ● الأعمال الرسمية :

| العمل | عنوانه | التاريخ من | التاريخ الى | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|
| معاون كاتب مجلس الادارة | امارة المدينة المنورة | ١٣٥١هـ | ١٣٥٣هـ | |
| مدير مصنع الغزل والنسيج | المدينة المنورة | ١٣٥٥هـ | ١٣٥٩هـ | |
| مفتش مالي درجة اولى | وزارة المالية ، مكة المكرمة | ١٣٦٠هـ | ١٣٦٨هـ | |
| رئيس بلدية المدينة | المدينة المنورة | ١٣٦٩هـ | ١٣٧٥هـ | |
| عضو المجلس الاداري | المدينة المنورة | ١٣٧٦هـ | ١٣٧٧هـ | حاز على اكثر الاصوات في الانتخابات التي اجريت لاختيار اعضاء المجلس آنذاك |

## ● مؤلفاته :

| عنوان الكتاب | موضوعه | عدد الاجزاء | الناشر | تاريخ النشر | ملاحظات |
|---|---|---|---|---|---|
| ١ ـ التاريخ العربي وبدايته | التراث التاريخي العربي قبل الاسلام | واحد | دار المعارف تهامة | ١٣٨٥ هـ<br>١٤٠١ هـ | الطبعة الاولى<br>الطبعة الثانية |
| ٢ ـ التاريخ العربي ومصادره | مصادر التاريخ العربي في القرآن والمراجع القديمة | واحد | دار المعارف الهيئة المصرية | ١٣٩١هـ | |
| ٣ ـ التاريخ العربي وجغرافيته | حقيقة جغرافية الجزيرة العربية ودولها عبر التاريخ | واحد | العامة للكتاب | ١٣٩٦هـ<br>١٤١٤هـ | الطبعة الاولى<br>الطبعة الثانية |
| ٤ ـ الاستثمار المصرفي وشركات المساهمة في التشريع الاسلامي | موقف التشريع الاسلامي من المصارف وشركات المساهمة | واحد | مطبعة الحضارة العربية<br>الدار السعودية<br>الدار السعودية | ١٣٩٨هـ<br>١٤٠٠هـ<br>١٤٠٤هـ | الطبعة الاولى<br>الطبعة الثانية<br>الطبعة الثالثة |
| ٥ ـ الثقافة الاسلامية وحواضرها | روافد الثقافة الاسلامية | واحد | الهيئة المصرية العامة للكتاب | ١٤٠٠هـ | |

## ● كتب معدة للطبع :

| عنوان الكتاب | عدد الاجزاء | موضوعــه | ملاحظات |
|---|---|---|---|
| ١ ـ التاريخ العربي وشعوبه | واحد | حقيقة انساب واسماء القبائل العربية والهجرات وعواملها والأسماء التى جاءت في المصادر الاشورية واليونانية | يمثل هذا الكتاب الحلقة الرابعة من موسوعة العرب في أحقاب التاريخ |
| ٢ ـ التاريخ العربي ودوله | واحد | دول الاراميين في العراق وسورية ، والعماليق في مصر ودول قلب الجزيرة وجنوبها وصلاتها بعالم ذلك الزمن | يمثل هذا الكتاب الحلقة الخامسة من الموسوعة المذكورة |
| ٣ ـ احداث المدينة المنورة في ستين عاما | واحد | مجتمع المدينة وتاريخها في عهود ثلاثة : التركي والهاشمى والسعودي الظافر | |
| ٤ ـ رحلة الهند | واحد | رحلة في الهند وافغانستان وبورما قبل اربعين عاما | |
| ٥ ـ رحلة تهامة | واحد | تهامة عسير قبل خمسة وثلاثين عاما | |
| ٦ ـ دراسات نحوية | واحد | بحوث في اللغة العربية وقواعدها | |

## ● البحوث والدراسات :

أعد أمين مدني عدداً كبيراً من البحوث والدراسات التاريخية والاجتماعية والسياسية التي نشرت في المجلات والصحف السعودية منذ الخمسينات ، أي على مدى خمسين عاما أو يزيد ، مما يجعل من عملية حصرها ووضع قائمة بها أمراً يحتاج إلى وقت طويل .

وهي بحوث ودراسات بدأت ببحث نشر في أول عدد من جريدة « المدينة » حول « الصحافة » وقد أمسى ذلك المقال مرجعاً رجع إليه معالي الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله عندما كتب عن الصحافة ، ورجع إليه الأستاذ عثمان حافظ عندما تعرض للكتابة عن تاريخ الصحافة ، وآخرها بحث عن الفن والغناء في الجاهلية نُشر في مجلة « المنهل » في عدد خاص عن الفن والفنون عند العرب وكان الأستاذ أمين مدني ـ رحمة الله ـ مستمراً في العطاء بقدر ما تسمح به طاقته وصحته .

## ● المجلات والصحف والدوريات التي نشر بها مقالاته :

نشرت أعمال أمين مدني وبحوثه في عدد كبير من المجلات والصحف والدوريات منذ أن بدأ التأليف والبحث في الخمسينات ، ويصعب إيراد قائمة مفصلة بها . وإن كان من المعروف أن بحوث المؤلف نشرت في : « المدينة » و « عكاظ » و « الرياض » و « البلاد » و « المنهل » و « المجلة العربية » و « قافلة الزيت » وعدد من الصحف المصرية والمجلات اللبنانية والقاسم المشترك بين هذه البحوث والمقالات الأسلوب التحليلي ، والدقة والتقصي ، والشجاعة في إبداء الرأي حتى ولو خالف الأغلبية السائدة .

وكان يفكر أمين مدني ـ رحمه الله ـ في تجميع أهم هذه المعاملات في كتاب واحد يتيح للقارىء التعرف على هذا الجانب من إنتاجه بين دفتي كتاب واحد .

## ● المحاضرات :

أمين مدني محاضرات عدة ألقاها في شتى المحافل والمناسبات العامة والمنتديات الخاصة ، منذ إنشاء بعض المحافل الأدبية في المدينة مثل « جمعية المحاضرات » و « الحفل الأدبي » . وهو عدد كبير يصعب حصره فعلى سبيل المثال فقط :

ـ كلمة افتتح بها أمين مدني حفل تكريم السيد أمين الحسيني ورياض الصلح وجماعتهما في زيارة للمدينة المنورة عام ١٣٥٥هـ .

ـ محاضرة في رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٨٥هـ عن « الإسلام والعنصرية » نشرت في كتاب المحاضرات الصادر عن الرابطة .

ـ محاضرة أخرى في رابطة العالم الإسلامي عام ١٣٨٦هـ بعنوان « الإسلام دين عقل وعمل » دعى فيها إلى التعاون الأكاديمي ، والاقتصادي بين الدول الإسلامية عبر منظمات حديثة ، وأكاديميات معترف بها ، ومدرسة ملاحية تقنية تقام على شواطىء الخليج الذي اقترح تسميته « بالخليج الإسلامي » ، وها نحن اليوم نرى « مجلس التعاون الخليجي » ، و « منظمة المؤتمر الإسلامي » ، و « جامعة الخليج » ، و « الجامعة الإسلامية » ، و « البحوث العلمية التي تنادي بالحصول على التقنية ( التكنولوجيا ) عبر المعاهد البحرية .

ولعل في بحوث المؤلف إرهاصات لما نشهده اليوم من تعاون منظم بين الدول الخليجية والإسلامية . . . كما نظم أمين مدني الشعر في بعض المناسبات ، منها قصيدة مشهورة ألقاها بين يدي المغفور له الملك عبدالعزيز كعضو من أعضاء وفد المدينة المنورة ـ قال في مطلعها :

قم حي في العرب الأباة الصيدا ... ملكاً أعاد به الإله سعودا
ملك تقفى الراشدين مجاهدا ... لما رأى في السابقين جمودا
في أمة نهضت وكان شعارها ... الحق والتوحيد والتجديدا

## ● المشاركات في المجامع والمجالس واللجان :

شارك أمين مدنى عبر حياته العملية ونشاطه العلمي في كثير من الوفود والمجالس واللجان ، حيث ترأس هيئة لتوزيع المساعدات في جيزان ، وهيئة أخرى لتنظيم وإصلاح مالية «الوجه» ، ومثل المدينة المنورة في عدد كبير من الوفود الرسمية التي كانت تشكل لتمثيل المدينة في المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة .